

ڤيراتا

وقصص أخرى

ستيفان زيفايج وآخرون



بيروت - لبنان

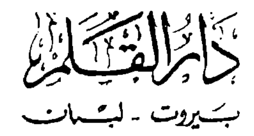
فيراتا

ستيفان زيفايج وآخرون

[redacted]



وقصص أخرى



ص.ب ٣٨٧٤
بيروت ـ لبنان

المقدمة

الأدب الحق يخلب البابنا ويطبي قلوبنا ويلد شعورنا ويستغرقنا ويذهلنا عن تقدير النافع والضار وينسينا حساب الربح والخسارة ، ويملأ عقولنا بالصور والمرائي ونفوسنا بالمشاعر والاحاسيس ، ومن ادق مقاييس الأدب واصدقها ـ سواء في نلك الأدب الخالد او الادب الزائل ـ قدرته على امتاع نفوسنا وادخال السرور على قلوبنا ، واذ كنا نفضل تمثيلية من تمثيليات شكسبير ، او نعجب بقصيدة من قصائد المتنبي ، او نؤثر رواية من روايات ترجنيف او قصة من قصص شيكوف ، فما ذاك الا لأنها أشد استيلاء على نفوسنا من غيرها . على ان المتعة الادبية ليست الهدف المقصود في كل قراءة ، فقد نقرأ الكتب التماسا للفائدة وطلبا للمعرفة ، من امثال نلك قراءة كتب الطب او الرياضة او الاقتصاد وما الى نلك من كتب المعلومات العامة والارشادات النافعة ، وقد يكون في بعض تلك الكتب اثارة من الفن ونفحة من الأدب ، ولكنها لا تحاول نلك ولا تتحراه ولا تضعه في المكان الأول ، اما الشعر والقصص والرسائل والفصول الأدبية فتقرأ قبل كل شيء للاستمتاع .

وهذه المجموعة المختارة من القصص والاساطير قد قرأتها واستمتعت بها ، وبدا لي ان اشرك قراء اللغة العربية في هذه المتعة فحاولت نقلها الى العربية ، وبلغت في نلك جهدي ، وارجو ان يكون التوفيق قد صحبني ، فان الترجمة فن ، والفن لا يكفي فيه الجهد المبذول ولا تحمل العناء . ولا بد فيه من التوفيق ، والتوفيق من عند الله يؤتيه من يشاء .

وقد تعويت في اختيار امثال هذه القصص والاساطير ان ارسل نفسي على سجيتها ولا اسومها حب ما تكره ، ولا احملها على الرضا بما تضيق به مهما كان الاجماع على استحسانه ، فلم اتخير الا ما آنس به وارتاح اليه ، ولم اتقيد بآراء جهابذة النقد واعلام الأدب . وسيطوف القارىء من هذه المجموعة بعوالم شتى ودنى آهلة حافلة ، وينتقل من عالم زفايج الى عالم فاسرمان ، ومن دنيا دستوفسكي الى دنيا رينان ، ويطل على عالم بيراندللو ويشرف على دنيا بورجيه ، وكلها عوالم ودنى ضخمة فخمة هائلة رائعة يكاد يصدق فيها قول المتنبي في ممدوحه :

وقلبك في الدنيا ولو دخلت بنا ويالجن فيه ما درت كيف ترجع

والقصة في العصر الحاضر كثيرة الالوان متنوعة الاشكال ، تكاد تتحدى كل تعريف ، وتتجاوز كل تحديد ، وتختلف صورها تبعا لاختلاف العقول وتباين الامزجة ، فلا يستطيع الانسان ان يحدد معالمها ، ويحصى سماتها وملامحها ، ولعل غاية ما يمكن ان يقال ان هناك قصصا للهو والتسلية وتزجية الوقت ودفع الملل وقصصا اخرى تتفاوت في الارتفاع عن هذا المستوى ، ولا ريب في ان القصص المسلية لها مكانها في عالم القصة ، ولكل انسان الحق في ان يتسلى على الطريقة التي يؤثرها ، والحياة ما تغيب همومها ولا تنقضي متاعبها ، والحاجة الى التماس التسلية في القصة القصيرة شديدة ماسة ، ولكن العيب البارز الملحوظ هو ان الكثير من القصص التي تجود بها قرائح الكتاب وتقذف بها المطابع لا يعد من قبيل التسلية لغثاثته وتفاهته ، وانما يعد من الانتاج الصناعي الآلي لا من الانتاج الفني ، وقصارى امر امثال تلك القصص ان تكون مثلها الاسهم النارية يتوهج نورها ، ولكن سرعان ما تنطفيء وقدته ، ويخبو ضياؤه ، ويغيب في عالم الظلام والدثور .

وبعض الناس يقرأ القصص لتحصيل العلم من اقرب السبل وبايسر الاساليب ولكن الواقع ان هذا نوع من الكسل العقلي وطلب الامن والسلامة وايثار الدعة والراحة ، وخير لطالب المعرفة ان يلتمسها في مظانها ومراجعها ، والقصصي الصادق يقدم لك وجهة نظره الخاصة للكون والاشياء لا وجهة النظر العامة ، والقصة ترمي الى التسلية والامتاع ، والمهم ان نفرق بين المتعة القيمة النفسية والمتعة الرخيصة المبتذلة .

والفرق بين القصة والرواية هو ان كاتب الرواية ينظر الى الحياة من مختلف اقطارها نظرة شاملة مستوعبة ، ويمثل علاقاتها وروابطها المشتبكة المتداخلة وشعبها ومساربها ، واما كاتب القصة فانه يثبت نظرته في ناحية من نواحيها ، ويسلط عليها ضوء تفكيره ، ويركز فيها جهده ، ثم يصور هذه الناحية في ايجاز خلاب ، واستقامة النظرة وثباتها وقدرتها الكاشفة شيء غير النظرة الشاملة الكلية ، وقد يعجز الرجل الناضج الخبرة الواسع التجربة عن تثبيت نظره في ناحية بعينها وحصر فكره في حدودها ، وقليل من الناس اجتمعت فيه القدرة على النظرة الشاملة والقدرة على النظرة المتثبتة الفاحصة ، ولذا قد لا يتوفق الكاتب الروائي القدير في كتابة القصة او الاقصوصة توفيقه في كتابة الرواية الضافية المتعددة الفصول الزاخرة بالاشخاص والحوادث و المشاهد ، فكاتب مثل موباسان كان اقدر على كتابة القصة منه على كتابة الرواية ، وسكوت ، وديكنز لم يبرزا في كتابة الاقصوصة ، واجادتهما في مجالها قليلة نادرة ، وقل ان تجتمع القدرتان في كاتب واحد .

والروايات الطويلة كثيرا ما تنحرف عن الغرض ، وينقطع بها السياق ، وقد لا تكون من الناحية الفنية محكمة البنيان متماسكة الاجزاء ، وغير عجيب في عصرنا هذا وهو عصر السرعة ان تنافسها القصة او الاقصوصة وتقوم مقامها ، وتؤدي غرضها دون ان تقتضى القارىء وقتا طويلا ولا التفاتا وافيا متصلا .

وقد وجدت القصة القصيرة من عهد عهيد ، ومرت بمراحل مختلفة ، وتطورت تطورات شتى ، وكثرت انواعها اواخر القرن التاسع عشر وفي العصر الراهن حتى قال الكاتب الانجليزي ولز في تعريفها : « القصة القصيرة هي رواية يمكن ان تقرأ في اقل من نصف ساعة » ، والظاهر ان التطور

الذي الم بالقصة القصيرة لم يكن تطورا داخليا فحسب ، وانما كان تطورا ساعد عليه ضغط الظروف الراهنة ، والظاهرة ان حاجة العالم الى تحري الصدق والايجاز قد اعانت على رفع منزلة القصة القصيرة حتى اصبحت مكانتها تضارع مكانة الرواية ان لم تفقها وتسبقها ، وكلما كانت القصة اصدق في تصوير الواقع وترديد صدى الحياة كانت ادخل في الأدب والفن وادنى الى البقاء والخلود واجدر بالتسلية والامتاع .

علي ادهم

كلمة عن استيفان زفايج مؤلف
اسطورة فيراتا

استيفان زفايج كاتب من كتاب اوربا المعدودين وعلم من اعلام الأدب العالمي ، وقد لمع اسمه وذاعت شهرته وكثر انتاجه القيم الخصب في الفترة الممتدة بين الحربين ، ولم يكن زفايج كاتبا عظيما فحسب وانما كان كذلك انسانا عظيما كبير القلب جم العطف مخلصا للانسانية يود لها الخير والسمو والكمال والاخوة الشاملة والوحدة التي تزول بها الخلافات المذهبية والقومية والعنصرية ، وقد كانت فجيعة عشاق ادبه والمعجبين بنبوغه وتفوقه وشخصيته بالغة حينما روعهم نبأ انتحاره في سنة ١٩٤٢ والحرب الكبرى الثانية مشتعلة الاوار دائرة الارحاء ، فقد عرفوا انهم سيحرمون الاستزادة من ادبه الانساني العميق وفنه المعجز الساحر ، كما آلمهم ان تنتهي هذه الحياة الخالصة للفكر الحر والدوافع الكريمة بهذه النهاية الفاجعة ، ولقد تذكرت يوم مصرعه قول المتنبي في رثاء ابي شجاع فاتك :

المجد اخســـــر والمكـــــارم صــفقة   من ان يعيش لهــا الهمــام الاروع
والنـــاس انزل في زمانـــك منــزلا   من ان تعايشـــهم وقــدرك ارفـــــع

والواقع ان زفايج في سنواته الاخيرة صار يعتقد ان عالمه قد طوى وانتهى وانه اصبح في العالم الجديد مشردا طريدا ليس له مكان ، وملأت هذه الفكرة نفسه واخذت عليه مسالك تفكيره ، وتبدت آثارها جلية واضحة في كتابه المؤثر البليغ « عالم الامس » . وكانت الاحداث العالمية السيئة المتوالية تنال من نفسه الرقيقة العذبة السمحة وحسه المرهف وذوقه المصفى المترف ، ولقد قيل ان مثل هذا الرجل الفذ الممتاز لم يكن من حقه ان يتصرف بحياته مثل هذا التصرف ويوردها مورد التهلكة قبل ان يطرق بابه الموت الذي سيوجف الينا رسوله سواء نعمنا بالحياة او شقينا بها ، وقد يكون ذلك حقا ،

فان الحياة هبة من الله وليس لنا ان نرفض هذه الهبة ، ولكن ربما نلتمس العذر لزفايج في ان الحياة التي رفضها وقضى عليها كانت حياة كليلة متعبة مجهودة لاغبة قد استنفدت قوتها في خدمة الانسانية ومثلها العليا واهدافها الكبرى ، وقد كان هذا العامل المجد الدؤوب يطمع في الراحة ويشتاق الهدوء ويحن الى الطمأنينة بعد ان أدى فريضته واتم رسالته .

وقد ولد زفايج في فينا سنة ١٨٨١ من اسرة يهودية عريقة وتعلم في معاهدها وظهر ميله الى الأدب مبكرا فقرض الشعر ، وافسحت له الصحف والمجلات الأدبية الراقية صدرها وهو ما زال في ميعة الشباب ، وبالرغم من هذا النجاح السريع والتوفيق العاجل فانه لم يتملكه الغرور ولم يأخذه الزهو ، بل ازداد عكوفا على الدرس والتحصيل والتزود من ضروب المعرفة ، واتصل بالشاعر البلجيكي الكبير اميل فيرهايرن ونشأت بينهما صداقة ادبية روحية ، وقد اثر فيرهايرن تاثيرا بعيد المدى في نفس زفايج ، وقد حمله هذا التأثير على ترجمة اشعار فيرهايرن الى اللغة الالمانية ترجمة رضي عنها النقاد واعجب بها الأدباء والقراء .

وجاءت الحرب الكبرى الأولى فحطمت آمال زفايج وبددت اوهامه وهزت يقينه بالانسانية واضعفت ايمانه بالتقدم ، وقد بدت له الحرب شيئا بغيضا فظيعا في عالم ناضج الثقافة واسع المعرفة غزير العلم ، ولف نفسه تشاؤم كامد مظلم ، وقد وصف كراهيته للحرب في روايته الجميلة الممتعة « ارميا » ، فارميا يمثل زفايج في ابان الحرب ، وقد وقف من قومه موقف الحذر المنذر .

وادب زفايج حافل منوع . واكتفى بكلمة قصيرة عن اسطورة فيراتا التي اخترتها من اقصوصاته التي تمتاز بوصف الحالات النفسية والتجوال مع القارىء في مسارب الروح وغيابات النفس وحفايا القلب .

وفيراتا هو شقيق ارميا وسيشرون وروما رولان وتولستوي وزفايج نفسه ، وفيراتا المحارب المجاهد والبطل الابدي يلقى سلاحه في النهر ، وفيراتا القاضي العادل والحكم المنصف يرفض اسمى المناصب واعظم التشريف ليفرغ لفهم العدالة ويتعرف سر الحياة ، ثم يهجر اسرته وداره ويخلو بنفسه

في الغابة بعد ان عرف ما يعانيه المجرمون من آلام العقوبة وما يحتملونه في ظلمات السجون ، وعندي ان هذه القصة على قصرها وايجازها تكشف عن فلسفة زفايج الانسانية الحزينة وصوفيته الخفية الدفينة وتبين موقفه من الحياة ومشكلاتها ، وفي اعتقادي انها تبين لنا السر في موجة الشك من العدالة الانسانية وترجيح غلبة الاثرة على الطبائع البشرية التي طغت على نفس زفايج وكيف كانت تعيش في نفسه المشكلات التي صارعها فرويد وهاجمها تولستوي ، وربما لم يكن غير مستغرب ان يؤثر مثل هذا الرجل اليائس المحزون الموجعّ القلب المكروب مفارقة الحياة والحرب الرهيبة مشبوبة اللظى قائمة على ساق وقدم .

فيراتا

« او عينا الاخ الذي لا يموت »

اسطورة فيراتا

هذه قصة فيراتا الذي شرفه قومه باسماء الفضيلة الاربعة ومع ذلك لم تذكر عنه كلمة في اخبار الغزاة الفاتحين او في اسفار الحكمة ، وامحت ذكراه من خواطر الناس ..

في الايام الخالية قبل ان يعيش على الارض بوذا الجليل ليملأ نفوس مواليه بنور علمه كان يقيم بأرض برواجر رجل شريف مستقيم مع رعايا احد ملوك راجبوتانا اسمه فيراتا ، وكان يعرف كذلك بلمعان السيف ، لانه كان محاربا عظيما يفوق سائر الناس بأسا واقداما . وكان صيادا حاذقا لا يطيش سهمه ولا يضطرب رمحه ، وكان ليمينه الموثوق بها مضاء الصاعقة ، وكان محياه هادئا وديعا ، وعيناه لا تختلجان ازاء نظرة اي انسان . وما ضغط قط غاضبا قبضة يده ولا ارتفع له صوت من الغيظ والحنق . وكما كان هو نفسه خادما مخلصا للملك ، فكذلك كان خدمه يخدمونه باحترام ، لانه كان مضرب الامثال في العدالة بين جميع الذين عاشوا في ارض الانهر الخمسة ، وكان الاتقياء يحنون رؤوسهم حينما يمرون بداره ، وكانت وجوه الاطفال تتهلل من الفرح لرؤية عينيه البراقتين .

ولكن في ذات يوم نابت الملك سيده نائبة ، فقد طمع الوالي على نصف المملكة في ان يكون حاكما للمملكة كلها ، وكان شقيق زوجة الملك . واستمال بالهبات الخفية صناديد المحاربين لينضموا الى دعوته ، وحمل الكهنة على ان يحضروا له تحت ستار الظلام طائر البلشون من البحيرة ، ذلك الطائر المقدس الذي كان منذ آلاف السنين شعار الملكية بين سكان برواجر . وصف فيلته في الميدان ، ودعا الى جيشه الناقمين المتذمرين من التلال واليفوع ، وزحف على العاصمة .

وأمر الملك بان تدق الصنوج النحاسية من الصباح الى المساء ، وبان ينفخ في الابواق العاجية . وفي الليل كانت توقد النيران فوق الحصون ، وتلقى حراشف السمك في اللهب الذي كان يرسل شعاعا اصفر في ضوء النجوم رمزا للخطر ، وقليلون من لبوا الدعوة ، لان انباء سرقة البلشون ذاعت وشاعت ، وضعفت قلوب القادة بين جوانحهم . وانحاز الى جانب الاعداء القائد الاعلى للجيش ورئيس كتيبة الفيلة الذي كانت ثقة الملك به تفوق ثقته بأي انسان آخر من رجاله المجاهدين ، وعبثا نظر الملك المهجور حوله باحثا عن اصدقائه . ومن سوء الحظ انه كان سيدا فظا غليظا سريعا الى العقوبة ، ومدققا صارما في جمع الضرائب الاقطاعية . ولم ينتظره بالقصر احد من الزعماء المجربين المؤتمنين ، ولم يكن هناك سوء اخلاط من الخدم والحشم البائسين العاجزين .

وفي هذه الازمة الحازبة اتجهت افكار الملك الى فيراتا الذي ارسل الى الملك يؤكد ولاءه حالما دوت الابواق ، ودخل الملك في محفته المصنوعة من الابنوس وحمل الى دار تابعه الوفى . ولما خرج الملك من المحفة انبطح فيراتا على الارض ، ولكن الملك كان في هيئة الراجي المتوسل ، فقد التمس من فيراتا ان يتولى زمام الجيش ويقوده ضد العدو ، فامتثل فيراتا وقال :

« سأقوم بذلك يامولاي ، ولن اعود الى حمى هذا السقف حتى تخمد نيران الثورة تحت اقدام خدمك ».

وفي التو واللحظة جمع ابناءه وعشيرته وعبيده وتقدم معهم لينضم الى فلول الملك ، وصف صفوفهم للمعركة ، وشقوا طريقهم في الغابة المتلبدة ، وفي المساء وصلوا الى النهر الذي احتشد العدو على الضفة المواجهة له في عدد لايحصى . ولفرط ثقة الثائرين بأنفسهم اقبلوا على قطع الاشجار ليبنوا بها الجسر الذي كان في مأمولهم ان يعبروا عليه في صباح اليوم التالي ، ويغرقوا الارض بالدماء ، ولكن فيراتا حينما كان يصطاد النمر اهتدى الى مخاضة اعلى من المكان الذي كان يبني فيه الجسر ، وفي احلك ساعات الليل ظلاما قاد رجاله عبر النهر واخذ العدو على غرة ، وأخاف الملكيون بالمشاعل الملتهبة الفيلة والجواميس في معسكر العدو فجفلت واشاعت الفوضى والذعر بين الجموع الراقدة ، وكان فيراتا اول من وصل الى خيمة الذي يريد اغتصاب العرش ، وقبل أن تكمل يقظة نزلاء الخيمة وضع السيف في اثنين منهم ، واتبعهما بثالث كان يهم بالبحث عن سلاحه ، وقتل رابعا وخامسا وهو يجاهدهم علانية في الظلام ، قاد احدهم بضربة في الرأس ومخترقا صدر الآخر الذي لم يكن قد لبس الدرع ، وحالما سقطوا على الارض بغير حراك شبحا الى جانب شبح ، وقف فيراتا بمدخل الخيمة ليدفع عنها كل من يحاول حمل البلشون الابيض شعار الملكية المقدس ، ولكن لم يجرؤ احد على ذلك لان العدو ولى الادبار ولاذ بالفرار ، وقد شد عليهم الملكيون الفرحون المنتصرون وسرعان ما هدأت ضجة المطاردة ، وجلس فيراتا في هدوء وسكينة امام الخيمة وسيفه في يده منتظرا عودة زملائه من المقاتلة .

وبعد فترة وجيزة اشرقت انوار النهار خلف الغابة ، وكان لاشجار النخيل في ضوء الشمس الباكرة حمرة عسجدية ، وكانت ظلالها تنعكس في النهر كالمشاعل ، وتبدت الشمس مضرجة بالدماء كانها جرح يشتعل اشتعالا في المشرق ، ونهض فيراتا ونضا عنه ثوبه وسار الى النهر مرفوع اليدين ، وبعد ان انحنى شكرا لله نزل في الماء ليتطهر وغسل يديه وازال منهما الدماء ، وعاد الى الشاطىء في ضوء الصباح الابلج وارتدى ثيابه وقصد الخيمة هادىء المحيا ليفكر في احداث الليل ، وكانت جثث القتلى لاتزال ملقاة هنالك وعيونهم شاخصة ووجوههم قد مسخها الذعر ، وكان رأس مغتصب العرش مفلقا ، والخائن الذي كان القائد الاعلى للجيوش في ارض برواجر كان هو الذي قتل من طعنة بالسيف في صدره ، فاغمض فيراتا عيني كل منهما وتقدم لينظر الى الذين قتلهم وهم راقدون ، وكان اثنين منهم

غريبين لا يعرفهما وهما من خدم الخائن وقد قدما من الجنوب ملبدي الشعر اسودي الوجه ، ولكن حينما نظر الى اخر القتلى غشي بصره لانه رأى امامه وجه اخيه الاكبر بلانجور امير الجبال الذي جاء لمساعدة مغتصب العرش ، وقد قتله فيراتا وهو لايدري ما صنع ، وانحنى وهو يرتجف ليتحسس نبض قلب الرجل المضلل ، وكان القلب قد توقف عن النبض توقفا ابديا ، وقابلت عينا القتيل عينيه بنظرة جامدة قرة ، وكانت هاتان العينان السودوان تخترقان اعماق نفسه ، فقعد فيراتا بين القتلى وهو لايكاد يقوى على التنفس شاعرا كانه احد هؤلاء القتلى ومحولا عينيه بعيدا عن تلك النظرة المتهمة ، نظرة اول من ولد لامه من الاولاد .

وسرعان ما سمعت الجلبة في الخارج ، وجاء الجنود العائدون الى الخيمة يحملون النهاب والغنائم فرحين مغتبطين ، وقد ارتفعت صيحاتهم المرحة المتأبدة كصيحات جوارح الطير ، ولما وجدوا مدعي العرش قتيلا بين انصاره وعلموا ان طائر البلشون سليم لم يمسه سوء استخفهم الطرب فوثبوا ورقصوا ولثموا رداء فيراتا الذي لم يكن ملتفتا لهم ولقبوه بين الهتاف والتهليل بلمعان السيف ، وكلما تكاثر العائدون منهم حملوا العربات بالاسلاب ، وغاصت العجلات الى الاعماق تحت ثقل الاحمال حتى اضطروا الى ان يستحثوا الجواميس بالابواق ، واستهدفت الزوارق لخطر الغرق ، وخاض النهر احد الرسل مسرعا ليحمل الى الملك الانباء السارة . ولكن الاخرين ظلوا الى جانب الاسلاب فرحين بالنصر .

وفي اثناء ذلك جلس فيراتا صامتا كانه في حلم ، ولم يرفع صوته سوى مرة واحدة حينما هم الجنود بتجريد القتلى ونهبهم ، وهب حينذاك واقفا على قدميه وامر بان تبنى محرقة لكي يحرق فيها القتلى وتذهب ارواحهم مطهرة الى عالم تناسخ الارواح ، وعجب الخدم والاتباع من سلوكه هذا المسلك وترفقه بالثائرين الذين كان يجب ان تقطع اوصالهم الثعالب وتترك عظامهم تحت الشمس حتى تصبح بيضاء ، ولكنهم مع ذلك فعلوا ما أمرهم به ، ولما بنيت المحارق اشعل فيراتا النار فيها بيديه والقى بها الطيوب وخشب الصندل ، وادار وجهه ووقف صامتا حتى تهاوت المنصة المشتعلة وتساقط الرماد المتوهج على الارض .

وفي خلال ذلك كان الخدم قد اتموا بناء الجسم الذي بدأ بناءه في اليوم السابق خدم مغتصب العرش مغتربين متبجحين ، وكان المحاربون من عبر الجسر وقد اتخذوا اكاليل من ازهار الاشجار الطلح ، ومر بعدهم العبيد ، ثم السادة الاشراف على ظهور الجياد ، وارسل فيراتا معظم المحاربين في الطليعة لان هتافاتهم واغانيهم كانت لا تلائم حالته النفسيه ، وتريث في منتصف الجسر ونظر مليا يمنة ويسرة فوق المياه المنسابة ، على حين كان الجنود الذين عبروا امامه والذين كانوا يهمون بالعبور والذين كانوا في المؤخرة نزولا على امر قائدهم ، على حين كان هؤلاء جميعا قد احتواهم التعجب وهم ينظرون اليه ، ورأوه يرفع سيفه كأنه يتهدد السماء ، لكنه لما انزل ذراعه راخى قبضة انامله فسقط السيف في النهر ، فوثب الى الماء من ضفتي النهر فتيان عراة ظانين ان السلاح قد سقط عرضا آملين ان يستردون بالغطس في النهر ، ولكن فيراتا منعهم من القيام بهذه المحاولة ، وتقدم بخطوات واسعة وهو في هيئة المحزون بين الخدم الذاهلين المأخوذين . ولم ينبس بكلمة واحدة اثناء العودة الطويلة الى داره .

وكانت الابواب المصنوعة من الخشب وشرفات الابراج في برواجر لا تزالان بعيدتين حينما شوهدت سحابة بيضاء من الغبار تتقدم ، وقد اعلن قدومها العداؤون والراكبون الذين خرجوا من القتام ، وتوقفوا عند رؤية الجيش وفرشوا الطنافس في عرض الطريق رمزا لقدوم الملك لان اخمص قدمه يجب

الا يمس الثرى العادي من يوم ميلاده الى الساعة التي يفنى فيها جسده الطاهر لهب المحرقة ، وهلت طلعة الملك يحمله سيد الفيلة ويحف به الشبان ، وركع الفيل الضخم خاضعا لامر قائده ، وخطا الملك على الطنافس ، واراد فيراتا ان ينطرح على الارض امام سيده ، ولكن الملك سارع الى معانقته وهو شرف لم يسبق ان اختص به الملك رجلا ادنى منه منزلة ، وامر فيراتا باحضار البلشون ولما رفرفت اجنحته البيضاء طرب القوم وتعالت اصواتهم وحمحمت الجياد ، ولقي سائقوا الفيلة العناء في اخضاعها وامتلاك زمامه ، ولما شاهد الملك هذه الايات الدالة على النصر عاد الى معانقة فيراتا واشار الى احد حاشيته ، وكان يحمل سيف اول ابطال راجبوتانا ، وكان هذا السلاح قد حفظ في خزائن ملوك راجبوتانا منذ قرابة خمسة الاف سنة ، وكان مقبضه يلمع بالجواهر ، وقد نقش على نصله بحروف من الذهب تأكيد خفي يضمن النصر ، وكان لايستطيع تفسير رموز كتابته القديمة سوى الحكماء وكهنة المعبد الكبير ، وقدم الملك هذا السيف هذا لفيراتا رمزا لعرفان الجميل وليظهر انه من ذلك الحين فصاعدا قد اتخذ فيراتا رئيسا لمقاتلته وقائد لجيوشه .

ولكن فيراتا انحنى انحناءة بالغة قائلا :

« هل لي ان استوهب اعظم الملوك اسماحا والتمس عارفة من اكرمهم يدا ؟»

فأجاب الملك مشرفا على راس الملتمس المنحني :

« ان طلبك مجاب حتى قبل ان ترفع عينيك لتلقيا عيني ، وما عليك سوى ان تطلب لاهبك نصف مملكتي »

فحينئذ قال فيراتا :

« تفضل اذن وأصدر الامر برد هذا السيف الى خزانتك لاني قطعت على نفسي عهدا بالا احمل السيف ابدا وقد قتلت اخي وهو غيري الوحيد الذي ولدته امي وكانت تلاعبه وترقصه معي »

فنظر اليه الملك في دهشة واستغراب ، ثم اجاب :

« في هذه الحالة لتكن قائد جيوشي ، ولو من غير سيف لكي اطمئن على سلامة مملكتي من الاعداء فانه لم يقد بطل جيشه ضد قوة تفوقه بحكمة اكثر من حكمتك ، فخذ هذا الوشاح رمزا للقوة وخذ كذلك فرسي حتى يعرف الجميع انك رئيس المقاتلة »

ولكن فيراتا عاد وانطرح على الارض واضاف :

« لقد ارسل الله الي علامة ، وقد وعاها قلبي ، فقد قتلت اخي ، وعلمني هذا ان كل من يقتل انسانا اخر انما يقتل اخاه ، ولا استطيع قيادة الجيوش في الحرب لان السيف هو عنوان القوة ، والقوة هي عدوة الحق ، والذي يشترك في جريمة القتل هو نفسه قاتل ، وليست لي رغبة في ابث الخوف في نفوس الغير ، واني افضل ان آكل خبز المتسول على انكار العلامة التي بانت لي ، والحياة قصيرة بين الاشياء التي لاينتهي زوالها واحب ان اقضي ايامي من غير ان اتورط في خطأ آخر ».

. فأظلم جبين الملك هنيهة ، وساد هناك صمت الخوف بعد الجلبة المدوية ، فمنذ ايام الاباء والاجداد لم يسبق ان نبذ الحرب رجل من الاشراف ، ولم يحدث امتناع امير عن قبول هدية الملك ، ولكن الملك نظر اخيرا الى طائر البلشون المقدس الذي استرده فيراتا من الثائرين ، وحينما ابصر رمز النصر هذا اشرق وجهه وقال :

« لقد عهدتك دائما شجاعا في مقارعة اعدائي وعرفتك متفوقا في تحرى العدالة بين رعيتي ، واذا كان لابد ان اعمل بدون معونتك في الحرب فانني لا استطيع ان استغني عن خدماتك في ميدان اخر ، ولما كنت انت نفسك رجلا عادلا . وتستطيع ان تعرف العمل الخاطىء وتقدره فانك ستكون قاضي

قضاتي وستصدر الاحكام من مدخل قصرى ، وبذلك يسود الحق في داخل اسواري وتعم العدالة البلاد .

فسجد فيراتا امام الملك الذي امره بان يركب الفيلر الملكي ، ودخلا جنبا الى حنب المدينة ذات الابراج الستين بين الهتافات التي كانت تدوى وتقصف مثل لجج البحر الملتج .

ومن ذلك الحين كان فيراتا يتولى العدالة باسم الملك من الفجر الى غروب الشمس بقمة السلالم الوردية اللون في ظلال القصر الملكي ، وكانت احكامه مثل الميزان الذي تضطرب كفتاة طويلا قبل ان يميل الى هذا الجانب او الى ذلك الجانب الاخر ، وكانت عيناه النافذتان تبحثان في اعماق نفس المتهم ، وكانت اسئلته تتغلغل الى داخل الجريمة ، كما يحفر الباجر في ظلمات ما تحت الارض ، وكانت احكامه صارمة ، ولكنه كان لاينطق بها في يوم سماع القضية ، وكان دائما يسمح لفترة الليل الهادئة ان تتدخل قبل اصدار الحكم ، وفي اثناء الساعات الطويلة التي تسبق طلوع الشمس كان اهل منزله يستطيعون ان يسمعوا خطواته ، وهو يذرع سقف المنزل مفكرا في اوجه الصواب واوجه الخطأ للقضية التي يبحثها ، وكان قبل ان يصدر حكما من الاحكام يغسل يديه وجبينه حتى يجيء حكمه بريئا من الهوى ، وكذلك كان من عادته قبل النطق بالحكم ان يسأل المذنب هل هناك سبب يدعو الى الشكوى من عدالة الحكم ، وكان من النادر ان يلقي اعتراضا ، وكان المجرم يقبل في صمت مرقاة مقعد العدالة ويتقبل الحكم محني الراس كأنه قضاء من الله .

ولم يصدر فيراتا قط امرا بالاعدام حتى لأفظع الجرائم ، وكان يقاوم كل الاغراءات التي تحرضه على ذلك ، وكان يخشى ان يلوث يديه بالدم ، وحوض ينبوع راجبوتانا القديم الذي كان الجلاد يجعل المجرمين يحنون رؤوسهم على حافته قبل ان يضرب ضربته القاضية والذي سودت احجاره الدماء غسلته الامطار وبيضته في اثناء السنوات التي تولى فيها فيراتا امور العدالة ، ومع ذلك لم يزد الشر والفساد في البلاد ، وكان يسجن الجارمين في سجن منحوت من الصخر او يرسلهم الى الجبال ليستخرجوا الاحجار لاسوار الحدائق او الى طواحين الارز على شاطىء النهر حيث يديرون عجلاتها الى جانب الفيلة ، ولكنه كان يحترم الحياة ، وكان الرجال تحترمه ، ولم يظهر قط اي خطأ في احكامه ، ولم يكل من البحث وراء الحق ، ولم تنم كلماته على الغيظ ، وكان المزارعون يقبلون من اقصى انحاء البلاد على عرباتهم التي تجرها الجواميس ليعرضوا عليه ما ثار بينهم من خلاف ليتولى الفصل فيه ، وكان الكهنة يطيعون نواهيه ، وكان الملك يستمع لنصيحته ونمت شهرته كما تنمو شجرة الخيزران ، ونسي الناس انهم سموه يوما « لمعان السيف » واصبح معروفا في اطراف راجبوتانا باسم « منبع العدالة ».

وفي السنة السادسة لتولي فيراتا شؤون العدالة حدث ان فريقا خاصا من المدعين احضروا شابا من قبيلة الكازار ، وهم القوم المستوحشون الذين يقيمون وراء التلال الصخرية ويعبدون آلهة اخرى ، وكانت قدماه ملطختين بالدماء لانهم اضطروه الى السير طويلا مدة ايام كثيرة ، وكانت ذراعاه القويتان قد شدتا شدا وثيقا خشية ان يستعملها في ايقاع الاذي الذي تهدد به عيناه الرهيبتان القاسيتان ، ولما اقتادوه الى مجلس العدالة ارغموا الاسير على الركوع امام فيراتا ، ثم رفعوا جباههم ، ورفعوا بعد ذلك ايديهم دلالة على انهم جاؤوا ملتمسين شاكين .

فنظر القاضي الى الغرباء نظرة تساؤل وقال :

« من انتم ايها الاخوان القادمون الي من بعيد ، ومن هذا الرجل الذي احضرتموه معكم مكبلا ؟».

فانحنى اكبر القوم سنا انحناءة احترام واجاب :

« نحن رعاة ايها السيد ، نعيش في هدوء بالارض الشرقية ، والرجل الذي احضرناه لك هو شر قبيلة شريرة ، وهو شقي قد قتل من الرجال اكثر من عدد اصابع يديه ، وقد سأل احد سكان قريتنا ان يزوجه ابنته فرفض لان رجال قبيلته لهم عادات تدل على عدم التقوى ، فهم يأكلون الكلاب ، ويذبحون البقر ، وزوجها ابوها بدلا منه تاجرا في الاراضي الواطئة ، واخذ هذا الرجل في ثورة غضبه من جراء ذلك يسرق الكثير من ماشيتنا ، وفي ذات ليلة قتل والد الفتاة واخوتها الثلاثة ، وكلما ذهب انسان من افراد هذا البيت ليرعى الماشية في التلال كان هذا الرجل يقتله ، وقد قتل من قريتنا احد عشر رجلا حتى جمعنا اخيرا قوتنا وطاردناه كما نطارد الوحوش المفترسة حتى استطعنا ان نأسره ، والان قد سقناه اليك يا اعدل القضاة لكي تريح الارض من شره ، وتكف عنها اذاه ».

فرفع فيراتا راسه ونظر الى الرجل المقيد :

« احق ما يقولونه عنك ؟»

« من انت ؟ هل انت الملك ؟»

« انا فيراتا خادم الملك وخادم العدالة لكي اكفر عن اخطائي واميز الحق من الباطل »

وسكت المتهم هنيهة ثم نظر الى فيراتا نظرة نافذة :

« وكيف تستطيع ان تعرف الحق والباطل من فوق كرسي قضائك البعيد وانت تستمد معرفتك جميعها مما يخبرك به الناس ؟»

« انكر ردك على اتهامهم حتى استطيع ان اميز الحق من كلامكما »

فرفع الاسير حاجبيه باحتقار :

« اني لن اجادلهم ، وكيف تستطيع ان تعرف ما صنعت وانا نفسي لا اعرف ما تصنعه يداي حينما يتملكني الغضب ؟ لقد انتصفت من الرجل الذي باع امراة بالمال ، وانتصفت من اولاده وخدمه ، فليوجه الي التهمة هولاء الرجال اذا شاؤوا ، فانا احتقرهم وازدرى حكمك ».

فاستشاط المتهمون غضبا حينما سمعوا الاسير يعبر عن احتقاره للقاضي العادل ، ورفع قواس المحكمة هراوته ليضربه بها ، فاشار اليهم فيراتا ليكبحوا غضبهم واستأنف اسئلته ، وكان القاضي يطلب من المتهم الجواب كلما وجه اليه المتهمون تهمة ، ولكن المتهم اطبق اسنانه بشدة في كلحة غاضبة ، وعاد الى الكلام غاضبا :

« كيف تعرف الحق من كلام الغير ؟»

ولما فرغ فيراتا من النظر في قضيته كان النهار قد انتصف ، فقام على قدميه وقال ــ جريا على عادته ــ انه عائد الى منزله وانه سينطق بالحكم في اليوم التالي ، فرفع المتهمون ايديهم معارضين . وقالوا :

« ايها السيد . لقد سرنا سبعة ايام لنرى ضوء محياك ، وتقتضينا العودة الى منازلنا مسير سبعة ايام اخرى ، فكيف ننتظر الى الغد ومواشينا عطشى وارضنا في حاجة الى المحراث ؟ ونحن نتوسل اليك بالحكم على الفور »

فجلس حينئذ فيراتا واستغرق برهة في التفكير العميق وتغضن جبينه كالذي يحمل على راسه عبئا ثقيلا ، لانه لم يسبق له ان اضطر الى اصدار حكم على انسان لم يلتمس العفو ، او على انسان ظل مصرا على التحدي ، وطال تفكيره ، وامتدت الظلال بمرور الساعات ، ثم ذهب الى النبع وغسل جبهته ويديه بالماء البارد لتكون كلماته بريئة من الهوى ، وعاد الى كرسي القضاء وقال :

« ارجو ان يكون الحكم الذي اصدره عادلا ، والجريمة الملقاة على عاتق هذا المعتدي جريمة

منكرة ، فقد ازهق احدى عشرة روحا حية من اجسامها الدافئة الى عالم تناسخ الارواح ، وحياة الانسان تستكمل نضجها في رحم امه غير منظورة في مدى عام ، ولهذا السبب سيقضي هذا المذنب عاما في غيابة السجن لاجل حياة كل فرد من هؤلاء الافراد الذين قتلهم ، ولما كان عمله قد اسال الدماء من احد عشر جسدا فانه سيجلد في كل سنة مائة جلدة مدة احد عشر عاما حسب عدد ضحاياه ، ولكن حياته لن تستلب ، لان الحياة هبة من الآلهة ، ويجب على الانسان الا يمس الاشياء المقدسة ، وعسى ان يكون هذا الحكم عادلا ، فقد اصدرته غير متاثر باغراء احد ولم اقصد به سوى القصاص العظيم »

ولما نطق بذلك الحكم قبل المدعون درج مقعده رمزا للاحترام ، ولكن الاسير قابل نظرته المستفسرة بصمت مكتئب ، وقال فيراتا :

« لقد حضضتك على الكلام حتى تستطيع ان تقدم الاسباب التي تحملني على ان احكم عليك حكما مخففا وحتى تعينني على ان ارد عنك عادية الاتهام ، ولكن شفتيك كانتا مزمومتين ، فلو كان في حكمي خطأ فلا يجب ان تأخذني به امام الحي القيوم ، وانما يجب ان تعزوه الى صمتك ، ولقد كنت راغبا في الترفق بك والعطف عليك »

فاجاب الاسير :

« انا لا أسألك الرحمة ، واي رحمة تجود علي بها يمكن ان تعادل الحياة التي تسلبني اياها في شهقة نفس ؟»

« اني لم اسلبك حياتك »

« كلا ، انك تسلبني حياتي وتسلبني اياها بطريقة اقسى مما يفعل رؤساء قبيلتي الذين يسميهم اهل الغور هؤلاء المستوحشين ، ولماذا لم تقتلني ؟ لقد قتلتهم علانية وجهرا ، ولكنك تقبرني كالجثة في ظلمة الارض ليدب في البلى على مر السنين ، وانت تفعل ذلك لان قلبك الخريع يخشى اراقة الدماء ، ولانك خوار منخوب الفؤاد ، وقانونك نزوة ، وحكمك تعذيب وشقاء ، اقتلني فقد قتلت »

« لقد عاقبتك عقوبة عادلة ...»

« عقوبة عادلة ؟ ولكن يا ايها القاضي ما هو القياس الذي تقيس به العدالة ؟ ومن الهبك بالسوط حتى تعرف ما هو الجلد ؟ وكيف تستطيع ان تحصى السنين على اصابعك كان السنة التي تمضيها في ضوء النهار مثل السنة التي تقضي غياهب الارض ؟ فهل أجنك السجن حتى تعرف كم ربيعا تنتقص من ايامي ؟ انت رجل جاهل ولست عادلا ، لانه لايعرف الضرب الا من كابده لا من نطق به ، ولا يستطيع ان يقيس الشقاء الا من عاناه ، وانت تسول لك كبرياؤك انك تعاقب المذنب في حين انك اشد اكبر المذنبين ذنبا ، وانا حينما استلبت الحياة كنت في قبضة الغضب وانت تنهب حياتي في هدوء وهون وتستعمل معي معيارا لم تزنه يدك ولم تجرب حمله ، فانزل من فوق مقعد العدالة قبل ان تسقط منه على ام راسك ! والويل لمن يقيس الامور جزافا ، والحرب للجاهل الذي يتوهم انه يدرى ما العدالة ؟ انزل من فوق مقعد العدالة ايها القاضي الجاهل ودع اصدار الاحكام على الاحياء بالموت من كلماتك !»

وكان وجه الاسير وهو يقذف بهذه المطاعن قد شحب من الغضب ، وحاول الحاضرون مرة اخرى وقد استولى عليهم الغضب ان ينقضوا عليه فمنعهم فيراتا مرة ثانية ، وحول وجهه على الاسير وقال في رفق :

« ليس في استطاعتي الغاء الحكم الذي نطقت به هنا ، وأملي ان يكون القضاء عادلا »

وهم فيراتا بمبارحة المكان ، وقبضوا على الاسير الذي اخذ يجاهد في الاغلال ، وبعد ان سار القاضي بضع خطوات توقف وعاد نحو الرجل المحكوم عليه فواجه عينيه الغاضبتين المصممتين ، واخذت فيراتا رجفة ، فقد راى ان هاتين العينين تشبهان كله عيني اخيه الميت ، ذلك الاخ الذي قتله بيده والذي وجده متوسد الارض فاقد الحياة في خيمة مغتصب العرش ...

وفي مساء ذلك اليوم لم يقل فيراتا لاحد كلمة واحدة ، فقد اخترقت نظرة الغريب شغاف نفسه كسهم من نار ، وسمعه اهل منزله وهو مسهد طوال الليل يذرع سقف المنزل جيئة وذهابا حتى طلع الفجر وردي اللون خلف اشجار النخيل .

ولما اشرقت الشمس توضأ فيراتا في بركة المعبد المقدسة واتجه الى المشرق وصلى ، ولما عاد الى منزله ارتدى حلة رسمية من الديباج الاصفر ، وحيا اهل بيته وقد دهشوا لارتدائه اللباس الرسمي ، ولكنهم لم يجترؤوا على سؤاله ، وذهب منفردا الى قصر الملك ، وكان مرخصا له بالدخول في اي وقت ليلا ونهارا ، وركع امام الملك ولمس حاشية ردائه ليدل على انه جاء ليقدم التماسا .

فنظر اليه الملك نظرة ود وترحيب قائلا :

« لقد لمست رغبتك ثوبي ، وهي مجابة قبل ان تعبر عنها »

فظل فيراتا واقفا حاني الراس

« لقد جعلتني رئيسا بين قضاتك ، فظللت ست سنوات اصدر الاحكام باسمك ، ولست ادري هل قضيت بالعدل ، فامنحني اجازة لاستجم فيها مدة شهر عسى ان اجد طريق الحق ، واسمح لي ان اطوي عنك وعن غيرك ما ارمي اليه من وراء ذلك ، فاني اريد ان اقوم بعمل خال من الظلم وان اعيش بغير خطيئة »

فدهش الملك :

« ستفتقد مملكتي العدالة اثناء هذا الشهر ، ومع ذلك فاني لست سائلك عن الطريق الذي تريد سلوكه عسى ان يهديك الى الحق ».

فقبل فيراتا قوائم العرش رمزا لتقدير الجميل ، وانحنى احتراما ، وانصرف من حضرة الملك .

ودخل منزله واستدعى زوجته واولاده :

« لن تروني مدة شهر ، فودعوني ولا توجهوا الي اسئلة ، واذهبوا الى حجراتكم واوصدوا عليكم الابواب حتى لايراقبني احد منكم ليعرف اين اذهب ومتى اغادر المنزل ، ولا تسألوا عني حتى ينقضي الشهر »

وعملوا صامتين بما امر به .

ولبس فيراتا ثوبا اسود ، وصلى امام صورة الله ، وكتب كتابا مطولا على سعف النخل ، ولفه في غلاف ، وفي منتصف الليل ترك منزله الصامت وذهب الى الصخرة العظيمة حيث كانت المناجم والسجون ، ودق الباب حتى استيقظ السجان النائم على الحصيرة واقبل ليسأل من بالباب ؟

« انا فيراتا قاضي القضاة جئت لارى السجين الذي احضر الى هنا بالامس »

« ان غرفته في الاعماق ايها السيد ، وفي اقصى غيابات السجن ، فهل اقودك الى هناك ؟»

« اني اعرف المكان ، اعطني المفتاح وعد الى نومك ، وفي الغد ستجد المفتاح في خارج حجرتك ، ولا تقل لاحد انك رايتني هذه الليلة ».

فأحضر السجان المفتاح وحمل معه شعلته ، وانسحب باشارة من فيراتا واستلقى فوق حصيرته ، ففتح فيراتا الباب البرونزي الذي يقفل الطريق تحت القبة الصخرية ونزل الى اعماق السجن ، وقبل

نلك العهد بمائة سنة بدأ ملوك راجبوتانا يحبسون الاسرى في داخل هذه الصخرة ، وكان الاسرى في كل يوم يعملون على تعميق الحفر في الارض لاعداد حجرات جديدة لنزلاء الغد .

والقى فيراتا نظرة اخيرة على الجزء البادي من السماء بنجومها المتلألئة خلال القبة الصخرية ، واقفل الباب وتصاعد الظلام الرطيب ولفته حنادسه ، وكان ضوء شعلته غير المستقر يثب في احشاء هذا الظلام كانه وحش مفترس ، وكان لايزال في استطاعته ان يسمع حفيف الاشجار ، وبدبة القردة المجلجلة ، وفي قرار اول مجموعة من درجات السلم كان الحفيف ياتي من مسافة بعيدة ، واعمق من نلك كان الصمت سائدا ، وكانه كان في اعماق البحر حيث البرودة وجمود الحركة ، وكانت الاحجار لا ترسل نسمات سوى الرطوبة الخالية من عبير الثري النضير ، وكلما امعن في النزول كان لوقع اقدامه صدى اخشن واكثر ايجاشا في الصمت السائد .

وكانت حجرة رجل التلال السجين على بعد خمس طبقات من الدرجات عن سطح الارض ، وكان عمقها تحت الارض ابعد مدى من ارتفاع اطول شجرة من شجرات النخيل ، ودخل فيراتا وامسك بالشعلة فوق كتلة مظلمة لم تكد تتحرك برهة من الزمن ، ثم صل القيد .

وانحنى فيراتا فوق الشخص المنطرح على الارض وقال :

« اتعرفني ؟»

« اعرفك ، فانت من جعلوا في يده مصيري وقد دسته بقدميك »

« ليس في يدي مصير احد ، وانا خادم الملك والعدالة ، وقد جئت لاخدم العدالة »

فنظر السجين الى القاضي نظرة ثابتة حزينة :

« ماذا تريد مني ؟»

وبعد صمت طويل اجاب فيراتا :

« لقد نلت منك بالكلمات التي وردت في حكمي ، وانت كذلك نلت مني بالفاظك ، ولست ادري هل كان حكمي عادلا ، ولكن ما قلته كان ينطوي على حق لانه يجب على الانسان الا يقيس بمقياس لا يعرفه ، ولقد كنت جاهلا ، ويسرني ان اتعلم ، ولقد ارسلت بالمئات الى مأوى الظلام هذا ، ولقد قضيت على اشخاص كثيرين دون ان اعرف ما انا صانع ، والان اريد ان ابحث واريد ان اعرف لكي اصير عادلا والقى يوم انتقال الروح بريئا من شوائب الخطيئة »

فظل الاسير جامدا لا يتحرك ولم يسمع شيء سوى صلصلة القيد ، واسترسل فيراتا قائلا :

« اريد ان اعرف ما حكمت عليك بمعاناته ، واريد ان اشعر بوقع السياط على جسدي وان اجرب بنفسي حياة السجن ، وسأقيم في مكانك مدة شهر لكي اتعلم ما كنت اقتضيه الناس تكفيرا عن ذنوبهم ، وسانطق بعد نلك بالعقوبة في مكان الحكم وانا عالم بما اقضي به ، وستكون حرا في اثناء نلك ، وسأعطيك المفتاح الذي تستطيع ان تفتح به الباب المؤدي الى عالم النور ، وسأمنحك الحرية مدة شهر على شريطة ان تعدني بالعودة ، وسينفذ الضوء الى عقلي من ظلمات هذه الاعماق »

فوقف الاسير كانه قد من الصخر ، ولم تسمع صلصلة قيده « اقسم لي بألهة الانتقام التي لا ترحم والتي لاتصفح عن احد بانك ستلتزم الصمت خلال هذا الشهر وانا اعطيك المفتاح وملابسي ، وعليك ان تترك المفتاح خارج حجرة البواب وتنطلق بعد نلك حرا ، ولكنك ستظل مقيدا بقسمك بان تحمل هذه الرسالة الى الملك ليطلق سراحي من السجن حتى احكم بعد نلك بالعدل ، فهل تقسم باسمى الالهة بان تنفذ هذه الوصية ؟»

فانبعث صوت متهدج كانه مقبل من اعماق الارض يقول :

« اقسم على نلك »

ففك فيراتا قيود السجين وتجرد من ملابسه .

وقال : « البس هذه الثياب واعطني ثيابك واخف وجهك حتى يخالك السجان اياي ، والان قص شعري ولحيتي حتى اظل انا كنلك مجولا »

وتحت تأثير نظرات فيراتا الآمرة فعل السجين ما امره به مرتجفا مترددا ولاذ بالصمت مليا ، واخيرا ارتمى على الارض ونشج باكيا في تأثر بالغ :

« لا استطيع احتمال مكابدتك الشقاء بدلا عني ، لقد قتلت ويدي مضرجة بالدماء ، والقضاء كان عادلا »

« لا انت ولاانا نستطيع ان نقدر عدالة هذا القضاء ، ولكن سرعان ما يشرق الضوء على عقلي ، فاذهب كما اقسمت ، وحينما يعاود القمر اكتماله احمل كتابي الى الملك ليطلق سراحي ، وحينما يجيء الوقت المناسب سأعرف ما انا قائم به من الاعمال وستكون احكامي بريئة من مجافاة العدالة ، فانصرف ».

فركع الاسير وقبل الارض ، ودوى صرير الباب المغلق في الظلام ، ونفذت مرة اخرى من خلال كوة اشعة من الشعلة وخفقت على الحيطان ، ثم اكتنف ظلام الليل الساعات .

وفي صباح اليوم التالي ، جلد علانية فيراتا الذي لم يعرفه احد ، وحينما صب على ظهره العاري اول سوط اطلق صرخة ، ولكنه لم يلبث ان اطبق على شفتيه وضغط على اسنانه ، وفي الضربة السبعين غشي عليه وحمل بعيدا كالوحش الميت

ولما ثاب اليه وعيه كان مستلقيا في الحجرة ، وخيل اليه انه قد انطرح على فراش من الفحم المشتعل ، ولكن جبينه كان باردا واستنشق رائحة الاعشاب المتأبدة ، ولما فتح عينيه قليلا ابصر زوجة السجان الى جانبه تبلل جبينه في رفق ، ولما نظر اليها بانتباه اكثر ادرك ان نجمة العطف كانت تشرق عليه من نظرتها ، وتحقق وهو يعاني الالام الجسدية ان معنى الحزن يكمن في سماحة العطف ، فابتسم لها ونسي المه .

وفي اليوم التالي استطاع ان يقف على قدميه وان يتحسس طريقه حول حجرته ، وفي كل خطوة كان يتكشف له عالم جديد تحت قدميه ، وفي اليوم الثالث التأمت جروحه واستعاد العافية جسمه وعقله ، ومن نلك الحين كان يجلس لا يتحرك ولا يعرف مرور الزمن الا بسقوط قطرات الماء من سقف الصخرة ، كان الصمت العظيم يقسم الى فترات صغيرة كثيرة ، وكان يضم بعضها الى بعض ليتكون منها الليل والنهار كما تنمو حياتنا من الاف الايام وتبلغ الرجولة ثم الشيخوخة ، ولم يجيء اليه احد ليتحدث معه ونفذ الظلام الى صميم نفسه ، ومع نلك فقد تفجرت فيها ينابيع الذكريات الكثيرة ، وفاضت في رفق وهينة حتى ملأت غديرا هادئا من التامل كانت تنعكس في صقالة حياته كلها ، واخذت اشتات تجاربه تتجمع وتتضام حتى تكونت منها وحدة ولم يصل عقله من قبل الى مثل هذا الصفاء الشفاف الذي وصل اليه اثناء هذا النفاذ الصامت الى نلك العالم المنعكس خياله .

ومن يوم ليوم ازدادت بصيرته وضوحا ، واخذت الاشياء تتشكل له في الظلام وتجلو صورتها لنظرته ، وعلى هذا النمط اصبح كل شيء يبدو اجلى واوضح لعين بصيرته الداخلية ، وكانت متعة التامل المستعذب الرقيق تنبسط بغير محاولة منه ولا توسل ، وتتجاوز المظاهر التي تلفقها الذاكرة وتعمل عملها وتؤثر تأثيرها بين الصور الفكرية المتغيرة ويد السجين تعبث بمتعرجات حيطان الحجرة الصخرية ، وفي هذا الظلام وهذه العزلة ذهل عن اوطاره ولباناته وتجرد من نفسه ، واشتد شعوره بقوة الالوهية المتعددة الصور ، واستطاع ان يتنقل في حرية وطلاقة بين تلك المنشآت الخيالية ،

محتفظا باستقلاله التام ، منسرحا من عبودية الارادة ، ميتا في الحياة وحيا في الموت ، وذابت هموم الساعة العابرة في فرحة الخلاص من ربقة الجسد الهادئة الناعمة ، وبدا له انه يهوي في اعماق الظلام شيئا فشيئا من ساعة لاخرى متجها نحو جذور الارض السوداء الحجرية ، ولكنه كان يشعر مع ذلك بدبيب حياة جديدة في نفسه ، ربما كانت حياة دودة تحفر على غير هدى في المدر ، او ربما كانت حياة النبات في محاولة الارتفاع بجذعه ، او ربما حياة الصخرة في هدوئها وابترادها وهي لاتعي وجودها .

واستمتع فيراتا بتأمله الخالص للسر الالهي مدة ثماني عشرة ليلة تحرر فيها من ارادته الفردية وشهوات الحياة الارضية ، فما اخذ نفسه بمعاناته تكفيرا عن خطاياه بدا له بركة ونعمة ، وبدأ يشعر بان الجريمة والعقوبة ليستا اكثر من صور الاحلام اذا ما قيست بيقظة المعرفة الابدية ، ولكن في اثناء الليلة التاسعة عشرة ازعجه من نومه وخز فكرة ارضية اخترقت ذهنه مثل الابرة المحمية ، وارتجف جسمه من الفزع ، وارتعشت اصابعه كما تهتز اوراق الشجر في البراح ، وكانت هذه الفكرة المخيفة هي ان السجين قد يخيس بوعده ، ويحنث في يمينه ، او قد ينساه ويغفل عنه ، او يتركه ليقضي في السجن الف يوم والف يوم اخرى ثم الف يوم ثالثة حتى يتعرق عظمه ، ويجف لسانه من الصمت الدائم ، ووثبت ارادة الحياة في جسمه كالنمر ، ومزقت اللفائف التي كانت تحيط بها ، وعاود تيار الزمن تدفقه في نفسه ، وصحبته المخاوف والامال وضجيج الوجود الارضي وعجيجه ، ولم يعد في استطاعته ان يتوفر على التفكير في الاله الخالد المتعدد الصور ، فهو لايفكر الا في نفسه ، وطمح بصره الى ضوء النهار ، ونفرت رجلاه من الحجر الصلد واشتقتا البسطة والبراح والقدرة على الوثوب والعدو ، وامتلأت عقله بالتفكير في زوجته واولاده ومنزله وممتلكاته ، ومتع الحياة المغرية الخلابة التي يلزم ان نتذوق لذتها ، ونتملى من مباهجها .

ومن تلك الاونة اخذ الزمن الذي كان حتى تلك اللحظة مثل مياه الغدير الهادىء السوداء تنعكس فيها الحوادث ، اخذ الزمن يتضخم في افكاره ، واصبحت حركته مثل حركة التيار ، وصار يجاهده جهادا متصلا ، وكان يود ان يغلبه التيار على امره ، وان يحمله بعيدا مثل الشجرة الطافية الى ساحة التحرير المقدورة ،ولكن التيار كان متجها ضده ، وكان يسبح ساعة بعد ساعة ضد التيار مستيئسا ، وقد انبهرت انفاسه ، وشعر كان الفترة بين سقوط قطرات الماء قد طالت طولا غير محدد ، ولم يستطع ان يستلقي صابرا في مرقده ، وفكرة ان الرجل القادم من التلال قد ينساه وانه قد قضى عليه بان يتهدم ويبلى في هذا السرداب الصامت جعلته كالوحش في القفص لا يستقر له قرار في حجيرته ، وكاد يختنق من السكون السائد ، واطلق على الحيطان من الفاظ السباب والشكوى ، ولعن نفسه والآلهة والملك ، وحاول ان يمزق الصخرة والصيخود بأنامله الدامية ، وصدم الباب براسه المنحني حتى سقط مغشيا عليه ، وكان كلما استرد وعيه يثب على قدميه مرة اخرى ليكرر المحاولة التي لاتنقطع .

وفي اثناء تلك الايام منذ اليوم الثامن عشر لحبسه حتى اكتمال القمر عاش خلال ملايين السنين من الرعب والهول ، وعاف الطعام والشراب لان جسمه اضناه الهم ، واستعصى عليه التفكير ، ولو انه ظل يحصى لشفتيه قطرات الماء وهي تتساقط لكي يستطيع ان يحدد الزمن غير المنتهي من يوم لاخر ، واصبح لون شعر صدغية النابضين رماديا دون ان يعرف ذلك .

ولكن في اليوم الثلاثين سمعت جلبة في الخارج تلاها صمت ، ثم سمع صوت وقع اقدام على السلم . وفتح الباب على مصراعيه ونفذ الضوء ووقف الملك امام الرجل الدفين في الظلام ، وعانقه الملك عناقا وديا وقال :

« لقد علمت بصنيعك وهو اعظم من اي عمل اخر سجلته اثار ابائنا ، وسيضيء كالنجم فوق مستويات حياتنا الراكدة ، فانهض معي فعسى ان تنير لك السبل نار الله بوهجها ويرى الشعب السعيد رجلا صالحا ».

فظلل فيراتا عينيه بيده ، لان الضوء الذي لم يألفه كان يؤلم عينيه ، ووقف على قدميه وقفة غير مستقيمة مثل الشارب الثمل ، وسنده الخدم ، وقبل ان يذهب الى الباب قال :

« ايها الملك ، لقد دعوتني بالرجل الصالح ، ولكني الان اعلم العلم كله ان الذي يصدر حكما على الغير يظلم ويخطىء خطأ خطيرا ، ولا يزال في هذه الاعماق كائنات انسانية تذبل زهرتهم ، وقد جاءت بهم الى هنا احكام اصدرتها ، والان للمرة الاولى اعرف ما يعانون ، والان قد عرفت ان قانون مقابلة الشر بالشر هو نفسه قانون ظالم ، فأطلق سراح المساجين وأمر الناس بالانصراف لأن هتافهم يملأ نفسي خجلا »

فأشار الملك اشارة ، وفرق الجمع الحاشد ، وساد الصمت مرة اخرى . وقال الملك :

« حتى هذه الآونة كنت تجلس للعدالة في اعلى السلالم المفضية الى قصري ، ولكن معرفتك للشقاء جعلتك أرجح عقلا من جميع القضاة الذين سبقوك ، ومن ثم من الآن فصاعدا ستجلس الى جانبي حتى استطيع الاصغاء الى كلماتك ، وأتروى الحكمة من عدالتك » .

فقبل فيراتا ركبة الملك رمزا للالتماس :

« أقلني من عملي فقد اصبحت لا اصلح للقضاء بعد ان تحققت انه ليس في استطاعة انسان ان يحكم على غيره ، والعقوبة في يد الله وليست في يد الانسان ، لأن من يتدخل في عمل القضاء يرتكب جريمة ، واريد ان احيا حياتي بريئا من الخطيئة »

فاجابه الملك : « ليكن ما أردت ، وبدلا من ان تكون قاضي قضاتي ستكون مستشاري الاكبر الذي يفصل لي في شؤون السلام والحرب ، وينصحني في امور فرض الضرائب حتى تكون اعمالي جميعها مسترشدة بحكمتك »

وعاد فيراتا الى استلام ركبة الملك .

« لا تمنحني سلطة أيها الملك ، لأن السلطة تغري بالعمل ، واي عمل يمكن ان يكون عادلا ، او اي عمل يمكن ان يقصر في مقاومة ما قضي به القدر ؟ فاذا كنت اشير بالحرب فاني ابذر بذور الموت وما اقوله ينمو ويصبح اعمالا ، وكل عمل من اعمالي له مغزى لا استطيع ان اتكهن به ، ولا يستطيع ان يكون عادلا وصالحا الا من تجنب الاعمال ، ومن عاش وحيدا ، ولم اكن قط اقرب الى الحكمة وأنأى عن الخطيئة كما كنت في عزلتي هنا لا ابادل احدا الحديث ، فدعني اعيش في داري هادئا ساكنا لا اقوم بعمل سوى تقديم القربان للآلهة حتى اظل بريئا من الخطيئة »

فأجاب الملك : « لا تطاوعني نفسي على التنازل عن خدماتك ، ولكن من الذي يستطيع ان يجادل حكيما ، او يعترض ارادة رجل صالح ؟ فعش على الطريقة التي تؤثرها وسيكون فخرا لمملكتي ان يعيش في داخل حدودها رجل بريء من الخطيئة »

وافترقا عند باب السجن ، ومشى فيراتا الى منزله وحيدا ، وهو يعل وينهل من عبير الهواء الذي اضاءته اشعة الشمس ، ولم يشعر من قبل بارتياح كالذي شعر به الآن ، وقد تحرر من جميع الاعمال ، وسمع خلفه وقع اقدام عارية ، ولما استدار رأى الرجل المحكوم عليه ، الذي اخذ نفسه باحتمال عقوبته ، وقبل الرجل تلال الارض التي وطئها القاضي السابق وانحنى في خشوع واستحياء ، وابتسم فيراتا لاول مرة منذ راى عيني اخيه الميت الشاخصتين ودخل داره ناعم البال .

وبعد ان عاد فيراتا الى منزله قضى حقبة من الزمن مليئة بالسعادة ، فكان استيقاظه صلاة شكر لله لاستطاعته ان يبصر نور السماء بدلا من الظلام ، ولتمكنه من النظر الى الالوان وتنسم عبير الثرى الحبيب ، ولان في مكنته ان يستمع الى الموسيقى العذبة التي تملأ الصباح حياة وفي كل يوم كان يتلقى القدرة العجيبة على التنفس ومتعة الحركة الحرة باعتبارهما من الهبات الطريفة الفاخرة ، وفي عطف تشوبه التقوى كان يمر بيديه على جسمه وعلى جسد زوجته الناعم وعلى اعضاء اولاده القوية ، وكان يشعر وهو محبور مأخوذ بقرب الاله المتعدد المظاهر في كل واحد منهم ، وهفت بروحه الكبرياء الرقيقة فلم يجد فرصة للخروج من حدود حياته والتدخل في مصائر الغرباء ولم يعتد على اي مظهر من تلك المظاهر الكثيرة التي يتجسم فيها الله ، وكان يعكف على قراءة كتب الحكمة من الصباح الى المساء ، ويمارس ضروب العبادات المتنوعة فيستغرق في التأمل الصامت ، وينغمس في مناجاة الروح ، ويبر الفقراء ، ويقدم القرابين في الصلاة ، وتطلق وجهة ، وزادت بشاشته ، وكان يترفق في الحديث ويتلطف حتى مع ادنى خدمه ، واصبح اهل بيته يخلصون في خدمته اخلاصا يفوق اخلاصهم السابق وولاءهم القديم ، وكان يسد خلة المحتاج ويواسى المنكوب ، وكان دعاء الناس له يرفرف حوله في نومه ، واصبح الناس لا يلقبونه بلمعان السيف او ينبوع العدالة كما كانوا يفعلون قديما فقد صار الآن يلقب « بساحة المشورة الصالحة » ، ولم يلتمس نصيحته جيرانه فحسب ، فانه بالرغم من تخليه عن القضاء في البلاد كان يأتيه الغرباء من بعيد ليفصل في خلافاتهم ويستجيبون لكلماته في غير تردد ، وان الشفاعة خير من الحكم وبدا له ان حياته بريئة نقية فليس له سيطرة على مصير احد ولم يعد في استطاعته تسوية اقدار الكثيرين ، وهكذا ابتهج واغتبط وقد بلغ منتصف طريق حياته .

ومرت ثلاث سنوات وتلتها ثلاث سنوات اخرى ، وكانت في مرورها جميعا تشبه يوما واحدا مشرقا ، وازدادت اخلاق فيراتا رقة وعذوبة ولينا وسلاسة ، وحينما كان يعرض عليه نزاع لتسويته كان يجد صعوبة في فهم اسباب كثبة المنازعات على وجه الارض ويعجب لماذا يتدافع الناس ويتنافسون على الامتلاك وفي الحياة براح للجميع وعبير الوجود مشاع لهم ، وكان لا يحسد احدا ولا يحسده احد ، وكان بيته كجزيرة سلام في بحر الحياة المنبسط لا تمسها شآبيب الاهواء ولا تيارات الشهوات الحسية .

وفي ذات مساء من السنة السادسة لهذا العهد الهادىء وقد آوى الى فراشه واذا به يسمع صيحات عنيفة ودوي ضربات فقفز من مضجعه ورأى بنيه يعاقبون احد الخدم ، وقد ارغموا الرجل على ان يركع وهم يجلدونه بالسوط حتى تدفق منه الدم وشخصت عينا الفريسة الى وجه فيراتا وبدا له مرة اخرى انه يرى عيني الاخ الذي قتله ، فأسرع وأمسك بذراع نجله واستولى على السوط وسأل عما حدث .

واستخلص من خليط الاجوبة التي سمعها ان هذا العبد الذي كان عليه احضار الماء من الينبوع الصحري الى المنزل في دلاء خشبية كان في مناسبات شتى اثناء وقدة الظهيرة يدعي التعب ويصل بحملة جد متأخر وكان في كل مرة يعاقب ، وبالامس ولى هاربا بعد ان عوقب عقوبة اشد من العقوبات السابقة ، فتبعه اولاد فيراتا على متون الخيل ولم يدركوه الا بعد ان عبر النهر ، وقد ربطوه بحبل في سرج احد الخيول فعاد الى المنزل دامي القدمين لما عاناه من الجري وجذب الحصان له ، وكانوا في تلك الاونة يعاقبونه ويمثلون به ليصلحوا من شأنه وشأن سائر الخدم الذين كانوا ينظرون مرتعدي الفرائص ، وكان هذا هو تفسيرهم للمنظر الذي اعترضه ابوهم ، وألقى فيراتا نظرة على الرجل وكانت عيناه قد جحظتا كعيني حيوان ينتظر الضربة القاضية من جلاده ، ولمح فيراتا وراء نظرتهما المظلمة الفزع الذي سبق له مقاساته .

فقال لاولاده : « اطلقوا الرجل ، لقد كفر عن خطيئته » .

فقبل الرجل التراب امام قدمي سيده ، وللمرة الاولى افترق الاولاد عن ابيهم مضطغنين حاقدين وعاد فيراتا ادراجه الى حجرته واخذ يغسل جبينه ويديه على غير قصد منه ولما لمس الماء البارد شعر بما يصنع وعرف انه قد اصبح قاضيا لاول مرة منذ ترك سجن الصخرة وتدخل في مصير غيره وكذلك لاول مرة خلال تلك السنوات نبا به وساده وجفاه النوم ، وأراه الوهم وهو مستلق في الظلام عيني العبد المتفزعتين « او هل كانتا عيني اخيه القتيل » ، ورأى عيون اولاده يتطاير منها الغضب ، واخذ يسائل نفسه : الم يوقع اولاده ظلما بالخادم ؟ ولقد بلل الدم ساحة المنزل الرملية من اجل اهمال للواجب هين الشأن وبسبب اغفال عمل يسير قد وضع السوط على جسم حي ، وهذا العمل الخاطيء آلم نفسه وبلغ منها ما لم يبلغ منها وقع السياط على ظهره كلدغ العقرب فيما مضى ، وحقيقة ان العقوبة التي شاهدها في تلك المساء لم تحل برجل نبيل ، وانما حلت بعبد جسمه بموجب شريعة الملك ملك لسيده من يوم ميلاده ، ولكن هل شريعة الملك هي الحق في عيني الاله المتعدد المظاهر ؟ وهل في شرعة الانصاف عند الله ان يصبح جسم انسان حي تحت التصرف المطلق لانسان اخر ؟ وهل يكون هذا الانسان الاخر بريئا امام الله اذا اضر بحياة العبد او قضى عليها ؟

ونهض فيراتا من فراشه واشعل الضوء ليستطيع البحث في كتب الحكماء ، ووجد حقيقة ان هناك فروقا بين الرجل والرجل موجودة في نظام الطبقات والاملاك ، ولكنه لم يجد بين مظاهر الكائن المتعدد الصور ما يؤيد اي تفريق في اداء واجبات الحب واشتد اقباله على التروي من الحكمة لانه لم يشعر من قبل شعورا قويا بأهمية تلك المسألة كما شعر به الان ولكن اللهب وثب لحظة الى شمعدان الشعلة ، وخبا بعد تلك الضوء .

ولما خيم الظلام بينه وبين الحيطان شعر فيراتا شعورا غريبا بأن الفراغ الضارب حوله الذي كانت عيناه تجولان فيه على غير هدى لم يكن فراغ حجرته المألوفة وانما فراغ سجنه السابق حيث استيقن — بعد ان برح به الفزع — من ان الحرية هي احب حقوق الانسان اليه واعزها عليه ، وانه ليس من حق اي انسان ان يسجن انسانا آخر طوال حياته او مدة عام واحد ، ومع ذلك فانه هو نفسه قد سجن عبده في حدود ارادته الخاصة غير المنظورة ، وقد قيد عبده بقيود المصادفات الخاضعة لاحكامه فلا يستطيع الخادم ان يخطو خطوة واحدة حرا طليقا ، واستنارت بصيرته وهو جالس يجيل الفكر ويعمل الروية ، وشعر بأن التفكير قد مد آفاق فهمه حتى ترامى اليه الضوء من سماوة غير منظورة ، وادرك في تلك اللحظة انه كان لا يزال مستحقا للوم لانه ارتضى ان يكون زملاؤه خاضعين لارادته وان يسموا عبيده اتباعا لقانون لم يكن سوى عمل بشري مستضعف واهن ، وليس من قوانين الاله المتعدد الصور الخالدة ، وسجد شكرا لله :

« الحمد لله ايها الاله المتعدد الصور لانك ترسل الى رسلا من جميع صورك لتستنقذني من ذنوبي وتجتنبني لاكون اقرب اليك في سبيل ارادتك الخفية فامنحني القدرة على معرفتها في عيني اخي الميت المتهمتين على الدوام ، تلك الاخ الذي القاه في كل مكان والذي نظر ببصيرتي والامه الامي حتى استطيع ان اطهر حياتي من الرجس واتنسم الانفاس بغير خطيئة »

وعاد البشر والصفاء الى وجهه ، وخرج في دجى الليل مجلو البصر ليستمتع بتحية زهر النجوم ، وليستنشق انفاس النسيم المنعش قبيل الفجر ، واجتاز الحديقة وسار الى النهر ولما ظهرت الشمس في المشرق انغمس في الماء المقدس ، ثم عاد الى منزله لينضم الى اهل بيته الذين تجمعوا لصلاة الصبح .

وحياهم بابتسامة رقيقة ، واشار الى النساء بالابتعاد وقال لاولاده :

« انكم تعلمون انني منذ سنين ليس لي سوى هم واحد ، وهو ان اكون عادلا وصالحا وان اقضي حياتي على الارض بلا خطيئة وبالامس سال الدم على الارض في داخل حدود داري ، وهو دم رجل حي وانا اريد ان اكون بريئا من هذا الدم وان اكفر عن الخطأ الذي ارتكب تحت سقف بيتي فالعبد الذي عوقب عقوبة صارمة لخطأ تافه سيكون حرا منذ هذه اللحظة ، فليذهب حيث شاء حتى لا يجيء ببينة تدينني وتدينكم يوم الحساب » .

فظل اولاده صامتين ، وشعر فيراتا بأن صمتهم صمت المخالفة والانكار .

« أراكم لا تجيبون ، واني لا اريد ان اخالف ارادتكم قبل ان اسمع ما عندكم » .

فقال اكبرهم سنا :« انك ترى ان تمنح المسيء الحرية ، وان تثيبه بدلا من ان تعاقبه وفي منزلنا خدم كثيرون ، ولا يضيرنا ان ينقصوا واحد ولكن هذا العمل يتجاوز حدوده ولا يكون اكثر من حلقة في سلسلة ، فاذا اطلقت سراح هذا الرجل كيف تستطيع ان تستبقي الاخرين في قيد العبودية اذا ارادوا هم كذلك ان يذهبوا لسبيلهم ؟ .. »

« اذا أرادوا ان يقطعوا ما بيني وبينهم من الاسباب فعلي الا اقف في سبيلهم ، ولن اصوغ مصير اي انسان لان الذي يصوغ مصير غيره يأثم ويحمل وزرا » .

فانطلق الابن الثاني قائلا : « انك توهن بذلك سلطة القانون ، فهؤلاء عبيدنا ، وكذلك ارضنا ملك يميننا وما ينمو فوقها من الاشجار وفاكهة تلك الاشجار ، وما داموا يخدمونك فأسبابهم موصولة بأسبابك ، وسببك كذلك مرتبط بأسبابهم وما قد تناولته وعرضت له انما هو جزء من القوانين التقليدية التي ترجع الى الاف السنين وليس العبد هو المتصرف في شؤون حياته ، وانما هو خادم سيده » .

« ليس لنا من الله سوى حق واحد وهو حق الحياة وقد نفخه الله فينا جميعا من روحه المقدسة وقد احسنتم صنعا بتحذيري فقد كنت لا ازال في عمياء من امري حينما خلت نفسي متطهرا من الخطيئة وقد كنت أسلب حياة الاخرين اثناء تلك الاعوام والان قد كشف لي الغطاء وأصبحت أعلم ان الرجل الصالح لا يحيل الناس بهائم ، وسأعتقهم جميعا حتى انقذ نفسي من خطيئة الاساءة اليهم » .

فتربد جبين اولاده غضبا وتحديا ، ورد اكبرهم سنا ردا عنيفا قائلا :

« من يسقي حقولنا حتى لا يتلف الارز ؟ .. ومن يسوق الماشية ؟ .. وهل نصبح خدما من أجل نزواتك ؟ .. وانت نفسك لم تعمل عملا بيديك طوال حياتك ولم يزعجك قط ان تلك الحياة كانت تقوم على جهود الاخرين وبرغم ذلك قد تصبب عرق الاخرين وهم يعدون لك جدائل القش الذي تستلقي عليه وكان احد العبيد يتروح لك بالمروحة اثناء نومك والان تريد ان تباغتنا بطردهم جميعهم حتى لا يتولى الاعمال غير ابنائك الذين هم من دمك فهل تريدنا ان نرفع النير عن الثور وان نجر المحاريث بانفسنا حتى لا نستحث الماشية ؟ .. لقد نفخ الاله المتعدد الاشكال من انفاس حياته في هذه العجماوات كذلك ، فلا تغير من شأن كل ما هو قائم لانه كذلك آت من عند الله ، والارض لا تخرج ثمراتها راضية وانما تخرجها بسحر القوة فقانون الدنيا هو القوة ، ولا تستطيع الافلات من هذا القانون » .

« ولكني سأتحاشى هذا القانون ، فانه يندر ان يكون الحق في جانب القوة ، وانا اريد ان احيا حياة عادلة صالحة » .

« كل امتلاك وراءه القوة ، سواء كان امتلاك الرجال او الحيوانات او الارض الصبور ، وحيثما تبسط سلطانك لا بد ان تكون غازيا فاتحا ، والذي يملك قد ارتبط بمصير الناس » .

« ولكني سأطلق نفسي من كل قيد يربطني بالخطيئة ، ولذا أمركم بأن تطلقوا سراح العبيد ، وأن

تقوموا انتم انفسكم بالاعمال التي تحتاجون اليها » .

فتطاير الشرر من عيون ابنائه ولم يكادوا يكبحون غضبهم ، واجاب اكبرهم سنا :

« لقد أخبرتنا انك لا تريد ان تضغط على ارادة احد ، وانت لا تريد ان تصدر الاوامر الى خدمك خشية ان تقع في الخطيئة ، ولكنك تأمرنا بأن نفعل هذا وذاك وتتدخل في حياتنا ، فبأي اعتبار تعمل الحق امام الله والناس ؟ »

فطال صمت فيراتا ، ولما رفع عينيه شاهد استعار الجشع في عيونهم ، وثقل ذلك على نفسه وامضها فقال لهم في رفق :

« لقد علمتموني درسا ، فليس لي ان اضغط عليكم بحال من الاحوال ، فخذوا الدار وغيرها من الممتلكات ، وقسموها بينكم القسمة التي ترونها مناسبة ، ولن يكون لي نصيب ولا حظ في هذه الاشياء او في الخطيئة التي تلازمها ، ولقد قلتم بحق : « ان الذي يحكم يسلب الاخرين حريتهم ، ولكن الاسوأ من ذلك كله هو انه يستعبد روحه نفسها ، والذي يريد ان يعيش بلا خطيئة عليه الا يملك بيتا ولا يتصرف في مصير انسان وعليه الا يتناول قوته من كد اخرين ، ولا تتيسر له وسائل الشرب لان الغير قد تفصدوا عرقا ليلبوا حاجته ، وعليه ان يتجنب متعة مقاربة النساء وجمود الاكتظاظ والشبع ، ولا يعيش مع الله الا الذي يعيش وحده ولا يشعر بالله الا العامل المكب على عمله ولا يعرف الله معرفة تامة سوى الفقراء ، واحب الي ان اكون قريبا من الذي لا تدركه الابصار من ان اكون قريبا من الارض التي املكها لاني اريد ان اعيش بغير خطيئة فخذوا الدار وقسموها بينكم في هدوء وسلام » .

وانصرف معرضا عنهم ، فوقف اولاده ذاهلين مدهوشين ، وقد لذ لاجسامهم اشباع الطمع ، ولكن روحهم كانت تستشعر الخجل .

ولما ارخى الليل سدوله تأهب فيراتا للارتحال حاملا معه عكازا وجفنة تسول وفأسا ليعمل بها وقليلا من الفاكهة لتكون زادا له وكتب الحكماء مكتوبة على سعف النخل ، وجز ثوبه الى ما فوق الركبة وترك بيته في صمت دون ان يودع زوجته واولاده او سائر اهل بيته وسار على قدميه طوال الليل حتى اتى النهر الذي قذف فيه مرة سيفه في ساعة يقظته الرهيبة ، وسلك طريقه مجتازا المخاضة وسار الى اعلى النهر على الضفة الاخرى حيث كان لا يوجد مساكن وحيث الارض لم يسبق ان شقها محراث .

وعند الفجر وصل الى مكان كان البرق قد احرق به شجرة مانجو قديمة وكانت النار التي اضطرمت من جراء ذلك قد اوجدت منفذا في الغابة المتشانجة ، وكان النهر يتدفق مترفقا متئدا في انحناء مديد حول تلك البقعة ، وكانت اسراب من الطيور تشرب من مياهه غير خائفة وكان منظر النهر جليا واضحا من الامام وكانت الاشجار تظلل الناحية الخلفية ، وقد انتثر على ارض البقعة خشب قد هشمته لفحة البرق وشظايا من الرتم . وتأمل فيراتا هذه البقعة العارية المحاسر في الغابة وصمم على ان يبني بها كوخا وان يهب باقي حياته للتأمل بعيدا عن زملائه وبريئا من الخطيئة .

وقضى خمسة ايام في بناء الكوخ لان يديه لم تتعودا العمل وكانت ايامه حافلة بالاعمال حتى بعد انتهائه من بناء الكوخ ، فكان عليه ان يبحث عن الفاكهة ليأكل منها وكان العمل الشاق لازما ليرد زحف الغابة عن بقعته فقد كانت دائما تحاول الامتداد اليها وكان عليه ان يقيم سورا ليتقي به النمور الجائعة التي تجوس خلال الغابة في الليل ولكن كان لا يطرق سمعه صوت البشر او يشوب صفاءه . وكانت الايام تمر في هدوء كما تنساب مياه النهر رفيقة متئدة دائمة التجدد من معين لا ينضب .

ولم تجد الطيور شيئا يدعو الى الخوف في اعمال هذا القادم الجديد الصامته وقبل ان ينقضي زمن طويل كانت قد بنت لنفسها اعشاشا فوق سقف كوخه وكان ينثر البذور من الازهار الكبيرة ويقدم لها طعاما من الفاكهة ونمت الالفة بينه وبينها شيئا فشيئا حتى اصبحت تحط من اعالى اشجار النخيل تلبية لدعوته ، وكان يلعب معها ويلهو بها وكانت لا تخافه وهو يتناولها بيده ووجد بالغابة في ذات يوم قردا صغيرا ملقى على الارض كسير الساق باكيا كالاطفال ، فرفعه من الارض وحمله الى كوخه ، ولما تحسنت حالته بدأ يروضه وكان القرد مطيعا خاضعا يقلد سيده في دعابة ومرح ويخدمه في امانة وولاء ، وهكذا كان يحيط به حيوانات حية وديعة اليفة ولكنه لم ينس ان القوة والشر كامنان في الحيوان كمونهما في الانسان ، وكان يرى كيف يعض التماسيح بعضها البعض ويطارد بعضها البعض في ثورة الغضب وكيف تنتزع الطيور الاسماك من النهر ، وكيف تلتف الثعابين حول الطيور وتسحقها سحقا ووضحت له سلسلة التدمير والخراب الرهيبة التي قيدت بها الدنيا الهة التدمير والخراب ورآها قانونا يضطر المعرفة الى التسليم بوجوده ، ومع ذلك كان من الخير ان تكون مجرد مشاهد لهذه المعارك وان تكون بريئا من العيب في دائرة التدمير والتحرير المتراحبة .

وقضى عاما وأشهر كثيرة لم ير فيها وجها بشريا ، واتفق بعد ذلك في ذات يوم ان جاء صياد يقتفي اثر فيل الى المكان الذي شرب منه الفيل في الضفة المقابلة ، فرأت عينه منظرا رائعا ، ففي ضوء المساء الشاحب الوهنان كان رجل ابيض اللحية جالسا امام كوخ صغير وكانت الطيور جاثمة فوق راسه وجلس عند قدميه قرد يكسر له البندق بالحجر ، ولكن الرجل كان قد رفع بصره الى قمم الاشجار حيث كانت البغاوات المتعددة الالوان تلهو وتلعب ، ولما اشار لها صفقت باجنحتها وهبطت اليه اسرابها كأنها سحابة عسجدية واستقرت على يده ، وخيل الى الصياد انه يرى القديس الذي كتب عنه « ستتحدث اليه الوحوش بلهجة الانسان وستنمو الازهار في مواطيء قدميه ، وهو يستطيع ان يقطف النجوم بشفتيه وان ينفخ القمر بأنفاسه » ، ونسي الصياد ما جاء من اجله وهرول في عودته الى المدينة ليروي ما شاهده .

وفي اليوم التالي نفسه هرع الفضوليون ليروا العجب من الضفة الاخرى للنهر ، وتكاثر المحتشدون ليروا تلك الغريبة وقدم اخيرا رجل عرف فيراتا ، وذاعت اخباره وشاعت حتى بلغت مسامع الملك الذي احزنه افتقاد خادمه الامين ، وامر الملك باعداد زورق يسع ثمانية وعشرين مجدفا ، واقبلوا على التجديف في حماسة واهتمام مقاومين التيار حتى وصل الزورق الى موقع كوخ فيراتا ، وبسطت طنفسة امام الملك الذي خف الى البر واقترب من الحكيم ، وكان فيراتا قد ظل ثمانية عشر شهرا لا يسمع حديثا بشريا فحيا ضيفه في استحياء واحجام ونسي الانحناء والخشوع الذي يظهره الفرد من الرعية للملك وقال في بساطة :

« بارك الله قدومك ايها الملك » .

فعانقه الملك .

« لقد راقبت تقدمك نحو الكمال مدة سنوات وقد جئت لارى معجزة الصلاح النادرة حتى استطيع انا نفسي ان اتعلم كيف يعيش الرجل الصالح » .

فحنى فيراتا رأسه .

« جماع معرفتي هو انني اعرضت عن معاشرة الناس لكي اكون بريئا من الخطيئة ، والرجل الذي

اعتزل الناس لا يعلم سوى نفسه ولست ادري هل ما اصنعه هو الحكمة ولست ادري كذلك هل ما اشعر به هو السعادة ؟ .. وليس عندي نصيحة لاقدمها ولا شيء لاعلمه فحكمة الرجل الذي اعتزل الناس مختلفة عن حكمة الدنيا ، وقانون التأمل ليس قانون العمل » .

فأجاب الملك : « ولكن مجرد رؤية كيف يعيش الرجل الصالح تعلم الانسان شيئا ، ومنذ رايت وجهك امتلات نفسي سرورا بريئا ، ولست اطلب اكثر من ذلك ، فهل استطيع ان البي لك رغبة من الرغبات في مملكتي او ان احمل انباء الى قومك ؟ » .

« لم يعد لي شيء يا سيدي الملك ، وكل ما على وجه الارض ملكي ، ولقد نسيت انني كان لي منزل بين المنازل الاخرى وكان لي اطفال بين الاطفال الاخرين ، والذي لا دار له فداره العالم ، والذي يتخلص من علاقات الحياة جميعها تصبح الحياة برمتها من نصيبه ، والبريء هو الذي يظفر بالسلام والامن . وامنيتي الوحيدة هي ان تخلو حياتي على سطح الارض من الخطيئة » .

« الوداع اذن واذكرني في ابتهالاتك » .

« انني افكر في الله ، ولذلك افكر فيك وفي كل ما على وجه الارض ، فالجميع اجزاء منه ويتنفسون بأنفاسه » .

وسار زورق الملك منحدرا في النهر ، ومرت شهور كثيرة قبل ان يسمع الناسك صوت انسان مرة ثانية .

ذاعت شهرة فيراتا وطارت في الافاق كما يطير الصقر الابيض ، وانبثت اخبار الحكيم الذي هجر داره وارضه لكي يحيا حياة التأمل الخالص حتى بلغت اقصى القرى والاكواخ القائمة على شاطيء البحر ، واطلق عليه في تلك الاونة الاسم الرابع للفضيلة فأصبح يسمى « نجم الاعتزال » وأطرى زهده الرهبان في المعابد ، وتحدث عنه الملك الى خدمه ، وحينما كان ينطق اي قاض من القضاة بالحكم كان يضيف الى نطقه « عسى ان تكون كلماتي عادلة ككلمات فيراتا الذي يحيا حياته كلها لله ويعرف الحكمة جميعها » .

وكان كثيرا ما يحدث ويتكاثر حدوثه على كر الايام ان أحد الناس يدرك ان اعماله مجانبة للصلاح ويشعر بأن الحياة متاع الغرور فيهجر داره وبلاده ويتنازل عن املاكه ويضرب في الارض حتى يجيء الغابة ليبتني كوخا مثل فيراتا ويوقف حياته على خدمة الله والقدوة هي اقوى رابطة على الارض وكل عمل يثير في الغير الرغبة في الصلاح تلك الرغبة التي تستيقظ من الاحلام وتتحول الى الاعمال القوية ،

والذين استيقظوا على هذا النمط ادركوا تفاهة حياتهم وراوا الدم الذي يخضب ايديهم والخطيئة التي تغشى نفوسهم فهبوا ونفروا الى العزلة قانعين بما يمسك عليهم ارماقهم واستغرقوا في التأمل المتصل ، فاذا صادف احد منهم الاخر في تجواله لجمع الفاكهة فانهم لا يتبادلون التحية خشية ايجاد علاقات جديدة وانما يبتسم كل منهم للاخر ابتسامة ودية وتتبادل قلوبهم تحيات السلام وكانت جمهرة الشعب تقول عن تلك الغابة انها « مأوى الاتقياء » ، فلا يمر بها صياد خشية ان يدنس حرمتها بالقتل والفتك .

وفي ذات صباح بينما كان فيراتا سائرا في الغابة وجد ناسكا ملقى على الارض فاقد الحركة ، ولما انحنى ليرفع الرجل ادرك ان روحه قد فارقت الجسد ، فاغمض فيراتا عيني الميت وهمهم بالصلاة

وحاول ان يحمل الجثة الى خارج الغابة ليبني لها محرقة حتى ينتقل جسد اخيه في العبادة مطهرا الى عالم تناسخ الارواح ، ولكن غذاءه القليل من الفاكهة اضعفه وكان حمل الجثة مما يتجاوز طاقته ، فعبر النهر من المخاضة واخذ سمته الى اقرب قرية ملتمسا المساعدة .

فلما رأى اهل القرية هذا الرجل الرفيع المقام الذي اطلقوا عليه اسم « نجم العزلة » اقبلوا خاشعين راغبين في ان يتعرفوا ارادته ولما اخبرهم خبره بادروا الى تلبية ما اراد ، وحينما كان يسير فيراتا كانت النساء يركعن له ويسجدن ، وظل الاطفال وقوفا ناظرين الى تقدمه الصامت في تعجب ودهشة وكان الرجال يخرجون من منازلهم ليلثموا ملابس زائرهم الجليل الشأن ويلتمسوا بركات القديس واجتاز فيراتا هذه الموجة الانسانية الرقيقة وهو يبتسم ابتسامة القبول والغبطة شاعرا بنقاء حبه لزملائه البشر وحرارته لانه قد انقطعت بينه وبينهم الاسباب .

ولكنه لما بلغ آخر كوخ من تلك الاكواخ المتواضعة وهو يرد في كل مكان على التحيات الودية الموجهة اليه رأى في ذلك الكوخ امرأة جالسة ، وكانت عيناها حينما نظرت اليه ممتلئتين بالعداء والبغض ، فتراجع الى الوراء من الذعر لانه بدا له انه قد عاود لقاء العينين اللتين قد نسيهما من زمن طويل ، عيني اخيه القتيل المتهمتين الحادتين ، وفي اثناء السنوات التي قضاها بعيدا عن الناس اصبحت روحه لا تعرف العداوة ، وحاول اقناع نفسه بأنه اخطأ تفسير معنى نظرة المرأة ، ولكنه لما اعاد النظر كانت عينا المرأة لا تزالان تحدان النظر اليه وفيهما ما ينم على الحقد والضغينة ، ولما استرد السيطرة على نفسه خطا الى الامام نحو الكوخ ، فانسحبت المرأة الى الدهليز ، ولكن عينيها ظلتا متأرثتين الى فيراتا من مكامن الدهليز المظلمة وفيهما ضراوة عيني النمر المتوقدتين وهو في الادغال .

فشد فيراتا من عزمه وقال لنفسه :

« كيف اكون قد اسأت الى هذه المرأة التي لم ارها قط من قبل ؟ .. ولماذا تضطرم حقدا علي ؟ .. لابد ان يكون في الامر خطأ ، وسأبحث عن سبب هذا الخطأ » .

وتقدم الى الامام وقرع الباب ، فلم يسمع ردا ، ومع ذلك كان يشعر بقرب المرأة الغريبة المضطغنة الحاقدة ، فأعاد قرع الباب في صبر واحتمال ، وانتظر قليلا ، وعاد الى قرع الباب كالمتسول واخيرا جاءت المرأة الى الباب بخطوات مترددة ، وكان وجهها وهي تنظر اليه لا يزال مربدا معاديا .

وسألته في خشونة وجفاء : « ماذا تريد مني فوق ما كان ؟ » .

ورآها تستند على قوائم الباب لتثبت في مكانها ، فقد كان الغضب قد بلغ منها كل مبلغ .

ومع ذلك فان فيراتا حينما نظر الى وجهها اطمأن قلبه لانه كان واثقا بأنه لم يرها من قبل فقد كانت شابة وكان هو قد آمعن في طريق الحياة ، ولم يتقاطع طريقهما ولا يمكن ان يكون قد اساء اليها .

وأجاب فيراتا : « اريد ان احييك تحية السلام ايتها المرأة الغريبة ، وأن اسألك لماذا تنظرين إلي هذه النظرة القاسية المنكرة ؟ .. فهل انا عدوك ؟ .. هل اسأت اليك ؟ ..

فأبتسمت ابتسامة خبيثة قائلة : « هل أسأت الي ، هل أسأت الي ؟ .. اساءة هينة يسيرة ، لقد كان بيتي عامرا فجعلته خلاء مقفرا ، وقد سلبتني من احببت واحلت حياتي موتا ، فاغرب عني حتى لا اراك مرة اخرى والا عجزت عن كبح جماح غضبي »

فأعاد فيراتا النظر اليها فرأى الغضب الشديد يتطاير من عينيها الى حد انه اعتقد انها قد فقدت

رشدها وجن جنونها ، فتحول عنها لينصرف قائلا :

« لست الشخص الذي تخالينه ، فأنا اعيش بعيدا عن الناس ولا شأن لي في مصير احد وقد إخطأت وحسبتني شخصا آخر »

ولكنها صاحت وراءه في كراهية : « اني اعرفك معرفة تامة كما يعرفك الجميع ! .. فأنت فيراتا الذي يسمونه « نجم العزلة » والذي قد خصوه بصفات الفضيلة الاربع ، ولكني لا اثني عليك ، وسيرتفع لساني بالشكوى منك حتى تبلغ شكواي آخر قضاة الاحياء ، وتقدم ما دمت قد سألتني تقدم وانظر ماذا فعلت بي »

وأمسكت بكم فيراتا المدهوش وسحبته الى داخل المنزل وفتحت الباب المؤدي الى حجرة منخفضة السقف مظلمة ، وجرته الى ركن كانت فيه صورة انسان بغير حراك ملقى على حصيرة ، فانحنى فيراتا على الصورة وارتد الى الوراء مرتعد الفرائص ، فقد رأى غلاما ميتا ، وكانت عينا الغلام توجهان اليه نظرات كنظرات عيني اخيه القتيل ، ووقفت المرأة الى جانبه وقد لاعها الالم وتأوهت قائلة : « لقد كان

الثالث وكان اخر من رزقت من الاولاد وقد قتلته كما قتلت الاخرين ، أنت الذي يدعونك قديسا وخادما للالهة » .

ولما اراد فيراتا ان يفتح فمه محتجا على ذلك انفجرت قائلة :

« انظر الى هذا النول ، وانظر الى هذا الكرسي الخالي ، هنا كان يجلس باراتيكا زوجي اليوم تلو اليوم بغزل الكتان الابيض لانه لم يكن في الديار من يفوقه في ذلك ، وكان يأتيه الناس من كل فج عميق ليقدموا له طلباتهم وكان عمله قوام حياتنا وكانت ايامنا هانئة لان باراتيكا كان دمث الاخلاق رضي الطباع متوفرا على عمله ، وكان يتجنب مخالطة الاشرار ويبتعد عن الباهلين المتعطلين ، وقد رزقت منه ثلاثة اولاد ، وقد ربيناهم املين ان يصبحوا رجالا صلحاء دمثي الاخلاق مثل ابيهم ، ثم جاء صياد – ويا ليته لم يضع قدمه في هذه القرية – وعلم منه باراتيكا ان رجلا ترك منزله واملاكه ليفرغ لخدمة الله وهو لايزال في حياته الدنيوية وقال الصياد انه بنى بيديه كوخا فازداد احتجار باراتيكا وصمته وكان يطيل التأمل في المساء ولا يتكلم ، وفي احدى الليالي استيقظت فلم اجده الى جانبي وكان قد

انطلق الى الغابة التي تقيم بها لتفكر في الله ، تلك الغابة التي يسميها الناس « مأوى التقي » ، وشغل بالتفكير في نفسه ونسينا ونسي اننا نعيش بعمله ، فحلت بنا الفاقة ، واعوز الاولاد الخبز ، ومات احد الاولاد بعد ان سبقه اخر ، واليوم مات الولد الثالث من جراء عملك ، فأنت اضللت باراتيكا ، ولكي تقترب من الله وارى التراب اطفالي الثلاثة ، فكيف تكفر عن ذلك ايها المفتر حينما اتهمك امام قاضي الاحياء والاموات بالالام التي عانتها اجسامهم الصغيرة وانت تطعم طيورك وتعيش بعيدا عن كل الوان الشقاء ؟ .. وكيف تكفر عن استغوائك رجلا امينا وصرفه عن العمل الذي كان يحصل منه على قوته وقوت اولاده الابرياء ؟ .. وكيف تكفر عن ايهامك اياه الفكرة الجنونية القائلة بأنه يكون في العزلة اقرب الى الله مما هو في الحياة العملية بين زملائه ؟ »

فنكص فيراتا على عقبيه وارتجفت شفتاه

« لم اعلم ان مذهبي سيغري الغير باتباعه ، ولقد قصدت ان اسير وحدي في الطريق الذي سلكته »

« اين حكمتك ايها الحكيم اذا كنت تجهل ما يعرفه الصبية ، وهو ان كل الاعمال انما هي اعمال

الله وليس في قدرة احد ان يفر بارادته من العمل او يتجنب التبعة ؟ .. ولقد غطى الكبرياء على بصيرتك حينما توهمت انك تستطيع ان تكون سيد اعمالك وان تعلم الغير ، فما استمرأته واستعذبته قد صار عندي صبرا وعلقما ، وحياتك كانت سببا في موت هذا الطفل »

ففكر فيراتا هنيهة ثم طأطأ رأسه موافقا

« قد قلت حقا ، واني ارى ان في كل نبضة واحدة من نبضات الالم معرفة للحس اكثر مما في اعتزال الحكماء كله ، وما عرفته قد تعلمته من البائسين ، وما رأيته كشف لي عنه الغطاء نظرة هؤلاء الذين يعانون الشقاء وعينا الاخ الذي لا يموت وحقيقة انني لم اكن متواضعا خاشعا امام الله كما توهمت وانما كنت متكبرا مغرورا ، والحزن الذي اشعر به الان يبين اثر ذلك في نفسي ، والحق ان من يمسك عن العمل يعمل برغم ذلك عملا تلحقه تبعته في الارض ، وحتى هذا المتفرد المعتزل يعيش في اخوانه جميعا ، واني اعود الى التوسل اليك لتغفري لي وسأعود من الغابة املا ان يقتدي بي باراتيكا ويعود اليك لتحملي منه اطفالا »

وانحنى الى الامام مرة اخرى ولمس حاشية ثوبها بشفتيه ، وسرى عنها وهي حائرة ذاهلة تشيع تراجعه بنظراتها .

وقضى فيراتا ليلة اخرى في كوخه ، وأجال النظر في الكواكب وكان يرقب في الغروب ظهور شعلاتها

البيض في اعماق السماء ويشاهد تغورها في الفجر ، ودعا مرة اخرى الطيور الى وليمتها ولاطفها ، ثم حمل عكازه والقصعة التي احضرها معه منذ سنوات وعاد ادراجه الى المدينة .

ولم تكد تنتشر الانباء بأن الرجل المقدس قد ترك صومعته المنعزلة العجيب ، وذلك بالرغم من ان الكثيرين كان يملأ نفوسهم الخوف الخفي من ان عودة هذا الرجل من الحضرة المقدسة قد تتمخض عن كارثة ، وكان فيراتا يتقدم وكأنه يسير بين سورين حيين من الاعجاب والاجلال ، وحاول ان يحيي الناظرين بالابتسامة الوديعة التي كانت تتهلل فوق شفتيه ، ولكنه لاول مرة عجز عن الابتسام وظلت عيناه جادتين وشفتاه مطبقتين

وأخيرا وصل القصر ، وكانت ساعة المشاورة قد انقضت ، وكان الملك منفردا ، دخل فيراتا ، ووقف الملك ليعانق زائره ، ولكن فيراتا عفر وجهه في التراب ولمس حاشية وشاح الملك ليدل على انه يريد ان يقدم التماسا .

« لم أقع في الخطأ عامدا متعمدا لاني قد فررت من الخطيئة ، ولكن اقدامنا مقيدة في الارض واعمالنا خاضعة للقوانين الخالدة فالاضراب عن العمل هو نفسه عمل ولم استطع ان افلت من عيني الاخ الذي لا يموت وهو يتأثر بأعمالنا سواء كانت خيرا او شرا وذلك على الرغم من ارادتنا ولكني مجرم مغرق في الاجرام لاني فررت من الله وامتنعت عن خدمة الحياة ولقد كنت غير مرجو النفع لاني كنت لا اتعهد سوى حياتي وحدها ولم اقم بخدمة لاي انسان ، والان اريد ان اعود الى الخدمة » .

« كلماتك يا فيراتا غريبة الوقع في سمعي ومن وراء فهمي ولكن حدثني عن رغبتك لاحققها »

« لا اريد ان اكون حر الارادة فالرجل الحر ليس حرا وهذا الذي لا يعمل لا يفلت من الخطيئة والذي يخدم هو الحر وحده وكذلك الذي يتنازل عن ارادته للغير والذي يوقف جهوده على عمل والذي يعمل دون ان يسأل والجزء الاوسط من الاعمال من عملنا اما ابتداء العمل ونهايته وسببه وتأثيره فأشياء لا

سلطان لنا عليها ولا علم لنا بها فحررني من ارادتي لان كل ارادة فوضى وتخليط والحكمة في الخدمة »

« لا استطيع ان افهمك ، فأنت تسألني ان اجعلك حرا وفي الوقت نفسه تسألني ان انيط بك خدمة فالرجل الحر اذن ليس سوى الرجل الذي يدخل في خدمة رجل آخر في حين ان هذا الاخر الذي يدخل الاول في خدمته ليس حرا ، ان هذا مما يتجاوز فهمي »

« من الخير ايها الملك الا يعي قلبك هذا والا فكيف تظل ملكا وتصدر الاوامر اذ وعى قلبك هذا ؟ »

فتربد وجه الملك من الغضب .

« هل معنى كلامك ان الحاكم في نظر الله شيء اقل من الخادم ؟ »

« الناس سواء في نظر الله وليس فيهم من هو اقل من غيره ولا فيهم من هو اعظم من غيره والذي يعكف على الخدمة ويسلم ارادته بدون سؤال ولا مراجعة قد اخلى نفسه من التبعة وردها الى الله ، ولكن الذي يريد والذي يتوهم ان الحكمة تمكنه من ان يجتنب ما يناصبه العداء يضله الاغراء ويتورط في الخطيئة » .

وكان وجه الملك لا يزال مربدا .

« اذن كل خدمة مثل الخدمة الاخرى وليس هناك خدمة اجل واعظم ولا خدمة اقل واصغر في نظر الله والانسان » .

« قد يحدث ان تبدو خدمة من الخدمات اعظم واجل في عيون الناس ولكن الخدمات متساوية في نظر الله » .

فنظر الملك مليا الى فيراتا وهو منقبض حزين وكانت الكبرياء تعصف بنفسه عصفا شديدا ولما اعاد النظر الى الوجه المتعب الكليل والشعر الابيض الذي تهدل فوق الجبهة المتغضنة بدا له ان هذا الشيخ لابد ان يكون قد افن وخرف ولكي يتبين الامر قال له في استهزاء :

« اتريد ان تكون القيم على الكلاب في قصري ؟ »

فانحنى فيراتا وقبل اعتاب العرش رمزا للشكر واعترافا بالجميل . ومنذ ذلك اليوم اصبح الشيخ الذي اعلت شأنه البلاد ودعته بأسماء الفضيلة الاربعة القيم على الكلاب في حظائرها الملاصقة للقصر وكان يقيم مع الخدم في الاحياء الحقرة وخجل منه اولاده فكانوا يفضلون ان يطوفوا بدائرة واسعة حول داره على ان يمروا بها اذا اضطروا الى ذلك تجنبا لرؤيته ، وكانوا يؤثرون انكار قرابته لهم في حضور الناس وتنكر له القساوسة وقلبوا له ظهر المجن ثم اعتبروه غفلا لا يستحق ان يلتفت اليه ولمدة ايام قلائل كانت عامة الشعب تقف وتتأمل هذا الشيخ الذي كان في طليعة رعايا الملك وهو قادم في لباس الخدم يقود الكلاب في الحبل ولكنه كان لا يعبأ بالناظرين ، ولذا سرعان ما كانوا ينصرفون الى اعمالهم ولا يفكرون في امره .

وكان فيراتا يؤدي خدمته بأمانة واخلاص فمن الفجر الى غروب الشمس ، وكان يغسل كمامات الكلاب وينظف فراءها ويحضر لها الطعام ويجهز لها القش الذي تنام عليه ويكنس البقايا والنفايات وسرعان ما احبته الكلاب حبا يفوق حبها لسائر من في القصر وكان هذا يرضيه ويقع منه موقع مسرة وكان فمه العجوز المتقلص الذي كان قليلا ما يرسل منه الكلام يبتسم ابتسامته القديسة حينما يرى سرور الكلاب وارتياحها وكان يبهجه مرور السنوات وكانت كثيرة وخالية من الحوادث ومات الملك

وخلفه ملك جديد لا يعرف فيراتا وقد علاه مرة بعصاه لان احد الكلاب هر ونبح حينما مر جلالته وجاء يوم نسيه فيه جميع زملائه من الناس

ولما تمت رواية قصة حياته وأدركه اخيرا الموت ودفن جسده في مدافن الخدم والعبيد لم يكن بين الناس من يتذكر هذا الذي ملات شهرته البلاد قديما وعرف بأسماء الفضيلة الاربعة ، وظل ابناؤه بعيدين عن الانظار ولم يترنم كاهن بأنشودة الموت على بقاياه وحقيقة ان الكلاب نبحت يومين وليلتين ، ولكنها نسيت هي كذلك فيراتا الذي لم يكتب اسمه في اخبار الفاتحين ولم يرد في كتب الحكماء

الراقصة اليابانية

لافكاديو هيرن كاتب فنان ، وباحث نقادة ، نشأ نشأة عجيبة وسار سيرة غير مألوفة ، وقد ولد في ليكاديا احدى الجزر اليونانية في يونيو سنة ١٨٥٠ ، وكان والده جراحا من اصل ايرلندي يعمل في خدمة الجيش البريطاني ، وكانت امه يونانية ، ومات والداه منذ نعومة اظافره وفي مدارج طفولته ، فكفلته عمته ، وأنشأته نشأة دينية ، وهو مدين لهذه النشأة باجادته اللاتينية ، ولكنه سرعان ما ادرك ان توفره على الاعمال المتصلة بخدمة الدين والكنيسة لا يلائم عقله ونفسه المتوثبة ، فنزح الى امريكا في التاسعة عشرة من عمره ليجرب حظه ، ويشق طريقه ، ويبني مستقبله ، ومارس هناك مهنة الصحافة ، وتجلت مواهبه الصحفية فأصبح في مدى سنوات معدودات من محرري جريدة « تايمز ديمكرات » وظل مشتركا في تحريرها حتى سنة ١٨٨٧ حيث بدأ رحلته في ارتياد غرائب الامكنة وعجائب البلاد ، وكان كما كتب الى احد اصدقائه « نحلة صغيرة ادبية تشتار الشهد الموحى » وبعد ان امضى سنوات في جزائر الهند الغربية ذهب الى اليابان في سنة ١٨٩٠ ليكتب سلسلة من المقالات لاحدى المجلات ، وهناك شعر بأنه قد وجد ضالته واحس انه في مكانه المناسب ووطنه الروحي ، وتأهل بيابانية ، وتجنس بالجنسية اليابانية ، واختارته الحكومة اليابانية استاذا للادب الانجليزي في جامعة توكيو ، وتعمق في فهم اسرار النفس اليابانية ، واستقصى عقائدهم واساطيرهم واقاصيصهم وتقاليدهم وآدابهم وفنونهم ، واستطاع بذلك ان يفسر للعالم غريبتهم ويكشف عن عقليتهم ، وقد يسر له ذلك مرونة عقله ، وخياله الشعري العاطف ، ونفسه السمحة الصافية ، واسلوبه السهل المتدفق ، وقد ترك الكثير من المؤلفات البديعة الشائقة قبل وفاته في سنة ١٩٠٤ ، وقد مزج التفكير البوذي بالتفكير الغربي مزجا فنيا رائعا ، والقصة الاتية والاسطورة التي تتلوها من ادل كتاباته ــ في اعتقادي ــ على لون ادبه وطبيعة فنه :

منذ سنوات كثيرة خالية متقادمة العهد كان احد الطلبة المتوفرين على دراسة الفن من ناشئة الشباب مسافرا على قدميه من كيوتو الى يدو فوق الجبال ، وكانت الطرق حينذاك قليلة ورديئة وكان السفر بالقياس الى السفر في العصر الحاضر جم المتاعب عظيم المشقة الى حد ان احد الامثال الشائعة كان يقول : « يجب ان يحمل الطفل المدلل على السفر »

ولكن الارض كانت كما هي اليوم ، وكانت هناك غابات شجر الشربين نفسها وشجر الصنوبر ، ونفس ادغال الخيزران والقرى السامقة وسقوفها المصنوعة من البوص ، ونفس حقول الارز المدرجة وقد انتثرت فيها القبعات الكبيرة الصفراء التي يلبسها الفلاحون وهم عاكفون على العمل في الردغة ، وعلى جوانب الطرقات كانت نفس تماثيل الالهة جيزو وهي تبسم مشرفة على الحجاج القادمين الى نفس المعابد ، وفي ايام الصيف كان الانسان يشاهد اطفالا عراة سمرا يمرحون في الانهر الضحضاحة كما يفعلون في الوقت الحاضر ، وكانت الانهار جميعها تضاحك الشمس .

ولم يكن الشاب طالب الفن من المترفين المدللين ، كان اخا سفر جواب ارض قد تعود جشوبة المأكل ، وخشونة المسكن ، وان يفيد من كل موقف ، ويخرج من كل مأزق ، ولكن في هذه الرحلة الفى نفسه في ذات مساء بعد غروب الشمس في ناحية يبدو انه لا يوجد بها مكان يأوي اليه ولا طعام يتبلغ به ، وكانت بعيدة عن الارض المزروعة .

ولم يكن القمر طالعا ، وكانت ظلال اشجار الصنوبر تحيل كل ما حوله ظلاما ، وبدت تلك الناحية التي افضى به اليها التسيار موحشة متأبدة لا يسمع فيها صوت سوى هزيز الريح في اوراق شجر الصنوبر وصرير الحشرات الذي لا ينتهي ، واخذ يخبط خبط العشواء عله يهتدي الى ضفة نهر ليتبعها ويسترشد بها في الاهتداء الى مقر ، واخيرا اعترض طريقه بغتة جدول ، ولكن ظهر بعد ذلك انه يعبوب يصب في شعب بين هضبتين .

ولما اضطر الى ان يعود ادراجه صمم على ان يتسلق اقرب قمة ليستطيع ان يتبين منها بعض شواهد الحياة البشرية ، ولكنه لما بلغها لم يبصر حوله سوى مجموعة من التلال .

وبينما كان يوطن نفسه على قضاء الليل تحت النجوم لمح على مسافة قريبة منه عند اسفل حدود التل الذي اعتلى ذروته بصيصا من الضوء الاصفر الواهي منبعثا على ما يبدو من بعض المساكن ، فقصد اليه ، وسرعان ما ابصر كوخا صغيرا خاله كوخ احد الفلاحين ، وكان الضوء الذي رآه لا يزال منبعثا منه خلال ثقب في الباب الخارجي ، فتقدم وقرع الباب .

ولم يسمع حركة في داخل الكوخ ، الا بعد ان دق ونادى مرات عدة ، وسأله صوت امرأة ماذا تريد ، وكان الصوت عذبا نديا تسترعي عذوبته الالتفاف ، وادهشته لهجة السائلة الخفية لانها كانت تتحدث بلغة العاصمة البليغة المتخيرة .

فاجاب انه طالب ضل السبيل في مخارم الجبال وانه يريد طعاما ومأوى يقضي به تلك الليلة ، واذا لم يتيسر ذلك فانه سيكون شاكرا لو قدمت له معلومات للاهتداء الى اقرب قرية ، واضاف الى ذلك ان عنده من المال ما يسمح بدفع اجر الخدمات التي يقوم بها الدليل .

فسأله الصوت في دوره اسئلة اخرى كثيرة تنم على الاستغراب الشديد والعجب من بلوغ انسان هذا المسكن من الاتجاه الذي جاء منه ، ولكن اجوبته على ما ظهر هدأت ثوائر الشكوك لان ساكنة الكوخ هتفت به قائلة : « اني حاضرة في التو واللحظة ، فدون وصولك في هذه الليلة الى اي قرية اهوال وصعاب والطريق خطر »

وبعد قليل من التريث فتح الباب الخارجي وظهرت امرأة تحمل مصباحا من الورق ، وقد امسكت

به بحيث يضيء وجه الغريب على حين يظل وجهها في الظلال ، واستنفضته في صمت ثم قالت في ايجاز « انتظر ، ساحضر الماء » واحضرت طستا للغسيل ووضعته على مرقاة الباب وقدمت لضيفها منشفة .

فخلع نعليه ومسح غبار السفر من قدميه ، واظهرته على غرفة نظيفة كان يبدو انها لا تشغل داخل الكوخ جميعه سوى حيز يسير في مؤخرة الكوخ يفصله حاجز خشبي كان يستعمل مطبخا ، له حشية من القطن ليركع عليها ووضعت موقدا ازاءه .

وسنحت له الفرصة حينذاك لمشاهدة مضيفته وقد حيرته رقتها وجمال تقاطيعها وربما كانت تكبره بثلاث سنوات او اربع ، ولكنها كانت لا تزال في ريعان الشباب ، ومن المؤكد انها لم تكن فتاة قروية .

وقالت له بصوتها العذب الفريد في عذوبته : « انا الان في عزلة ولا اتلقى ضيوفا . ولكني متأكدة من انك تستهدف الخطر اذا سرت ابعد من نلك في هذه الليلة ، وفي النواحي المجاورة بعض الفلاحين ولكنك لا تستطيع ان تهتدي اليهم في الظلام الا بمرشد ، ولذا سأسمح لك بالبقاء هنا حتى الصباح ، ولست تظفر بالراحة هنا ولكني ساقدم لك فراشا ، واحسبك جائعا ، وما عندي من الطعام ليس من النوع الجيد الشهي ولكني اقدمه لك بارتياح »

وكان المسافر قد برح به التعب فارتاح ارتياحا شديدا لهذا العرض ، واوقدت الشابة القليل من النار واعدت له في صمت بعض الصحاف الحاوية لالوان من الاطعمة المعروفة في بلاد اليابان واسرعت في تقديمها له معتذرة عن رداءة نوعها ، ولم تنبس بكلمة في اثناء تناوله الطعام ، وقد اربكه احتجازها وتحفظها ، ولما وجد انها تكتفي بالاجابة عن الاسئلة التي اجترأ عليها بالانحناء او بكلمة عابرة امسك عن الاسترسال في الحديث .

ولاحظ في خلال نلك ان المنزل الصغير كان غاية في النظافة وان الاواني التي تناول فيها الطعام كانت نقية لا تشوبها شائبة ، وان الاشياء الرخيصة القليلة الموضوعة في الحجرة انيقة حسنة ، وكانت استار خزينة الثياب المنسدلة من الورق الابيض ولكنها كانت مزخرفة بحروف صينية كبيرة جميلة الرسم ، وكانت هذه الحروف توحي ــ حسب القانون المتبع في هذه الزخرفة ــ الموضوعات المحببة الى الشعراء والفنانين ، مثل الربيع والازهار والجبال والبحار وامطار الصيف والسماء والنجوم وقمر الخريف وماء النهر ونسيم الخريف .

وفي احد جوانب المنزل وضعت منضدة واطئة تحمل صندوقا ابوابه الصغيرة المطلية مفتوحة ، وقد ظهر في داخلها نصب من الانصاب التي توضع فوق القبور ، وكان امامه مصباح منير بين قرابين من الازهار البرية ، وفوق هذا الضريح المنزلي كانت صورة معلقة فوق الصور العادية وتمثل الهة الرحمة وقد اتخذت القمر هالة لها .

ولما اتم الطالب طعامه القليل قالت له الشابة : « لست املك ان اقدم لك فراشا وثيرا وليس عندي سوى كلة من الورق ، وهذا الفراش هو فراشي والكلة كلتي ساقوم باعمال كثيرة في هذه الليلة وليس عندي وقت للراحة ، ولذا اسألك ان تحاول الراحة بالرغم من اني لا استطيع توفير اسبابها لك »

وادرك هو حينذاك انها تعيش في عزلة تامة لسبب غريب وانها تتذرع بعذر مقبول لتتخلى له باختيارها عن فراشها الوحيد ، وعارض باخلاص في هذا الكرم الزائد واكد لها انه يستطيع ان ينام نوما عميقا على أرض الغرفة وانه لا يعبأ بالناموس .

ولكنها اجابته بلهجة الاخت الاكبر منه سنا بأن عليه ان يطيع رغبتها وانها حقيقة ستضطلع ببعض الاعمال ، وطلبت اليه ان يخلي بينه وبينها في اقرب وقت ، وانها لما كانت تفهم انه سيد محترم مهذب فهي تنتظر منه ان يتركها ترتب امورها حسب مشيئتها ، ولم يجد سبيلا للتعقيب على نلك لانه لم

يكن هناك سوى حجرة واحدة .
ووضعت الحشية على الارض واحضرت وسادة من الخشب وعلقت كلتها المصنوعة من الورق ونشرت ستارا كبيرا من جانب الفراش المواجه للضريح وحيته بطريقة تبين منها انها تريد منه ان يأوي في الحال الى فراشه ، وقد بادر الى ذلك في شيء من التلكؤ ، فقد كان يجول بخاطره انه ازعجها من غير عمد .
ومع تأبي هذا الطالب المسافر في قبول هذا العطف الذي تضمن التضحية براحة الغير فانه وجد الفراش اكثر من مريح ، ولما كان قد نال منه الجهد فانه لم يكد يضع رأسه على الوسادة حتى نسي كل شيء مستغرقا في النوم .
وحينما ايقظه من نومه صوت خاص خيل اليه انه لم يمض على نومه سوى زمن قليل ، ومن المؤكد ان هذا الصوت كان وقع اقدام ، ولكنه لم يكن وقع اقدام تسير سيرا رفيقا وانما كان وقع اقدام تسير في حركة سريعة واهتياج وانفعال .
وخطر بباله ان اللصوص ربما كانوا قد دخلوا المنزل ، ولم يكن يملك ما يخشى عليه ، وانما كان اهتمامه موجها الى السيدة الرحيمة التي اسبغت عليه كرمها ، وكان في كل جانب من جانبي الكلة فتحة تشبه النافذة الصغيرة ، فحاول ان ينظر من احدى هاتين الفتحتين ولكن الستارة المرخاة كانت تحول بينه وبين رؤية ما يحدث ، وقد فكر في ان يرفع صوته ولكن كبحت هذا الدافع فكرة انه ليس من الحزم ولا مما ينفع ان يعلن عن وجوده ـ اذا كان هناك خطر ـ قبل ان يتبين الموقف .
واستمر الصوت الذي اثار هواجسه واقلقه وكان يزداد غرابة وخفاء ، فصمم على ان يستعد للاسوأ وان يخاطر بحياته اذا استلزم الامر دفاعا عن مضيفته الشابة .
وسرعان ما شمر ثيابه وانسل من تحت الكلة المصنوعة من الورق وزحف الى حافة الستار وأحد النظر ، فادهشه ما رآه الى اقصى حد .
فقد كانت الشابة ترقص بمفردها امام الضريح المنار وهي في حلة فخمة رائعة ، وعرف ان تلك الحلة من حلل الراقصات ولو انها كانت اغلى ثمنا من كل حلل الراقصات المحترفات التي ابصرها ، وقد شبت هذه الحلة جمالها في ذلك الزمان والمكان المنعزلين حتى بدت له شيئا يفوق الطبيعة ، ولكن الذي بدا له اعجب من ذلك رقصها .
وقد خامره الشك في حقيقة ما يرى لحظات ، ومرت بخاطره الاساطير التي يرويها المزارعون عن الجنيات ، ولكن منظر الضريح البوذي والصورة المقدسة بدد هذا الوهم وجعله يخجل من سخفه ، وفي الوقت نفسه اخذ يشعر بأنه يراقب شيئا لم تشأ ان تطلعه عليه وان الواجب عليه باعتباره ضيفا في منزلها ان يعود في الحال الى ما وراء الستار .
ولكن المنظر اذهله وسحره وشعر في سرور لا يقل عن التعجب بأنه سيشاهد ابرع راقصة رآها في حياته ، وكان كلما زادها نظرا ازداد سحرها استيلاء على نفسه ، ثم توقفت بغتة لاهثة مبهورة وفكت زنارها واستدارت وهي تخلع الجزء الاعلى من ثوبها وفزعت فزعا شديدا حينما قابلت عيناها عينه .
وحاول في التو واللحظة ان يعتذر لها وقال انه استيقظ فجأة من نومه على صوت اقدام سريعة وان هذا الصوت سبب له قلقا ، وكان معظم هذا القلق من اجلها وذلك بسبب ان الوقت متأخرا والمكان منعزلا ، ثم اعترف بتعجبه مما شاهد وتحدث عن الحالة التي اجتنبته .
واسترسل قائلا : « اريد ان تسامحي حبي للاستطلاع لانني لا استطيع ان امنع نفسي من التعجب والا اسائلها من انت وكيف اصبحت راقصة قديرة الى هذا الحد ، وقد رايت راقصات سيكيو جميعهن

ولم ار بين ابعدهن شهرة فتاة تستطيع ان ترقص مثل رقصك ، وحينما بدأت اراقبك لم استطع ان احول بصري » .

فبدا عليها الغضب في بادىء الامر ، ولكن قبل ان يتم حديثه تغيرت ملامح وجهها ، وابتسمت وجلست الى جانبه ، وقالت : « كلا ، لست حانقة عليك ، وانما انا آسفة على ان تكون قد راقبتني ، لانني واثقة من انك لا بد ان تكون قد خلتني مجنونة حينما ابصرتني ارقص على هذا الاسلوب منفردة بنفسي والان علي ان احدثك عن معنى ما شاهدت »

وقصت عليه قصتها ، وتذكر انه سمع باسمها وهو غلام ناشىء ، اسمها في الاحتراف وهو اسم اشهر راقصة ، وكانت معبودة العاصمة ، وقد اختفت فجأة من الحياة العامة وهي في اوج شهرتها وريعان جمالها ، ولم يعرف احد لماذا اختفت ولا اين ذهبت .

وقد فرت من الثراء والشهرة مع شاب كان يهواها ، وكان هذا الشاب فقيرا ، ولكنهما كانا يملكان ما يكفي ليعيشا عيشة بسيطة وسعيدة في الريف ، وبنيا منزلا صغيرا بين الجبال وقضيا فيه سنوات كان كل منهما يعيش من اجل الاخر ، وكان يعبدها عبادة .

وكان من اعظم مسراته ان يراها وهي ترقص ، ففي كل مساء كان يعزف لها لحنا محبوبا وهي ترقص له .

وجاء شتاء طويل قارس فمرض فيه ومات بالرغم من عنايتها الرقيقة . ومن ذلك الحين وهي تعيش وحيدة مع ذكراه وتؤدي هذه الفريضة من الحب والولاء تكريما للميت .

وفي كل يوم تضع القرابين المألوفة ازاء النصب وفي الليل ترقص لتسره كما كانت تفعل فيما مضى ، وهذا هو تفسير ما شاهده المسافر الشاب . ومضت تقول ان من الفظاظة ايقاظها ضيفها المتعب ، ولكنها قد انتظرت حتى ظنته قد استغرق في النوم وحاولت بعد ذلك ان ترقص بغاية الخفة ، وهي ترجو ان يسامحها لانها ازعجته من غير قصد .

ولما اخبرته بذلك كله اعدت له قليلا من الشاي وشرباه معا ، وتوسلت اليه بعد ذلك وهي آسفة حزينة في ان يسرها بمحاولة معاودة النوم ثانية حتى وجد نفسه مضطرا الى العودة الى النوم تحت الكلة المصنوعة من الورق بعد تقديم الكثير من الاعتذارات الصادقة

ونام نوما جيدا وطويلا ، وكانت الشمس قد متعت في الافق قبل ان يستيقظ ، ولما انتبه من نومه وجد انها قد اعدت له طعاما بسيطا كالطعام الذي اعدته في مساء اليوم السابق ، وكان يشعر بالجوع ، ولكنه برغم ذلك اكل اكلا خفيفا خشية ان تكون الشابة قد ضايقت نفسها وارهقتها في اعداده له ، وتأهب بعد ذلك للرحيل .

ولما اراد ان يقدم لها شيئا لقاء ما قدمته له ولما تحملته من تعب لاجله رفضت ان تأخذ شيئا وقالت له : « ما قدمته لك لا يساوي نقودا وما فعلته قمت به من قبيل الاشفاق وحده . واني ارجو ان تنسى الاقلاق الذي سببته لك هنا والا تتذكر سوى النية الحسنة ممن لم تكن تملك شيئا لتقدمه »

وحاول ان يحملها على قبول شيء ، ولكنه لما وجد ان اصراره يؤلمها ودعها بالالفاظ التي استطاع ان يجدها صالحة للتعبير عن عرفانه بالجميل ، وكان يخالجه اسف خفي لان جمالها ورقتها اخذا بمجامع قلبه اكثر مما كان يريد ان يعترف به لاحد سواها

ودلته على الطريق الذي يسلكه وراقبته وهو ينزل من الجبل حتى اختفى عن نظرها ، وبعد مرور ساعة على ذلك وجد نفسه في طريق يعرفه .

ثم مس نفسه الندم فجأة ، فقد نسي ان يذكر لها اسمه ، وتردد لحظة ، ثم قال لنفسه : « وماذا يهم ذلك ؟.. اني ساظل فقيرا » وسار في طريقه .

ومرت سنوات عدة ، وطوى معها الكثير من الاساليب المستحدثة والانماط الطريفة ، واصبح المصور شيخا ، ولكن قبل ان يبلغ الشيخوخة ذاعت شهرته وكان الامراء المعجبون بفنه يتنافسون في رعايتهم له واسباغ عطفهم عليه ، ولذا اصبح غنيا ميسورا يملك بيتا جميلا في مدينة القياصرة ، وكان الفنانون الشبان من شتى المقاطعات تلامذته الذين يعيشون معه ويتولون خدمته في كل شيء وهم يتلقون عنه ويتخرجون عليه ، وكان اسمه ملء الاسماع في كل نواحي البلاد .

وفي ذات يوم جاءت الى منزله عجوز وطلبت ان تتحدث اليه ، ولما راى الخدم ملابسها الزرية ومظاهر البؤس البادية عليها ظنوا انها من النساء المتسولات العاديات وسألوها في خشونة وجفاء عما تريد ، وحينما اجابتهم قائلة : « لا اخبر احدا سوى سيدكم عن سبب قدومي » اعتقدوا انها مجنونة ، وخدعوها قائلين : « هو في هذه الاونة متغيب عن سيكيو ولا نعرف متى يعود »

ولكن المرأة العجوز ظلت تجيء يوما بعد يوم واسبوعا في اثر اسبوع ، وفي كل مرة كانوا يقولون لها ما ليس بالصحيح ، فاليوم هو مريض ، او اليوم هو جد مشغول ، او اليوم عنده جمع حاشد من الناس ولا يستطيع ان يراك ، ولكنها ظلت مع ذلك توالي الحضور في نفس الساعة كل يوم ، وفي كل مرة كانت تحمل رزمة ملفقة في غطاء خشن ، ورأى الخدم اخيرا ان الاحسن هو ان يخاطبوا سيدهم في شأنها .

فقالوا له : « بباب سيدنا امرأة عجوز طاعنة في السن نعتقد انها متسولة وقد حضرت اكثر من خمسين مرة وهي تطلب ان ترى سيدنا ، وقد اجتهدنا في ان نثنيها عن ذلك لانه يظهر انها مجنونة ، ولكنها ظلت دائبة على الحضور ، ولذا قد اجترأنا على عرض الامر على سيدنا لنعلم ماذا نصنع بعد ذلك » .

فأجابهم سيدهم في حدة : « لما لم يخبرني احد منكم بذلك من قبل ؟.. » وخرج بنفسه الى الباب وخاطب المرأة في ترفق واضح وعطف شديد متذكرا كيف كان هو نفسه في زمرة الفقراء والمساكين وسألها هل تريد معونة ؟..

ولكنها اجابت انها ليست في حاجة الى المال او الطعام وانما تطلب منه ان يرسم لها صورة ، فعجب من رغبتها وطلب اليها ان تدخل المنزل . فدخلت الى الرواق وركعت هناك واخذت تفك اربطة الحزمة التي احضرتها معها ، ولما نشرت مطويها راى المصور ملابس ثمينة عجيبة نادرة من الحرير موشاة بتصاوير مذهبة ومع ذلك فقد بليت ونصل لونها من كثرة الاستعمال وقدم العهد ، فهي اثر بعد عين والبقيةالباقية من حلة رائعة من حلل الايام الغابرة التي كانت ترتديها الراقصات .

ولما نشرت المرأة العجوز الثياب ثوبا ثوبا وحاولت ان تصقلها بأناملها المرتجفة ثارت في ذهن الاستاذ ذكرى واضطربت لحظة في غموض وابهام ثم اضاءت المنزل المنعزل بين الجبال الذي لقي فيه الاكرام والحفاوة في غير مقابل والحجرة الصغيرة التي اعدت لراحته والكلة المصنوعة من الورق والمصباح الواهي الضوء الموضوع امام الضريح البوذي وجمال الراقصة العجيب التي كانت ترقص بمفردها في صميم الليل .

وعجبت الزائرة المتقدمة في السن حينما رأت الاستاذ المقرب من الامراء ينحني لها انحناء بالغا ويقول : « سامحي جفوني لنسياني محياك ، ولكن قد مر على آخر لقاء لنا نيف واربعون عاما ، والان اتذكرك جيدا ، فقد رحبت بي في منزلك ، وقدمت لي الفراش الوحيد الذي كان عندك ، وقد رأيتك ترقصين ورويت لي قصتك ، ولقد كنت راقصة وانا لم انس اسمك »

ونطق باسمها ، فذهلت وارتبكت في بادىء الامر وعييت عن الجواب فقد كانت متقدمة في السن

وشقيت كثيرا وبدأت ذاكرتها تخذلها ، ولكنه ازداد في حديثه معها عطفا عليها وبرا بها وتلطفا معها ونكرها بأشياء كثيرة اخبرته بها ووصف لها المنزل الذي كانت تعيش به في وحدة وانفراد حتى تذكرت هي الاخرى في النهاية واجابته وقد نديت جفونها بدموع الفرح « حقيقة ان الواحد الصمد الذي يجيب دعوة الداعي هو الذي ارشدني ، ولكني حينما تشرف منزلي المتواضع بزيارة سيدي الاستاذ العظيم لم اكن كما انا الان ، ويبدو لي ان اتذكر الاستاذ نلك معجزة من معجزات سيدنا بوذا »

ثم قصت عليه بقية قصتها البسيطة ، فعلى توالي السنين اضطرتها الفاقة الى مفارقة منزلها الصغير ، وعادت في شيخوختها منفردة الى المدينة العظيمة التي نسي فيها اسمها منذ زمن بعيد .

وقد سبب لها فقدان منزلها ألما مبرحا ، ولكن الذي احزنها اكثر من نلك انها لما ضعفت وكبرت سنها ، عجزت عن الرقص في كل مساء امام الضريح لتسر روح الميت الذي احبته .

ولذا كانت تريد عمل صورة لها وهي في ثياب الرقص وموقفة حتى تعلقها امام الضريح وقد صلت لنلك ودعت الله وتضرعت وتوسلت ، وقد بحثت عن الاستاذ لشهرته الذائعة في التصوير ولانها كانت تريد ــ اكراما للميت ــ صورة مرسومة ببراعة عظيمة لا صورة عادية ، واحضرت معها ملابس الرقص آملة ان الاستاذ قد يقبل ان يصورها وهي في هذه الملابس .

فأصغى الى حديثها جميعه وقد علت وجهه ابتسامة سمحة رقيقة واجابها : « يسرني ان ارسم الصورة التي تريدينها ، وعندي اليوم عمل لانجزه ولا يمكن ارجاؤه ، ولكن اذا حضرت الى هنا غدا فسأرسمك حسب ما تريدين تماما وبقدر ما استطيع »

ولكنها قالت : « ولكني لم اخبر الاستاذ بالشيء الذي يقلقني اكثر من اي شيء آخر ، وهذا الشيء هو انني لا استطيع ان اقدم لقاء هذه الخدمة العظيمة شيئا سوى ملابس الراقصة هذه ، وليس لها قيمة في ذاتها ، ولو انها كانت يوما ما غالية نفيسة ، ولا ازال آمل ان الاستاذ قد يرغب في اخذها لانها غريبة نادرة ، وليس هناك راقصات محترفات كراقصات العهد القديم ، والبنات الراقصات في هذه الايام لا يرتدين ثيابا من هذا الطراز .

فقال لها المصور الطيب : « لا تفكري في نلك على الاطلاق !.. لا .. اني سعيد لسنوح هذه الفرصة الراهنة لادفع قسطا يسيرا من الدين القديم الذي لك عندي ، وغدا سأرسمك كما تشائين

فركعت امامه ثلاث ركعات ناطقة بالشكر ، ثم قالت : « ارجو مولاي السماح والعفو ولو اني لا يزال في نفسي شيء اريد ان افضي به اليه ، فأني لا اريد ان يصورني كما انا الان ، وانما اريد ان يصورني كما كنت وانا في ريعان الشباب كما عرفني الاستاذ »

فقال : « اني اذكر جيدا ، فقد كنت رائعة الجمال » .

فأشرقت سرورا ملامحها المغضنة وهي تنحني شاكرة له هذه الكلمات ، وهتفت قائلة : « لقد بلغت كل ما املته ودعوت الله له !.. وما دام سيدي يذكر شبابي الزهيد فاني لارجو سيدي ان يرسمني لا كما انا الان ، وانما كما رآني قبل ان تتقدم بي السن ، وانا ــ كما شاء له كرمه ان يقول ــ لا ازال حسناء » .

«آه ايها الاستاذ ، رد الي الشباب مرة ثانية !.. اجعلني ابدو جميلة حسناء حتى ابدو جميلة لروح هذا الذي التمس نلك من اجله وان كنت غير جديرة !.. انه سيرى عمل الاستاذ ويغتفر لي عجزي عن الرقص » .

فعاد الاستاذ يطمئنها وقال : « احضري غدا ، وسأرسم لك صورة ، وستكون صورتك كما كنت حين رايتك راقصة جميلة في ريق الشباب ، وسأرسمها بعناية وبراعة كما لو كنت ارسم صورة اغنى

رجل في هذه البلاد ، فلا تشكي في ذلك واحضري »

فجاءت الراقصة العجوز في الساعة المحددة ، ورسم لها الفنان صورة على حرير ناعم ابيض ولم تكن الصورة صورتها كما بدت لتلامذة الاستاذ ، وانما كانت صورة ذاكرها كما كانت في ايام شبابها براقة العينين كالطائر ، لدنة كالخيزران ، خاطفة للابصار في ثوبها الحريري المذهب كأنها ملك ، وبسحر ريشة الاستاذ عادت اليها الرشاقة التي فارقتها واسترد جمالها المصوح الذابل نضارته وازدهاره .

ولما اتم الصورة وطبعها بطابعه وضعها على قماش من الحرير النفيس ، وثبتها بمحامل من الشربين عليها سنجات من العاج وربط بها حبلا من الحرير لتعلق به ، ثم وضعها في صندوق صغير من الخشب الابيض واعطاه للراقصة وود ان ينفحها بهدية من المال ، ولكنه لم يستطع حملها على قبولها برغم الحاجة وضغطه عليها .

واجابت وقد جرت دموعها : « كلا ، لست في حاجة الى شيء ولم ارد سوى الصورة ، ولقد صليت من اجل ذلك ودعوت وقد استجيب دعائي ، واعلم انني لا استطيع ان اطلب شيئا اكثر من ذلك في هذه الحياة الدنيا ، وانني اذا مت غير راغبة في شيء هان على سلوك طريق البوذا ، ولا يحزنني سوى فكرة واحدة وهو انني لا املك شيئا لاقدمه للاستاذ سوى حلة الراقصة هذه وهي زهيدة القيمة ، ولو اني اتوسل اليه ان يقبلها ، وساصلي وادعو كل يوم له بأن يسعد مستقبله لهذا العطف النادر الذي اسبغه علي »

فاعترض المصور وهو باسم الثغر قائلا : « كلا ، وماذا صنعت ؟ حقيقة اني لم اصنع شيئا ، وسأقبل حلة الرقص اذا كان ذلك مما يرضيك ويسعدك ، وستعيد الى ذاكرتي الذكريات العذبة لتلك الليلة التي قضيتها في منزلك حينما تنازلت عن كل اسباب راحتك لي ولم اكن جديرا بذلك كله ، ومع ذلك ابيت ان تقبلي مقابلا لذلك ، ومن اجل هذا الجميل ارى انني لا ازال مدينا لك ، وخبريني الان اين تقيمين لارى الصورة وهي موضوعة في مكانها » وكان قد اسر في نفسه ان يجعلها بمنأى عن الحاجة .

ولكنها اعتذرت بكلمات متواضعة ولم تخبره شيء ، وقالت ان محل اقامتها من الحقارة بحيث لا يليق ان يشرفه من كانت له مكانته ، ثم كررت شكره واكثرت من الانحناء وعادت ادراجها حاملة كنزها وهي تبكي سرورا .

ودعا الاستاذ احد تلاميذه وقال له : « انطلق سريعا وراء هذه المراة بحيث لا تعرف انك تتبعها واعرف اين تقيم » فتبعها الشاب دون ان تشعر بذلك .

وغاب طويلا ، ولما عاد ضحك ضحكة من يريد ان يقول شيئا لا يروق سماعه وقال : « لقد تبعت ــ ايها الاستاذ ــ هذه المرأة خارج المدينة الى قاع النهر الجاف على مقربة من المكان الذي يقتل فيه المجرمون ، وهناك رأيت كوخا يصلح لسكنى الكلاب وفي هذا الكوخ تقيم هذه المرأة ، وهو ــ ايها الاستاذ ــ مكان مهجور قذر ؟ »

فاجاب المصور : « برغم ذلك ساذهب غدا معك الى هذا المكان المهجور القذر ، ولن تشقى في سبيل الحصول على الطعام او الملبس او الراحة ما عشت »

ولما تعجب الجميع من ذلك قص عليهم قصة الراقصة ، فلم تبد لهم كلماته غريبة بعد ذلك .

وفي صباح اليوم التالي وبعد ساعة من شروق الشمس سار الاستاذ وتلميذه في طريقهما الى قاع النهر الجاف وراء اطراف المدينة والى مكان المنبوذين .

ووجدا مدخل المسكن الصغير مغلقا بمصراع واحد ، فقرع الاستاذ الباب مرات عدة فلم يظفر

بجواب ، ولما وجد المصراع غير مغلق من الداخل رفعه جانبا في خفة ونادى من النافذة ، ولما لم يجبه احد صمم على الدخول ، وفي الوقت نفسه اختلج في نفسه اختلاجا قويا ، الشعور الذي سبق ان غشيه وهو واقف في شبابه على باب كوخها الصغير المنعزل بين التلال يلتمس الدخول وقد نال منه التعب .

ودخل وحده مترفقا فرأى المرأة منطرحة وقد التفت في ثوب واحد ناحل مهلهل كالمستغرقة في النوم ، وعرف الضريح الموضوع على رف خشن ، وذلك الضريح الذي رآه منذ اربعين سنة ، وكان هناك مصباح صغير مشتعل امام نصب حبيبها .

ولكن تمثال آلهة الرحمة وحوله الهالة لم يكن هناك ، ورأى على الحائط المواجه للضريح هديته الانيقة معلقة وتحتها تمثال الالهة هيتو كوتوكوانون التي لا تدعى لأمر مرتين ، لانها لا تجيب سوى دعوة واحدة ، ولم يكن بالمنزل المهجور غير ذلك سوى اشياء وهيدة منها مرقعة امرأة حاجة وعكاز التسول والسطحية .

ولكن الاستاذ لم يتريث لمشاهدة هذه الاشياء لانه كان يريد ايقاظ النائمة ليسرها وناداها باسمها مرتين وثلاث مرات وهو مبتهج

ورأى فجأة انها قد فارقت الحياة وتعجب وهو ينظر الى وجهها لانها بدت اصغر سنا ، وعادت الى وجهها رقة غامضة وعذوبة كأنها طيف الشباب وخففت سطور الحزن ولطفتها ونعمت غضون الوجه واسلستها لمسة طيف استاذ اقدر منه .

الصفصافة الخضراء

وهي اسطورة مختارة من كتاب كويدان للفكاديون هيرن ، وهذا الكتاب مجموعة من الاقاصيص والاساطير والدراسات العجيبة ، واسم هذه الاسطورة باللغة اليابانية «« ايوياجي » ومعناها « الصفصافة الخضراء » ..

في عهد الامبراطور بومي ــ من سنة ١٤٦٩ الى سنة ١٤٨٦ ــ كان يعيش شاب من طبقة المقاتلة اسمه توماتادا في كنف هاتا كيامو يوشيمينا صاحب مقاطعة نوتو ، واصل توماتادا من مقاطعة ايشزن ، ولكنه في سن مبكرة اتخذ وصيفاً في قصر صاحب نوتو ، وتعلم هناك ممارسة الاسلحة والتدرب على الفنون الحربية تحت اشراف الامير ، ولما اشتد ساعده وصلب عوده اثبت انه جندي بارع واديب متمكن ، وظل ينعم بعطف الامير ويستظل برعايته ، وكان توماتادا دمث الاخلاق طيب الشمائل خلاب الحديث جميل المحيا ، ولذا كان اصدقاؤه يحبونه ويعجبون به .

ولما بلغ توماتادا العشرين من عمره انفذ في مهمة خاصة الى هوسوكاواما ساموتا صاحب كيوتو ، وكان رجلا عظيم المكانة يمت بصلة القرابة الى هاتاكيا مويوشينا ، ولما كان توماتادا قد امر بأن يجوز في رحلته مقاطعة ايشزن فلذلك التمس ان يرخص له الامير في زيارة والدته الارملة وهو في طريقه الى اداء رسالته ، ووافق الامير على ذلك .

وقد بدأت الرحلة في صبارة الشتاء ، وكانت الطرقات ممتلئة بالثلوج ، وبالرغم من انه كان يمتطي جوادا ايدا فقد الفى نفسه مضطرا الى السير البطيء ، وكان الطريق الذي سلكه يمر بمنطقة جبلية

قليلة المساكن متباعدة المنازل ، وفي اليوم التالي بعد ان ظل ممتطيا صهوة جواده ردحا من الزمن وجد في شيء كثير من المرارة وخيبة الامل انه لن يستطيع ان يبلغ المكان المروم للراحة الا بعد ان يمضي جوف الليل ، وكان هناك ما يدعو الى الهم والقلق لان عاصفة ثلجية شديدة اخذت تهب هبوبا متواصلا ، وتبعتها ريح صرصر عاتية ، وبلغ الاعياء من الجواد كل مبلغ ، وبينما كان توماتادا يعاني هذه المحنة رأى فجأة وعلى غير انتظار سقف كوخ من القش قائم على اكمة قريبة وحوله اشجار الصفصاف ، فحث جواده اليه في جهد وعناء ، وقرع الباب قرعا متداركا في عند وشدة ، ففتحت له الباب امرأة عجوز ، وما ان رأته حتى ارسلت صيحة عطف واشفاق ومضت تقول « لهفي عليك ايها الشاب ، كيف رضي من كان مثلك في مقتبل العمر ونضارة الشباب ان يسافر وحيدا في مثل هذه الليلة الحالكة القرة ! تنازل يا سيدي وادخل كوخنا »

فترجل توماتادا عن جواده ، وبعد ان قاد الجواد الى مظلة في مؤخرة الكوخ دخل الكوخ فرأى رجلا طاعنا في السن وفتاة يتدفأن الى جانب نيران موقدة ، ودعواه في حفاوة وترحيب الى الاقتراب من النيران المشبوبة ، ثم شرعا يدفئان له بعض النبيذ المصنوع من الارز ويعدان له الطعام ، واجترأ على ان يسألاه عن رحلته ، وفي اثناء ذلك توارت الفتاة خلف ستار ، وقد لحظ توماتادا في شيء من التعجب والدهشة انها فاتنة الجمال رائعة الحسن بالرغم من ملابسها الرثة المهلهلة ، وكان شعرها الطويل المرسل ينساب في غير نظام ، وعجب كيف ان فتاة موفورة الحظ من الملاحة تقيم في مثل هذا المكان السحيق الموحش .

وقال الشيخ المسن : « سيدي المبجل ، ان القرية التالية بعيدة الشقة ، والثلج يتساقط بغزارة ، والرياح شديدة العصف ، والطريق جد رديء . ولو انك تابعت السفر في هذه الليلة استهدفت للخطر ، وحقيقة ان هذا الكوخ غير لائق بمقامك ولا مناسب لراحتك ، ولكن مع ذلك فان الاسلم عاقبة فيما ارى هو ان تبيت الليلة تحت سقف كوخنا الحقير ، وسنعني بجوادك ونعمل لراحته .

فقبل توماتادا هذا العرض المتواضع وسر به ، لانه سيتيح له الفرصة ليتملى من جمال الفتاة الحسناء الفاتنة ، واحضر له الطعام على الفور . ولم يكن بطبيعة الحال طعاما انيقا حسن الطهو ، ولكنه كان كافيا . واقبلت الفتاة من وراء الستار لتقوم على خدمته وتناوله النبيذ ، وكانت قد ارتدت ثوبا نظيفا قماشه الخشن مصنوع من النسيج المحلي ، ورجلت شعرها المسترسل وصففته . ولما انحنت لتملأ له الكأس ازدادت دهشة توماتادا ، فقد لحظ انها اجمل من رأت عينيه من النساء ، ولمح في حركاتها رشاقة وخفة اطالتا تعجبه وحيرته ، ولكن الشيخين اخذا يعتذران اليه قائلين : « ان ابنتنا ايوياجي قد نشأت هنا وحيدة بين الجبال ، وهي لا تعرف شيئا عن آداب المجتمع وواجبات الضيافة ، ونرجو ان تسامح جهلها ، وتغض الطرف عن خشونتها »

فأجابهما توماتادا انه يخالفهما في ذلك ويعد نفسه سعيدا لقيام مثل هذه الفتاة الحسناء بخدمته ، ولم يستطع ان يحول عنها بصره بالرغم من انه لحظ ان نظراته الدائمة اليها كانت تخجلها ، ولم يقبل على الطعام ولا الشراب ، وقالت الام : « سيدي المبجل المتفضل . رجاؤنا ان تتناول شيئا من الطعام والشراب على حقارتهما ، لان الريح العاصفة الشديدة الوطأة قد اتعبتك واستنزفت جهدك » فتملى توماتادا من الطعام والشراب ما استطاع ليسر الشيخين ، ولكن جمال الفتاة كان يزداد استيلاء على نفسه حتى ملك عليه كل نواحيه ، واخذ يجاذبها اطراف الحديث ، واعجبه منطقها الرائع وبيانها

العذب وصوتها الحلو النبرات ، وخطر بفكره ان هذه الفتاة الرائعة الجمال ان كانت قد نشأت في هذه الناحية القاصية المهجورة فلا بد ان والديها كانا قديما من ذوي اليسر والنعمة ، فقد كان حديثها وحركاتها يدلان على انها من سليلات المجد وربيبات الشرف ، ووجه اليها توماتادا اخيرا بابيات من الغزل الرقيق فأجابته في غير تردد بشعر سائغ سلس عذب تبين منه انها ترحب باعجابه بها ، وكان سروره بما تضمنه شعرها من صادق العاطفة وجميل الشعور اكثر من سروره بالفن الذي اصطنعته واسلوبها في النظم ، واستوثق من انه لو طوف البلاد جميعها لما وجد عديلا لهذه الفتاة الريفية في الحسن والملاحة والرشاقة والذكاء وسرعة الخاطر وحضور البديهة . وموجز القول انها اختلبته اختلابا واستأسرته واذهلته عن كل شيء ، وهتف به من اعماق نفسه هاتف خفي ان اغتنم هذا الحظ السعيد الذي القته الالهة في طريقك ، ولا تدع هذه الفرصة تفلت من يدك ، فخاطب والديها بغير مقدمات ولا تمهيد في امر زواجه منها ، والتمس منهما الموافقة على ذلك واخبرهما باسمه ونسبه وحسبه واصله ونشأته ومكانته من صاحب ذوتو .

فانحنيا امامه معبرين عن شكرهما وعظيم تقديرهما ، ولكن بعد لحظات قصار من التردد قال الوالد : « سيدي المبجل ، انك من خاصة القوم وعليتهم ، وستزداد مكانتك سموا ونجمك صعودا ، وتنازل عظيم منك ان تتقدم بطلب يد كريمتنا ، فشكرنا لك مما لا يفي به اللفظ ، ولا يعبر عنه اللسان ، ولكن فتاتنا ريفية متأخرة متخلفة ، لم تهذب طباعها ولم تصقل حواشيها ، وقد نشأت نشأة غليظة جافة ، فهي ليست اهلا لان تصبح لك زوجة وانت من طبقة المحاربين ، والخوض في هذا الحديث امر غير مناسب ولا لائق ،

ولكن ما دمت قد تواضعت وتنازلت وشملت هذه الفتاة بعطفك واسبغت عليها رعايتك بالرغم من جفوتها وبلاهتها فنحن نقدمها لك خادمة طيعة لتكون طوع يمينك ورهن اشارتك »

وقبيل الصباح هدأت العاصفة واقبل النهار طلقا بشا وضاح الجبين ، والهاه جمال الفتاة عن جمال الصبح الاضحيان المشرق . ولكنه لم يستطع ان يتريث ، ولم يقو كذلك على مفارقة الفتاة الحسناء ، ولما اعدت معدات الرحلة خاطب والديها قائلا : « انه لصنيع خال من الشكر والعرفان الجميل ان اسألكما اكثر مما لقيته عندكما من بالغ الحفاوة وكريم الضيافة ، واني اعيد رجائي موافقتكما على طلب يد كريمتكما ، فقد اصبح من الصعب علينا ان نفترق ، وهي راغبة — اذا سمحتما لها — في ان تصحبني ، واستطيع ان احملها معي على الجواد ، واذا وافقتم على ذلك فاني ساعتبركما والدين لي ، وفي الوقت نفسه ارجو ان تقبلا مني هذا الاعتراف الهين بجميل حفاوتكما وخالص بركما بي »

وقدم لمضيفيه المتواضعين كيسا مملوءا بالذهب ، ولكن الرجل المسن بعد ان جثا على الارض وركع مرارا دفع الكيس اليه في رفق وادب وقال : « سيدي البار الرحيم ، اننا لا نفيد من الذهب في هذه الناحية ، وانتما اليه احوج في هذه الرحلة التي تقوم بها في زمهرير الشتاء ، ونحن هنا لا نشتري شيئا وليس عندنا مجال للانفاق ، اما الفتاة فقد وهبناها لك هبة حرة خالصة ، فلا تلتمس الاذن منا في حملها معك ، وقد اخبرتنا انها تود ان تصحبك وان تظل خادمة لك ما استطعت احتمالها ورضيت عنها ، ونحن سعداء لتنازلك بقبولها ، ونرجو الا تكلف نفسك اي عناء من اجلنا ، ونحن في هذا المكان

لا نستطيع ان نحضر الكساء المناسب ، واكثر من ذلك اننا متقدمان في السن ، وستفرق الايام قريبا بيننا وبينها ، وطالعها السعيد هو الذي حملك على الاعجاب بها والزواج منها »

وعبثا حاول توماتادا ان يحملها على اخذ الهبة ، ولكنه وجد انهما لا يحفلان بالنقود وانهما حريصان على ان يعهدا اليه في المحافظة على كريمتهما ويأتمناه على مصيرها ، فعقد العزم على حملها معه ورفعها فوق الجواد ، وودع الشيخين ، واعرب لهما عن عظيم شكره وبالغ تقديره ، فأجابه والدها : « سيدي المحترم ، انت احق منا بالشكر واجدر بالتقدير ، وثقتنا تامة بأنك ستحسن معاملتها ولا خوف يغشى نفوسنا من اجلها »

ولم يحسن توماتادا التبصر في العواقب ، وحملها معه الى كيوتو ، وكان لا يسمح لاحد من طبقة المحاربين بالزواج الا بعد موافقة سيده ، وكان توماتادا لا ينتظر الحصول على هذا الترخيص الا بعد انتهاء مهمته ، وكان عنده من الاسباب ما يجعله يخشى ان جمال ايوياجي الذي يسترعي الانظار قد يجلب المتاعب ويجر المشكلات ، وان حيلا قد تدبر لاخذها منه وابعادها عنه ، ولذا اجتهد في ان يحجبها عن الناس ، ولكن احد اتباع هوسوكاوا رآها في ذات يوم وعرف علاقتها بتوماتادا ، وابلغ الامر الى مسامع الرئيس هوسوكاوا ، وكان شابا في ميعة الصبا وعنفوان الفتوة مغرما بالوجوه الصباح والقدود الملاح ، فأمر باحضاره الفتاة الى قصره ، فأخذت اخذ عزيز مقتدر وحملت اليه وحزن توماتادا حزنا مقيما مقعدا لا عزاء فيه ولا سلوى ، ولكنه كان يعرف عجزه وقلة حيلته ، فليس هو الا رسولا صغير الشأن في خدمة رئيس بعيد الديار ، وهو في اللحظة الراهنة واقع في قبضة رئيس اقوى نفوذا واعز نفرا ، لا يسأل عن رغباته ولا يحاسب على اعماله ، وفضلا عن ذلك فانه كان يعلم انه قد تصرف تصرفا سخيفا ، واتى امرا ادا ، وجنى على نفسه ، واقام العقبات في سبيله ، وذلك لاقدامه على الزواج بطريقة يأباها قانون الجندية ، وترفضها التقاليد ، ولم يكن عنده سوى امل واحد ، وكان املا يائسا لا سبيل الى تحقيقه ، وهو ان ايوياجي قد تستطيع الفرار معه وتوافقه على ذلك ، وبعد تفكير طويل صمم على ان يرسل لها كتابا ، وهي محاولة خطرة ، لان الكتاب قد يقع في يد الرئيس ، ومراسلة احدى فتيات القصر جناية لا تغتفر واثم عظيم ، ولكنه اصر على المجازفة ، ونظم قصيدة تعبر عن لوعته الحرى وحزنه العميق والمه اللاذع لافتقاده اياها ومفارقته لها ، وختمها بمثل قول ابن زيدون :

حالت لبعدكم ايامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

لا اكؤس الراح تبدي من شمائلنا   سيما ارتياح ولا الاوتار تلهينا

وفي مساء اليوم الذي ارسلت فيه القصيدة امر توماتادا بالمثول بين يدي الرئيس هوسوكاوا ، فأدرك ان امره قد افتضح ، ولم يأمل ان يفلت من اقسى العقوبة وقال لنفسه : « انه سيأمر بموتي

ولكني لا احفل بالحياة الا اذا زفت الي ايوياجي ، واذا صدر الامر باعدامي فأني استطيع على الاقل ان اقتل صاحب هوسوكاوا » وتقلد سيفه وخرج .

ولما قدم قاعة الاستقبال راى الرئيس هوسوكاوا متربعا على عرشه وحوله كبار رجال الجيش في ملابسهم الفخمة وقد استولى على الجميع صمت رهيب ، ولما دنا توماتادا ليقدم شعائر الطاعة وفرائض الاحترام احس ان الصمت السائد كالهدوء المنذر المخيف الذي يسبق الانفجار وهبت العاصفة المجلجلة ، ولكن هوسوكاوا نزل فجأة في التو واللحظة من فوق عرشه واخذ الشاب من ذراعه

وشرع يردد ابيات قصيدته الباكية المؤثرة وقد سالت عبرات الامير وتحدرت دموع عينيه ، ثم قال الامير : « لقد علمت بحبكما الصادق المتبادل ، ولذا رايت ان اقر زواجكما وان اقوم في ذلك مقام قريبي صاحب نوتو ، وسنحتفل الان بهذا الزواج ، فالمدعوون حاضرون والهدايا معدة » ورفعت الاستار فرأى توماتادا كبار رجال البلاط والوجوه والاعيان وايوياجي في ملابس العرس وثياب

الزفاف ، وكانت الحفلة بهيجة ساهرة سارة ، واغدق عليهما الامير الهبات والهدايا ، وكذلك رجال القصر واعلام الدولة .

وعاش توماتادا مع ايوياجي خمس سنوات ، ولكن في ذات صباح بينما كان يتحدث اليها في بعض شؤون المنزل انطلق منها صيحة الم وشحب لونها وجمدت مكانها ، وبعد دقائق قالت في صوت خافض وهنان : « سامحني لهذه الصيحة التي انطلقت مني على غير قصد فقد فاجأني الالم ، واعلم ايها الزوج العزيز ان زواجنا قد احكمه وهيأ اسبابه قانون السببية الذي لا مناص لنا منه ــ الكارما ــ وسيقضي هذا القانون نفسه بالجمع بيننا في حيوات عدة مقبلة ، ولكن في هذا الوجود الراهن قد انتهت علاقتنا ، وفصمت عروتنا ، وتبدد شملنا ، وحم الفراق ، فصل على روحي ، وادع لي ، فاني ساقضي نحبي واسلم روحي في هذه الاونة »

فقال لها زوجها : « ابعدي هذه الظنون السيئة يا عزيزتي فانما هي وعكة طارئة ، واستريحي قليلا وسيبرحك المرض » .

فأجابت : « كلا ، كلا ، اني اعلم علما ليس بالظن ، ولا لزوم لان اخبيء عنك الحقيقة ، فأنا لست انسانا بشريا وانما روحي روح شجرة وقلبي قلبها ، والدم الذي يجري في عروق شجرة الصفصاف هو دم حياتي ، وبعض الناس في هذه اللحظة القاسية يجتث شجرتي ، ولهذا السبب لا مفر لي من الموت ، ولست اقوى الان حتى على البكاء ، فبادر الى الصلاة وكرر الدعاء » .

وانبعث منها صيحة الم ، واشاحت عنه وجهها الجميل ، وجهدت في ستره وتغطيته ، وتراءى ان جثمانها يتداعى ويتهافت في شكل عجيب ، واخذ يتساقط ويتهاوى حتى بلغ مستوى ارضية الحجرة ، ووثب توماتادا من مكانه ليسعفها ويأخذ بيدها ، ولكن لم يكن هناك شيء ، لم يبق منها سوى مجرد الثياب والحلى ، اما الجسد فقد اختفى وغاب اثره واندثرت معالمه .

فحلق توماتادا شعر رأسه ، ودخل تحت العهد البوذي واصبح من الكهنة الجوالين ، وصار ينتقل في جميع مقاطعات الامبراطورية ، ويزور الامكنة المقدسة ويقرأ فيها الادعية ، ويقيم الصلوات ، ولما

افضت به الاسفار الى ايشزن بحث عن منزل والدي حبيبته ، ولما بلغ المكان المنعزل بين التلال والاكام حيث كان مسكنهما لم يجد اثراً للكوخ ولم ير ما يستدل منه على موقع الكوخ من تلك البقعة سوى اجذال ثلاث اشجار من اشجار الصفصاف ، وكان جذلان منها كبيرين والجذل الثالث جذل شجرة ناشئة وقد قطعت فروع هذه الاجدال قبل قدومه بزمن طويل ، فشاد الى جانب هذه الاجذال نصبا تذكاريا ، وكتب عليه آيات من الكتب المقدسة ، وصلى صلوات بوذية على روح ايوياجي وروحي والديها .

اتستطيع ان تشفيني

يا دكتور ؟؟ !

من الناس الموفقين في كل شيء ، هذا ما يقال ، ولكن من يدري ، هناك مؤلفون وصحفيون لا يخطون سطرا واحدا لا فائدة منه ، وهناك سياسيون وسماسرة بورصة لا يدخلون الا في الصفقات الرابحة ، وهناك ممثلون ورماة بارعون لا يخطئون الهدف ، وهناك علماء وسع علمهم كل شيء ، وهو شرف يقتسمونه مع الكثيرات من النساء ، وهناك ضباط ناشئون ينجحون في غزواتهم النسائية ، وهناك شابات ينجحن كذلك في غزو قلوب الضباط .. هناك قوم موفقون في كل شيء ... هذا ما يقال ، ولكن من يدري ؟..

ولنقصر الحديث في هذه الاونة على الاطباء ..

اريك فان لو اسم ذائع ملء الاسماع ، وهو استاذ في الطب الباطني متمكن خبير بشتى نواحيه ومتسع ارجائه ، له عين حادة نافذة ، وعقل واضح منظم ، وحكم صائب ، وهو على صغر سنه غزير التجارب موفق في مزاولة المهنة وتشخيص الامراض ، يضاف الى ذلك انه رجل قريب الى قلوب الناس لا يفارق ثغره الابتسام ، وهو فخم المحيا وسيم واضح القسمات ، حسن القوام ، براق العينين ، صوته جلي يجمع بين العمق والرخامة ، وهو من الرجال الذين يغلب على الانسان الاعتقاد بأنهم يوفقون في كل شيء ، اذن كان حقا ما يقال عن الناس الموفقين .

ومع ذلك فان هذا الطبيب الذائع الصيت واجهته حالة حار فيها طبه ويئس من علاجها ، وحينئذ ؟.. حينئذ ماذا ؟.. حتى ابرع البارعين قد تصادفه امثال هذه الحالات بطبيعة الحال ، ولكن الشيء الذي كان يستدعي الملاحظة في هذه الحالة هو ان الطبيب والمريض لقيا نفس المصير ، فقد دخل غرفة الاستشارة المريض ، ولما غادرها بقي فيها رجل مريض .

جاء المريض الذي نتحدث عنه الى غرفة استشارة الاستاذ فان لو الخاصة ، وكان رجلا في العقد الثالث من عمره ، وكان شاحب الوجه يشكو ـ على ما يبدو ـ الارق ، وكانت يداه وراسه ترتجفان قليلا ، وكان فمه الناعم الحساس الذي يشبه فم الفتيات لا تني تعلوه ابتسامة سارة ، ولكن حركتها كانت تثير القلق ، ولما سألته المرضة في غرفة الانتظار عن اسمه اكتفى بان قال لها : « قولي للدكتور اني مريض » .

فأجابت المرضة باسمة : « ما احسبني في حاجة الى هذا القول ، فكل من يحضر هنا مريض الى حد ما ، ولكن يلزم ان اعرف اسمك وادونه » .

فأجابها وهو يبتسم طوال الوقت ، كما كانت تبتسم المرضة : « اليس الاستاذ دكتورا ؟.. اي انه يغيث الملهوف ويأخذ بيد العاني ، واسمي ليس شيئا يذكر ، ولكن اخبريه اني موجود » .

فكفت المرضة عن الابتسام ، ورأت انه مهما يكن المرض الذي يشكوه المريض فانه قد اثر في حالته العقلية ، ودخلت الى غرفة الاستشارة لتتلقى التعليمات ، فابتسم الاستاذ ابتسامة خفيفة قائلا :

« لا تشددي ايتها الاخت في الاستمساك بالرسميات ، واذا كان هذا الرجل الطيب يريد اخفاء اسمه فليكن ما اراد ، واذا كان يتصرف تصرفا معقولا في غير هذا فاطلبي اليه الجلوس لينتظر دوره ، واظن اني ساستطيع ان استخرج كل المعلومات اللازمة منه »

ولما قال ذلك ابتسم ابتسامة الواثق بنفسه ، وابتسمت المرضة ابتسامة اعجاب ، وكان كلاهما قد وجد سببا يثير الابتسام ، لان اريك فان لو كان من هؤلاء الموفقين في كل شيء .

وكانت عيادة الاستاذ البارز كبيرة ، واضطر المريض الى ان ينتظر قرابة ثلاث ساعات ، وضعفاء الاعصاب قد يشق عليهم احتمال الانتظار الطويل ، ولكن المرضة لم تلحظ اثرا للقلق في هذا المريض ، فقد جلس على مقعده بلا حراك الى جانب نافذة صغيرة وهو يحملق لا الى الشارع في الخارج وانما الى الحائط ويبتسم ، ووجدت المرضة انه غريب الاطوار ، ولما انقضت ساعة والمريض الباسم لم يكد يتحرك ولم ينطق بكلمة ولم يتناول جريدة لتزجيه الوقت ذهبت الى الطبيب ثانية وهمست في اذنه : « يا استاذ انه يبدو غريبا » .

فسألها الاستاذ ـ وكان قد نسيه ـ « من ؟.. »

فأجابت المرضة وقد استولى عليها الغضب : « من ؟.. الرجل الذي لم يرد ان يذكر اسمه ، اني اظنه ملتاث العقل ، اني خائفة »

فاجاب الطبيب في شيء من الحدة وكان مشغولا بتشخيص علة احد المرضى : « ما هذا الهراء ايتها الاخت ؟.. اسمحي لي ان امضي في التشخيص ، ودعي الرجل الطيب في حاله ما دام لا يحاول ازعاج احد ، وهذه قاعدة نافعة يجمل بالانسان ايتها الاخت ان يسير وفقها في الحياة بوجه عام »

فعادت ادراجها الى غرفة الانتظار واذناها ساخنتان من جراء توبيخ الاستاذ الرقيق ، وظل المريض جالسا بغير حراك وهو لا يكف عن الابتسام ، وكانت المرضة تلحظه عن عرض من الحين الى الحين وتختلس النظر اليه ، وكانت تتطلع الى مجيء دوره ، واخيرا جاء دوره ، ولم تستطع ان تدعوه

بالاسم ، وانم وضعت يدها بحذر واحتياط على كتفه وقالت : « انه دورك ... »
فنهض مسرعا وانحنى وقال : « حقيقة دوري !.. »
فطلب اليه الطبيب ان يجلس وبدأ بقوله : « اخبرتني الاخت انك لم ترغب في ذكر اسمك ، ولا بأس في التجاوز عن هذا الامر التافه الان ، ولكني اريد ان اعرف سنك ومهنتك » .
ونظر الدكتور الى المريض بانتباه ، ونظر المريض كذلك الى الطبيب بانتباه لا يقل شدة عن انتباهه ، وبعد دقائق قليلة اجاب :
« ليس للسن والمهنة اثر في المرض ، واي انسان قد يصيبه المرض الذي اصابني ، وانما المسألة هي هل تستطيع ان تشفيني يا دكتور ؟.. »
فأحنى فان لو رأسه وابتسم ابتسامة هادئة رقيقة وقال :
« سانظر وارجو التوفيق ، ما هي اعراض المرض ؟.. »
فاجاب المريض في بطء ولين : « ليس لمرضي اعراض .. »
فهز الدكتور رأسه ثانية هزة تنم على التسامح وسعة الصدر وتوحي الطمأنينة وقال : « حسن حسن ، ولكن كيف تنتظر .. انني استطيع ان افعل شيئا اذن ؟.. »
فأجاب المريض بلهجة جدية ولكنها مشبعة بالسخرية : « يجب عليك ان تعرف مرضي احسن مما اعرفه ، الست دكتورا ؟.. اليس واجبك ان تخفف الالام وتشفي العلل ؟.. ان الطبيب هو صديق الانسانية ، اليس الامر كذلك ؟.. فهو لا يسعى وراء جمع النقود فحسب ، وانما يرغب كذلك في الاخذ بيد الناس ، اليس الامر كذلك ؟ » .

« فساعدني يا دكتور اذا استطعت .. »
ففكر الطبيب برهة وجيزة ، ثم سأل المريض ان يتقدم الى غرفة الكشف ويخلع ملابسه ، وفحصه وجس نبضه وقام بالاجراءات والمراسيم المتبعة ، ونستطيع ان نسميها الاجراءات والمراسيم المألوفة ، لان غرضه الرئيسي كان كسب الوقت وليتمكن استدراج هذا المريض العجيب الشأن الى الكلام ، ولم يظفر منه برد الا بعد ان وجه اليه هذا السؤال : « هل انت متزوج ؟ » .
فغمغم المريض قليلا ثم قال : « كنت متزوجا »
وشفع الطبيب سؤاله بقوله : « طلقت زوجتك ؟ »
المريض : « لا .. انا ايم » .
الطبيب : « كم من الزمن مضى على تأيمك ؟ »
فترك المريض الغريب المنضدة وقصد الى ملابسه واخرج ساعته ونظر فيها واجاب : « منذ سبع ساعات وعشرين دقيقة » .
والقى هذا الجواب ضوءا كاشفا على سلوك هذا الرجل العجيب ، ولكن برغم ذلك بقي الكثير غامضا ، وقد شغلت الابتسامة التي كانت لا تفارق المريض بال الدكتور ، كما شغلت بال المرضة من قبله ، فهي لم تكن من قبيل تحريك الوجه تحريكا مضحكا لمداراة الالم وستره ، وانما كانت فيما يبدو توحي اطمئنان الواثق بالانتصار ، ومهما يكن من الامر فانه لم يقف على هذه الابتسامة العجيبة سوى بضع ثوان من وقته ، وربت على كتفي المريض في عطف واشفاق وتمتم قائلا : « حسن .. حسن .. يا صاحبي العزيز .. اني اعرف شعورك معرفة جيدة » .
فنظر اليه المريض متعجبا وقال : « آه حقيقة ؟ » . وبينما كان المريض يلبس ملابسه القى عليه اسئلة اخرى ، اجاب عنها في سرعة بغير توقف .: وعلم ان المرأة توفيت لم تتجاوز العشرين ، وانه في

السادسة والعشرين من عمره ، واستوضح سبب وفاتها ، فقال له : « التسمم من الغاز »
فساله في تردد : « حادثة عرضية ؟ » .
فاجاب : « انتحار » .
وراى الطبيب انه ليس في وسعه وليس من حقه ان يتعمق في معرفة القصة اكثر من ذلك ، فقد كان طبيبا ليشفي ويسعد ولم يكن قاضيا ليبحث المسألة ، ولقد وجد سببا كافيا لاحداث هذه الصدمة العقلية ، وبقي ان يعرف مدى الضرر الذي نجم عنها ، فطلب الى المريض ان يجلس ثانية ، واخذ ينظر اليه مدة ثوان ، وظل مستغربا امر هذه الابتسامة التي تعبر عن الثقة بالفوز ، واضطر الى ان يكبح نفسه خشية ان تصير فريسة لتفكيرات غير مثمرة ، واخيرا قال : « نعم يا سيدي العزيز ، لقد كان الفحص العضوي لا لزوم له ، ومهما يكن فاني لم اجد شيئا غير سليم ، ولكن حالتك العقلية بطبيعة الحال ليست على ما يرام ، وساعطيك جرعة ملطفة للأعصاب ومنومة ، وافضل ان تذهب الى مصحة ، لان .. »
وامسك عن الكلام وهو ينظر الى الايم في عطف وبنظرات نافذة مدة دقائق قلائل ثم واصل تفكيره واضاف قائلا : « لا اخفي عنك انه يبدو لي انك في حالة تبعث على اليأس ، اليس لك احد ليحضر ويعني بك في اثناء هذه الايام الاولى القاسية ؟ »
فغض المريض طرفه ، ثم رفعه ثانية وواجه بنظراته عيني الاستاذ وسأله : « لماذا لا تعني بي انت نفسك ؟.. فأنت في مركز يمكنك من ان تكون اقدر من غيرك على القيام بهذا العمل ، الا ترى ذلك ؟.. فانت طبيب ، وهي مهنة شريفة ، وانت ممن يهبون حياتهم لخدمة الغير ، ويشعر الانسان بانك اهل للاعتماد عليك ، ويعرف الانسان انك لا تضر احدا وانك لا تفعل الا الخير » .

فلم يقاطعه الاستاذ ، وجال في فكره ان هذا الشاب المسكين ربما كان وحيدا وفي حاجة الى من يجانبه الحديث ، والله يعلم لماذا وقع اختياره علي ، ولا ريب انه في حاجة الى جرعة منومة وساعطيها له ، ولا بد له من النوم ، وربما كان الاحسن ان ادخله مستشفى او مصحة للاعصاب ، ولكن هذا ليس سهلا ولا ميسورا ، فما الذي استطيع ان اعمله من اجله ؟..
وفكر في الامر ، وبالرغم من تردد داخلي خاص قال له اخيرا : « ربما يسرى عنك ويلطف ما بك ان تحيطني علما بظروف المأساة واسبابها ؟.. انني غريب عنك ، ولكني اعطف عليك ، وفضلا عن ذلك فنحن الاطباء نقوم الان الى حد ما بدور الاب الذي يتلقى الاعتراف » .
ولم يكد يتم هذه الكلمات حتى اعتراه الاسف لانه قالها ، فهو لم يكن طبيبا نفسيا ، وفي تشجيعه للشاب على الاعتراف قد تجاوز حدوده وعدا طوره ، وربما كان الاعتراف مؤلما للشاب ومثيرا لاعصابه ، ولكنه قد قدم الاقتراح ولم يعد يملك سحبه ، وقد احدث تأثيرا عجيبا ، فقد اختفت الابتسامة الثابتة بغتة ، وادرك فان لو ان كلماته قد راخت التوتر ولطف الحدة ، وانتظر هو الجواب في قلق ولهفة ، واستغرق قليلا من الوقت ، واخيرا اجاب :
نعم ... بطبيعة الحال اخبرك ، ولو انني اشعر بالخجل ، والحادث في ذاته لا يستحق الخجل من ناحيتي ولا من ناحيتها ، وانما اشعر بالخجل لانني ارى المسألة عادية جدا ، وسترى انك سمعت امثالها مئات المرات قبل ذلك ، وحينما انصرف ستهز كتفيك وتراها محزنة فاجعة ، ولكنها برغم ذلك عادية ، الا ترى ذلك ؟ » .
فقطب فان لو جبينه على غير قصد منه ، واثار اشمئزازه اهتمام المريض بتأكيد ان القصة عادية جدا ، وفجأة اخذ الرجل يترك في نفس الدكتور اثرا سيئا ، وبدا له انه من بعض الوجوه ختال مخادع

مثل بعض المدخولي العقل ، وانه كان الاجدر به ان يتخلص منه ، وقد اكتفى بأن قال له في لهجة اقرب الى الخشونة والشدة : « لست معنيا بالقصص العجيبة ، وقد طلبت اليك ان تروي قصتك لعل ذلك يخفف ما بك بوجه من الوجوه » .

فظل المريض بضع دقائق صامتا مفكرا ، ثم هدأ جأشه وحنى رأسه وقال : « نعم .. حقيقة انها سترفه عن نفسي الى حد ما ، لقد تزوجتها منذ ثلاث سنوات ، واستطيع ان اقول اننا كنا سعداء ، فلم اكن افكر في شيء غيرها ولا اعتقد انها كانت في بادىء الامر تفكر في احد غيري .. نعم كنا سعداء ، ولكن في السنة الماضية اضطررت الى تركها مدة طويلة منفردة . فتعرفت الى رجل لا اعرفه واحبته ، واتظن انها كانت تستطيع غير ذلك ؟ اتظن ان الانسان يوجه اليها اللوم ؟ »

فأجاب الاستاذ في تردد : « بطبيعة الحال لا يمكن ان نلام على هذا الشعور ، فهو شعور ينشأ من نفسه دون ان يستدعي ، والمسألة هي كيف يسيطر عليه الانسان » .

فحنى المريض رأسه واخذ يقول : « تفكيرك مثل تفكيري ، ومهما يكن من الامر فانها لم تسيطر على اعصابها ولكن استمع الي !.. هناك ظروف مخففة . فهو رجل بارز له مكانة وله جاه عظيم اذا قيس بشخصي الذي لا شأن له ، وفضلا عن ذلك فهو رجل قسيم وسيم ، وانا كما ترى لا ادعي شيئا من هذا القبيل ، وفوق ذلك كله هو رجل لا يتورع عن شيء ليصل الى غرضه ، ولا يدخر جهدا ولا حيلة او خدعة ، وهو بارع في هذه الناحية براعته في كل شيء آخر ، ولم يكن يضمر لها حبا صادقا ـ وقد تركها تفهم هذا فيما بعد ـ ولكنها كانت جميلة فائقة الجمال . اتحب ان ترى صورتها ؟ »

فرفض الاستاذ باشارة خفيفة ، ولكن الشاب كان قد اخرج الصورة ودفع بها الى يد الاستاذ ، فنظر اليها واستبقاها ، وسكت المتكلم دقائق قليلة ثم استرسل يقول :

« حقيقة .. اليس كذلك ... انها بارعة الجمال ، فليس غريبا ان يكون قد احبها ، ولكن لماذا لم يتركها في سلام ؟.. عنده كثيرات غيرها .. ولكن اتعرف قصة شاة الرجل الفقير ؟.. انها قصتي »

ورفع حاجبيه ، وبان في وجهه الالم الساخر ، وقال مستفهما :

« ولماذا يا دكتور لا تقدم لي كوبا من الماء ؟.. فأنت بوصفك رجلا طبيا وصديقا للانسانية يفهم طبيعتها لا بد تدرك انني مضطرب قلق ، هل اثرت فيك قصتي الى حد بعيد ؟.. اصغ اذن الى بقية القصة !.. ولست في حاجة الى ان انكر لك ان الرجل الذي اتحدث عنه ما عتم ان ترك فريسته ، وكان هذا منتظرا ، فقد كانت مجرد وهم جميل قد مر بخاطره وحلية صغيرة في الحياة العاطفية لهذا الرجل العظيم ، اما هي فكانت ترى الامر على خلاف ذلك ، اتعرف كيف كشفت الموضوع ؟.. اني لم اكشفه ، فقد جاءتني واخبرتني بالقصة جميعها ، وكان هذا عملا امينا . وان لم يكن امينا الامانة كلها ، فقد تملكها حبها لهذا الرجل وحطم ارادتها وقضى على احتياطها ومحا عطفها علي . اجتاح كل شيء ، فلم تستطع ان تحتفظ به لنفسها ، وكان في حاجة الى من تثق به . ولم يكن هناك غيري » .

وافرغ ما في الكوب واستمر في نفس اللهجة المعجلة المرتجلة : « اما وقع هذه المسألة بنفسي في بادىء الامر فمما لا يكاد يستحق العناية ، ومسألة شاة الرجل الفقير التي ذكرتها تعين على الفهم ، ولكن ما وراء ذلك ؟.. وكانت تشتاق وتتلهف وتتالم وتحلم وتمعن في الحب . ولم اكن انا المحبوب ، وكتبت اليه ولم تتلق ردا ، وذهبت لتراه ولكنه لم يلقها ، وقد اشركتني في خيبة املها وعثرات حظها هذه اليائسة المسكينة ، وربما كانت قاسية علي في ذلك بعض القسوة ، فهل كانت غلطتها ؟.. لا يمكن اعتبارها مسؤولة عن عملها ، ولم يكن لها غيري فغلطة من اذن ؟.. وانت بمعرفتك للطبيعة البشرية وحبك للانسانية تستطيع ان تحدد المسؤولية وتعرف على من تقع ، وهل كانت الغلطة غلطتي ؟.. اكان

يجب علي ان افعل شيئا ؟.. اكان علي ان اطلب طلاقها وارد اليها حريتها ؟.. ولكن يا دكتور ماذا كان يصير من امرها حينذاك ؟.. فلم يكن لها غيري ، اتظن ان الرجل العظيم كان يتزوجها ، وهو الذي عنده كثيرات غيرها !.. وهو الذي كان قد ضاق بها وكان لا يريد ان يحمل نفسه ادنى مشقة من اجلها حتى حينما كان يستطيع ان يقوم بدور العاشق الخفي ؟.. اتظن انه كان يتزوجها ؟.. من المؤكد انك لست سخيفا الى هذا الحد يا عزيزي الدكتور ؟..

فماذا كان علي اذن ؟.. اؤكد لك انني فكرت في الامر كثيرا واطلت التفكير ، واخيرا رايت ان اذهب بنفسي الى الرجل لعلي اجد طريقة لتسوية الامر فيما بيننا وتيسيره وتذليله جهد الطاقة ، فهو رجل مكتمل الرجولة وشخصية بارزة كذلك ؟.. ومن المؤكد انه يمكن اعتباره مسؤولا عن اعماله ، فهو لا يستطيع ان يفسد حياتين ثم ينطلق هاربا كالطفل الصغير الذي سرق الفاكهة ، اذهب اليه ؟.. صممت على ذلك وربما اكون قد استشعرت النبل حينما عقدت النية على ذلك ، ولكن شخصا لا خطر له ولا شأن مثلي يندر ان يكون نبيلا ، انه تنقصه القوة على ذلك ، يلزم ان يكون الانسان رجلا عظيما .

وقد ارتكبت خطأ جسيما في اول الامر ، لقد افضيت اليها بما انوي عمله ، فارادت ان تمنعني ، ارادت ؟.. لم ترد المسكينة على الاطلاق !.. وانما ادعت وتظاهرت ، ولكن الامل كان يهز نفسها هزا ، وترى يا دكتور انه بالرغم من انها اصبحت لا تنطوي على شيء من الحب وتثق به . وشاهدت سرورها ، واعترف انه امضى نفسي وبلغ مني مبلغا واثارني . ولكني ملكت نفسي ، ثم ارتكبت خطأ آخر غير مغتفر فقد قلت لها : « اما اني ساحمله على المجيء اليك ، واما اني لا اعود اليك ، فان حياتنا في الايام الاخيرة اصبحت مما لا يمكن ان تستمر » .

ونهض المريض فجأة وانحنى على المكتب واخذ الصورة من الاستاذ وادناها من فمه وقبلها ووضعها في جيبه ، ثم قعد ثانية متعبا قلقا ، واسترسل في الحديث ، ولكن صوته لم يعد رقيقا خاليا من الكلفة ، وانما اصبح ينم على الاعياء والقلق ، وقال :

« لا ، لم اقدر على ذلك ولم استطعه ، ولقد بلغت في تقدير قوتي وشجاعتي وتركت المنزل في اليوم السابق للامس ، وطفت بالناحية التي يقيم بها اليوم جميعه ، ولم اذهب اليه ولم استطع ذلك . ومن ناحية اخرى لم استطع العودة الى المنزل ، ولم اقو على احتمال رؤيتها او حتى سماع صوتها ، وذهبت الى احد الفنادق ، وكنت اعرف انها شديدة اللهفة وتعاني الاما مبرحة ، ولكني رايت ارجاء الامر الى اليوم التالي ، وقلت في نفسي : « غدا سيكون يوم سعادتك العظيمة فاحتملي الالم اليوم » فهل كنت مستمتعا بفكرة انها تعاني الالم وتكابد الغصص ؟.. نعم يا دكتور بطبيعة الحال كنت مستمتعا بذلك » .

واخرج الصورة ثانية ، والقى عليها نظرة سريعة وردها واسترسل بلهجة اسرع وبصوت اقوى : « حسنا يا دكتور . امس تكررت نفس القصة ، ولم استطع !.. اخذت اطوف واطوف حول المنزل حتى اصابني دوار ، واخذ العرق يتصبب مني ، وطلبته في التليفون حتى استطيع ان اسمع صوته واكون فكرة عن شخصيته ، فرد علي الخادم ، ولكن لما حضر هو نفسه وضعت السماعة وخرجت من صندوق التليفون ، ولم اجترىء حتى على سماع صوته . نعم انت تقدر يا دكتور ، فهو في هذه الحالة منافسي الناجح . هذا الرجل العظيم !.. واخيرا حشدت قوتي العقلية والعضوية وعملت على دخول المنزل وجشأت نفسي وانا اصعد درج المنزل واضطررت الى العودة .

وكان اليوم التالي مثل اليوم الاول فعجزت ولم استطع ، ونكل عزمي وانثنيت ، وكنت اسبح في الفضاء بينهما . بينه وبينها ، وفي صباح اليوم وخزني ضميري فلم استطع ان اتركها في شك من

امرها وفي انتظار مقلق ، كان علي ان افاتحها واكاشفها واناقشها وابين لها العلل والاسباب ، ولكنك تعلم الآن اني ذهبت متأخراً . ومن هذه الناحية لا يمكن عمل شيء ، فلست تستطيع شفاءها ولا تخفيف ألمها . لقد قامت بذلك هي نفسها . اما من ناحيتي فعندي مشكلة لافكر فيها ، وهي لغز يشغل ساعات فراغي وليالي الساهدة الساهرة ، فمن في الواقع المسؤول عن موتها ؟.. وهل هي غلطته او غلطتي ؟.. وقد يقال ان كلينا مخطيء او اننا نحن الثلاثة مخطئون . فهي ليست خالية من اللوم هذه الصغيرة المسكينة ، ولكن من القاتل الحقيقي ؟.. اتستطيع ان تجيب عن ذلك وانت العالم بالطبيعة البشرية وانت صديق الانسانية العظيم ؟ » .

ووقف المريض .

« يلزم ان انصرف . لقد استنفدت صبرك ، وقد اطلت واسهبت ، وقد تعمدت ذلك لانني اردت ان اعطيك فكرة واضحة عن شعوري ، واذا قام الطبيب بفرائض مهنته السامية فلا يمكن ان يعد ذلك منه اسرافا في يقظة الضمير والشعور بالواجب . والان اعيد عليك هذا السؤال ، وهو : « هل تستطيع ان تشفيني .. يا دكتور ؟ » .

وساد الصمت ، وتقدم الرجل المريض من الاستاذ بضع خطوات ، ونظر اليه مدة ثوان بعينين هادئتين متعبتين وقال :

« يا دكتور .. ايمكن ان افضي اليك بشيء . يبدو لي انك في حالة عجز ، انا كذلك في حالة عجز ، ولكني اليوم لم اطف بالحي ، واليوم لم اعد ادراجي بعد تسلقي السلالم ، اليوم اوتيت الشجاعة ، اليوم اجترأت على ان انظر الى عينيك انت ايها العظيم والرجل الكبير » .

وغادر الغرفة مريض وبقي فيها مريض متراكم الاوصال على مقعد ضخم .

فكر في الامر مرتين

في احد ايام شهر ديسمبر سنة ١٩٣٦ حملت احدى عربات قطار البضاعة الخارجة من روما تجاليد الكاتب الروائي والمؤلف المسرحي بيراندللو الى جيرجنتي بجزيرة صقلية مسقط راسه ومهد طفولته ليدفن في مقابر الفقراء بها ، وكان هذا الدفن عملا بوصيته التي طلب فيها الا يدعى الى جنازته صديق او قريب ، وهذه الوصية لا تدل على زهده في اشياء كثيرة مما يحفل به الناس فحسب ، بل تدل بوجه عام على نظرته للحياة واتجاهه في الكتابة والفن ، وقد كانت هذه النظرة التي اوحت اليه بمثل هذه الوصية ثمرة تجاربه المرة في الحياة وما انتابه من ارزاء وآلام وكذلك نتيجة لشخصيته ومزاجه .

وكان بيراندللو يجيب الذين يسألونه عن نوع ادبه بانه كاتب فكه ، ولكن فكاهته لا علاقة لها في الواقع بالفكاهة المرحة الباسمة المألوفة ، وانما هي تقارب تلك الفكاهة العابسة الساخرة التي مثلها في القرن الثامن عشر الكاتب البريطاني الكبير سويفت ، على ان فكاهة بيراندللو لها طابعها الخاص ، ومعظم الكتاب الفكهين يحصرون انفسهم في نطاق استغلال ادراكهم لتناقضات الحياة والبحث عن عنصر الاضحاك المستتر خلف الدموع ، او الحزن الموجع الكامن وراء الضحك والابتسام ، والسخرية الصادقة في راي بيراندللو تنشأ من مجرد شعور الانسان بوجوده ، واساسها الركين هو ان الانسان لا يحيا حياته فحسب ، وانما يفكر فيها كذلك ويتاملها ، فالانسان في الحياة يقوم بتمثيل احد الادوار ، وهو في الوقت نفسه احد النظارة ، فهو يمثل ويراقب نفسه ويلاحظها وهي تقوم بتمثيل دورها ، وهذا هو الفارق العظيم بين الانسان وسائر الخليقة ، فالشجرة او الحيوان او الحشرة تعيش

خاضعة لقانون وجودها وتسيطر عليها الظروف والملابسات التي تؤثر فيها وتوجهها ، ولكن الانسان لا يحيا حياته فحسب ، وانما يكون الافكار عن نفسه وحياته ، ومجرى الحياة يتدفق بلا انقطاع ، ويتغير من لحظة لأخرى ، وذلك على حين ان عقل الانسان يعجز عن ملاحقة الحياة في سيرها السريع وفيضها المستمر ، والانسان يعتقد ان الصورة التي كونها لنفسه صورة صادقة امينة « طبق الاصل » وذلك في نفس اللحظة التي تكون الحياة قد تغيرت فيها تغيرا شاملا عميقا ، ومن ثم ينشأ ازدواج دائم بين الحياة نفسها والصورة التي يكونها الانسان عنها وبين الواقع في ذاته وفكرة الانسان عنه .

فكيف الخلاص من اصفاد هذا الازدواج ؟ .. ليس هناك سوى سبيلين للخلاص ، فالانسان اما ان ينبذ التفكير في الحياة ويكتفي بان يعيش كالحيوان والنبات ، واما ان يهمل العالم الخارجي ولا يبالي الا بافكاره التي ينتجها عقله ، وهذا السبيل هو طريقة المجانين الذين لا يلتفتون الى غير الافكار المستولية عليهم الثابتة في عقولهم .

وروايات بيراندللو التمثيلية وقصصه واقصوصاته تدور جميعها حول هذا الازدواج ، وعند بيراندللو ان الشعور بالازدواج الكامن في اساس الفكاهة هو الرؤية الصادقة للحياة البشرية ، فالانغماس في الفكاهة هو الامعان في الواقعية الصادقة الصارمة ، وهو يعتقد ان طريقته لا تشوه الحياة ولا تمسخها ولا تزينها او تصقلها ، وانما تعرضها عارية مجردة ، لأنه يرينا ذلك الازدواج الدائم بين الحياة وادراك الانسان للحياة ، وهذه الفلسفة البيراندللية تتفق في جوهرها مع فلسفة برجسن ونظريات فرويد ، وقد لمس بها بيراندللو صميم المشكلة التي تشغل بال مفكري العصر الحديث ، وهي مشكلة تعدد الشخصيات البشرية واستحالة التفاهم بين الكائنات الانسانية ، وصعوبة التمييز بين الاوهام والحقائق ، وبيراندللو يشك في وجود الشخصية لأن كل فرد ملتقى الاضداد ومجمع النقائض ، والكيان الفردي مظهر قلب اكثر مما هو حقيقة ثابتة ، وكل انسان جزيرة قائمة لا تستطيع ان ترسو عليها او ان تطأ ارضها ، وكيف يستطيع الانسان ان يثبت ويتماسك وكل ما حوله في تغير دائم ؟ .. وكذلك جميع ما بداخل نفس الانسان ما ينفك يتغير ، وقد كان بيراندللو في حياته يكره الاعلان والدعاية لأنه كان يعلم ما في ادبه من مرارة وصرامة ، ولكن الرجل لم يكن هادما ؛ وانما كان يرى الحياة تخدعنا وتفر من ايدينا ، ويعتقد ان شقاء الانسان مصدره بلادة عقله وجمود آرائه ، والانسان لا يستطيع ان يمد رواق سلطانه الا في مدى حد محدود ، فالماضي ليس في حوزته ، والمستقبل بعيد عن مناله ، وغاية جهده ان يجعل الحاضر ملائما له ، شريطة ان يستجيب لمطالب الحياة التي لا تنى تتغير . ولا يدوم على حال لها شأن ، وهذا هو ضوء الامل الوحيد الذي يشرق بين اطلال الحياة وخرائبها عند بيراندللو والاقصوصات الآتية ــ في اعتقادي ــ امثلة لا باس بها في بيان اسلوبه وسخريته اللاذعة وكذلك عطفه وانسانيته .

منذ الأيام الثلاثة الاخيرة كان ينقص بيت الاستاذ اجستينوتوتي الهدوء والابتهاج اللذان اصبح يعتبرهما حقا له .

ولا يستطيع انسان ان يصف الاستاذ بانه كان حسن الصورة حتى بالقياس الى سنه التي شارفت السبعين ، كان ضئيلا ضاويا حاشا راسه الاصلع الكبير ، وكان جسمه غير متناسب على الاطلاق مع ساقيه اللتين كانتا تشبهان ساقي العصفور ، ولم يكن الاستاذ توتي مخدوعا من ناحية حقيقة منظره الخارجي ، ولم يتصور لحظة واحدة ان زوجته الصغيرة مادلينا التي لم تكن قد بلغت السابعة والعشرين تحبه لشخصه فحسب .

والواقع انه قد آثر الزواج من فتاة صغيرة فقيرة يستطيع ان يرفع مكانتها ، فقد كانت ابنة بواب بالمدرسة العليا فاصبحت زوجة استاذ التاريخ الطبيعي بهيئة التدريس الدائمة ، وكان سيصبح بعد اشهر قلائل مستحقا للمعاش الكامل ، ولم يقتصر الامر على ذلك ، فقد كان رجلا ميسورا ، اذ جاءته وصية غير منتظرة منذ عامين ، وهبط اليه مبلغ مائتي الف ليرة كما ينزل المن من السماء ، وذلك بعد موت اخ له سافر الى رومانيا منذ سنوات كثيرة ولم يتزوج .

ومهما يكن من الامر فان الاستاذ توتي لم ير ان هذا كان يجعله اهلا لانتظار السرور والابتهاج والسكينة في ارجاء المنزل ، وكان فيلسوفا ، ولذا لم يغب عنه ان زوجته الحسناء الصغيرة تحتاج الى شيء اكثر من ذلك .

ولو كان وقع على هذه الثروة قبل الزواج لكان من حقه – ربما – ان يطلب الى مادلينا ان تصبر قليلا ، فانه لن تنقضي مدة طويلة حتى يمكنها موته من ان تلقى خير العوض عن التضحية التي قامت بها بزواجها من شيخ فان مثله ، ولكن مما يؤسف له ان المائتي الف ليرة لم تأت الا بعد عامين من زواجه ، وكان عند الاستاذ توتي من الفلسفة ما جعله يتحقق من ان مثل هذا المعاش الذي سيتركه لزوجته ليس تعويضا كافيا للتضحية التي قدمتها بقبولها الزواج منه .

ولما كان الاستاذ توتي قد تساهل مع زوجته ما وسعه التساهل واغضى عنها ورخص لها فلذلك صار يعتقد ان من حقه عليها ان تملأ بيته دعة ومرحا ، وقد جاء هذا الميراث النفيس ليضاف الى ما عنده .

وكان مما يجعله اكثر انتظارا لذلك وتوقعا له كونه رجلا جم الحنان طيب القلب ، فهو لم يكتف بان يكون محسنا الى زوجته – وانما اراد ان يكون كذلك محسنا الى .. – نعم الى ... اليه ايضا ، لصاحبه جاكومو الصالح الذي كان احد تلامذته الواعدين في المدرسة العليا ، وكان شابا حسن السلوك يغلب عليه الحياء ، ولكنه كان رقيق الشمائل جميلا له عقيصة من الشعر كالتي يراها الانسان في صورة الآلهة .

نعم حقيقة ان الاستاذ الشيخ اجستينوتوتي قد فكر في كل شيء ، وقد كان جاكومينو دليزي عاطلا عن العمل ، وكان في حالة شديدة من الانقباض والكمد ، وكاد يفقد شجاعته وتخور عزيمته ، ولذا الحقه الاستاذ توتي بوظيفة في المصرف الزراعي الذي وضع فيه مبلغ المائتي الف ليرة التي ورثها .

وكان في المنزل كذلك طفل عزيز محبوب – كان الاستاذ يتفانى في ارضائه وتدليله ، بل كان له العبد المحب المطيع ، وكانت المحاضرات اليومية في المدرسة العليا تبدو له طويلة الامد غير محدودة لشدة تطلعه الى الساعة التي يستطيع فيها ان يهرول الى المنزل يلبي نزوات هذا الطاغية الصغير ويجيب مطالبه ، وكان في وسعه بعد ظفره بالميراث ان يقدم استقالته ويعتزل الخدمة دون ان ينتظر بلوغ معاشه الى اقصاه ، وكان يستطيع حينذاك ان يفرغ للطفل ويوقف وقته جميعه عليه ، ولكنه لم يكن يحب ان يفكر في ذلك ، وحقيقة ان منصب استاذ كان دائما يحمله الهم ويجشمه المشقة ، ولكن ما دام قد نهض باعبائه فليحمله حتى النهاية المرة ، وسيرتكب خطيئة لو انه ترك حقه في المعاش الكامل يفلت من يديه ، وقد تزوج لهذا السبب نفسه حتى يمكن بعض الناس من ان يفيدوا مما كان مصدر هم دائم له طوال حياته .

وقد تزوج تلبية لهذا الدافع وحده ، وهو ان يكون محسنا لفتاة ناشئة فقيرة ، وكان نصف حبه لزوجته حبا ابويا ، واصبح حبه لها اكثره ابويا بعد ان ولدت طفلها الأول ، وكان يُفضل ان يدعوه الطفل « جدي » بدلا من « بابا » فقد كان يؤلمه ان يسمع هذا الزيف من فم الطفل ومن بين شفتيه البريئتين ، وكان على ما يبدو يرى فيها اهانة وانتقاصا لحبه للطفل . ولكن لم يكن له حيلة في الموضوع

فقد كان عليه ان يقبل نيني عندما كان يدعوه « بابا » ولو ان استعمال هذا اللفظ كان يثير ضحك الناس بطريقة خالية من الرفق والاشفاق ، وكيف يستطيع هؤلاء الناس الاشرار ان يفهموا هذا الحب الرقيق الذي يشعر به توتي ويضمره للطفل الصغير ؟ .. وكيف يشعرون بسعادته وارتياحه للنعم التي اغدقها ولا يزال يغدقها على امرأة وعلى شاب لطيف ظريف وعلى نفسه ايضا ـ نعم حقيقة على نفسه ! لأنه بهذه الطريقة كان يستطيع ان يستمتع بالسنوات الباقية له في حياته ، وذلك بان يقضيها في جماعة مرحة باسمة راضية ، وان يكون الى جانبه ملاك صغير في خلال المرحلة النهائية من رحلته الى القبر .

ليضحك الناس ملء اشداقهم ما شاء لهم الضحك .. هؤلاء النظارة الخبثاء ... فمن السهل ان يضحك الناس على هذا النمط .. ولماذا لا يضعون انفسهم مكانه ليفهموا الموقف ؟ .. وهم يستطيعون ان يروا المضحك والأكثر من المضحك وهو الغريب والشاذ وغير المالوف .. لأنهم لا يستطيعون التغلغل الى المشاعر ولكن ماذا يعنيه ما دام هو سعيدا .. !

ولكن لسوء الحظ توالت الايام الثلاثة الاخيرة ...

فماذا عسى ان يكون قد حدث ؟ .. كانت عينا مادلينا وارمتين وقد احمرتا من البكاء ، وكانت تشكو صداعا ولا تريد ان تبرح غرفتها .

وتنهد الاستاذ توتي وهو يهز راسه شان المجرب الطبن والعارف الاريب : « آه من الشباب ! الشباب ! » ثم قال وهو يبتسم ابتسامة حزينة : « انها سحابة صيف .. انها عاصفة عارضة »

واخذ يطوف بالمنزل مستصحبا نيني وهو قلق نافر ملهوف كرب . لأنه ــ بعد كل شئ ــ لا يستحق ان يعامل هكذا من زوجته ومن جاكومينو ، والشبان لا يعدون الايام لأن امامهم اياما كثيرة ، ولكن فقد يوم واحد عند الشيوخ الطاعنين في السن ضربة قاسية ، وقد تقضت ثلاثة ايام منذ هجرته زوجته واعرضت عنه وتركته في حالة سيئة شاعرا بانه هالك في عقر داره كالذبابة التي طاح راسها ، وقد مضت ثلاثة ايام على آخر مرة جرى في سمعه صوتها العذب وهي تغني اغنيات قد عرفت كيف تجيد غناءها وتسيطر على انغامها في لباقة ورقة ، وتصرمت ثلاثة ايام منذ غمرته بتلك الالتفاتات اليسيرة التي الفها وتعودها .

وكان نيني جادا عابسا كان يدرك ان « ماما » ليست في حالة تسمح لها بالعناية به ، واخذ الاستاذ ينتقل به من حجرة الى اخرى ، وكان هو نفسه من القصر بحيث لا يكاد يضطر الى الانحناء وهو يقتاد الطفل بيديه ، ورفعه ليجلس الى البيانو ، وعزف عليه بعض النغمات ثم تركه متثائبا شامخا بانفه معرضا وجلس واخذ نيني على ركبتيه ليمكنه من ان يلعب لعبه راكب الحصان الخشبي ، ثم انتصب واقفا وقد اشتد شعوره بما يخالجه من الهم وما يحيط به من البؤس . وقد حاول ست مرات او سبع مرات ان يغري زوجته بالكلام عن سبب ما الم بها من التعب وما اصابها من الهم « هل تشعرين بهم وتعب ؟ .. هل تشعرين بانك في حالة سيئة جدا ؟ .. » .

ولكن مادلينا عجزت عن ان تفضي اليه بشيء ، وبكت وطلبت اليه ان يقفل درف الشرفة الخارجية وان يبعد نيني عنها ... وقالت انها ترغب في ان تترك منفردة وان ترقد في الظلام .

هل تشعرين بصداع ؟ ..

مسكينة هذه الفتاة ، لقد اصابها صداع شديد . لا بد ان الخلاف كان شديد الاحتدام .

وذهب الاستاذ توتي الى المطبخ ، وحاول ان يدنو من الخادم ليحصل على بعض المعلومات ، ولم يكن يستطيع مكاشفتها في صراحة ووضوح ، لأنه كان يعرف ان الفتاة لم تكن في صفه ، ففي خارج

المنزل كانت تبسط فيه لسانها بغير تورع وتسخر منه سخرية غير كريمة ولا لائقة كما كان يفعل كل انسان من هؤلاء الحمقى الاغبياء ـ في نظر الاستاذ ـ الذين كان يجب ان تكون معرفتهم خيرا من ذلك .

ولما عجز الاستاذ توتي عن الاهتداء الى شيء من الكلام مع الخادم اتخذ قرارا فيه بطولة وجرأة ، وصحب نيني الى « ماما » وطلب اليها ان تلبس الطفل احسن ملابسه ، فسألته مادلينا : « لماذا ؟ »

« اني اريد ان استصحبه في رياضة قصيرة ، فاليوم عطلة والطفل المسكين قد اسأمه البقاء في المنزل » .

فلم ترحب « ماما » بالفكرة ، فقد كانت تعرف الاسلوب الخالي من الرحمة الذي كان يتبعه الناس في الضحك عندما كان يطالعهم منظر الاستاذ الشيخ وهو يسير مع الطفل يدا في يد ، بل كانت تعرف انهم في بعض الاوقات يمعنون في الاستهزاء الى حد ان يقولوا في سخرية متوقحة : « ان ابنك يشبهك ان الشبه بينكما شديد »

فاصر الاستاذ توتي وقال : « انها رياضة قصيرة للتسلية والترفيه عن النفس » .

وأخذ الطفل الى منزل جاكومينوليزي .

وكان الشاب يعيش مع اخت له تكبره بسنوات قلائل ، وكانت له في ايامه السالفة بمثابة الوالدة ، وكانت السيدة اجانا شاكرة للاستاذ توتي عطفه على اخيها ، وفي الوقت نفسه كانت تجهل الجهل كله اسباب ذلك العطف ، وكانت امرأة متدينة تقية ، ولذا لما علمت جلية الامر صار الاستاذ يبدو لها شيطانا في صورة انسان ، فقد استغوى اخاها ومهد له سبيل الخطيئة .

وبعد ان دق الاستاذ جرس الباب وقف ينتظر في الخارج ومعه الطفل ، وطال انتظاره وقد جاءت السيدة اجانا ونظرت من ثقب الباب وهرولت مسرعة ، ولا شك في انها ذهبت لاخبار اخيها بانه بالباب وانها ستعود بعد هنيهة لتقول له انه غير موجود بالمنزل .

واخيراً ظهرت ... وتلقته بفتور شديد وتجهم وعبوس وقد ارتدت ثيابا سوداء ، وكانت حول عينيها دوائر دكن ، وكانت بشرة وجهها تشبه الشمع ، وفي اللحظة التي فتحت فيها الباب هاجمته وهي ترتجف من شدة الانفعال قائلة :

« ارجوك المعذرة .. ما معنى هذا كله ؟ .. ايبلغ بك الامر ان تحضر لتراه في منزله ؟ ... وما هذا الذي ارى ... لقد احضرت الطفل الى هنا ايضا ؟ .. » .

ولم يكن الاستاذ توتي ينتظر هجوما من هذا النوع ، فعرته الحيرة ، ونظر الى السيدة ثم الى الطفل ، وعلت وجهه ابتسامة ، وتعثر في الحديث : لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. وما هذا ؟ .. الا استطيع الحضور ؟ ..

فابتدرته قائلة في صوت خشن خال من العطف : « ان جاكومينو ليس في المنزل » .

فقال الاستاذ توتي وقد انحنى انحناءة يسيرة : « حسن جدا ... ولكن انت يا سيدتي ... ارجوك الا يغضبك قولي انك تعاملينني باسلوب .. كيف اعبر عنه ؟ .. انني لا انكر اني عاملت اخاك او عاملتك انت نفسك بطريقة تسوغ هذا ؟ .. » .

فقالت السيدة اجانا وقد الانتها كلماته قليلا : « هذه هي المسألة بحذافيرها يا استاذ ... صدقني

اننا .. نعم اننا شاكرون جميلك .. ولكن من المؤكد انك لا بد فاهم ان.. »
فابتسم الاستاذ توتي ثانية واغمض عينيه قليلا وقرع صدره قرعا خفيفا عدة مرات باطراف اصابعه ليوعز اليها بانه عندما تصل المسألة الى فهم اي شيء فانها تستطيع ان تترك له الأمر .

« اني رجل مسن يا سيدتي ، وانا افهم ... اني اعرف اشياء كثيرة ... واليك اول هذه الاشياء ... حينما يكون انسان غاضبا ثائرا فيجمل ان نتركه حتى يهدأ ... وعندما تنشأ امور تنتج سوء التفاهم فان احسن سبيل هو توضيحها يا سيدتي بكل صراحة وبدون اي مراوغة او تحايل ... وبدون ان يثور الغضب حولها ... الا توافقينني على ذلك ؟ .. »
فاجابت السيدة اجانا وهي مقتنعة مسلمة بهذا الفرض العام : « نعم » واستانف الاستاذ توتي الحديث قائلا : « حسن جدا .. تلطفي واسمحي له بالدخول .. واذهبي بعد ذلك وادعي جاكومينو » .

« ولكن اذا لم يكن بالمنزل ؟ .. »
« دعي ذلك ! .. لا ينبغي ان تخبريني انه في خارج المنزل ، فجاكومينو بالمنزل ، وعليك ان تذهبي اليه وتدعيه ، وقولي له : اننا سنبحث الامر في هدوء . في هدوء تام ، فانا رجل متقدم في السن واعرف كل شيء عن الموضوع لأنني انا نفسي يا سيدتي كنت يوما شابا ، اسمحي لي بالدخول » .
وسمح له اخيرا بالدخول الى غرفة الاستقبال المتواضعة ، وجلس الاستاذ توتي واخذ نيني بين ساقيه ، واستسلم لفكرة ان عليه ان ينتظر وقتا طويلا قبل ان تتمكن اخت جاكومينو من اقناعه بالظهور .

وكان على منضدة في الحجرة بعض زخارف من الصيني الرخيص اللماع ، وكان الطفل يحاول من الحين الى الحين ان يذهب اليها فكان الاستاذ يمنعه من ذلك ويقول له في كل مرة : « كن ولدا مؤدبا يا نيني » وفي الوقت نفسه كان يكد فكره ويتعب خاطره ليعرف كيف وقع هذا الحادث الخطير في منزله دون ان يعلم به ، فمادلينا فتاة صغيرة طيبة فما الذي فعلته حتى اثارت الغضب الشديد في هذا المنزل فانتقل الغضب الى اخت جاكومينو ».
والى تلك اللحظة كان الاستاذ يظن ان المسألة مسألة خصام وقتي ، ولكن اخذ قلقه يشتد وساورته الهموم .

واخيرا ظهر جاكومينو ... فيالله ... كان يبدو عليه الهم والاضطراب وعلا وجهه عبوس وغلظة وخشونة ! ... وكأنه لم يكفه ذلك ... فقد كان يدفع في برود الطفل الذي جرى اليه ومد يديه الصغيرتين لتحيته وهو يصيح : « جامي .. جامي » .
فقال الاستاذ توتي في لهجة شديدة وهو دهش متعجب وقد جرح كرامته هذا السلوك « جاكومينو ! .. » .

فاجاب الشاب في سرعة : « ماذا تريد ان تقوله لي يا استاذ ؟ » وكان اثناء الحديث يتجنب النظر الى وجه الاستاذ : « اني مريض ... وقد كنت في الفراش ... والواقع اني غير صالح للكلام مع احد ... بل غير صالح لأن ارى احدا ... » .
« ولكن الطفل ؟ ... »

فقال جاكومينو : « هاك قبلة اله » وانحنى ليقبل الطفل .
وعاد الاستاذ توتي الى الحديث وقد هدأت هذه القبلة بعض ما به « وهكذا تشعر بانك مريض ،، . وقد خطر بفكري انك لا بد ان تكون مريضا ، وهذا ما حداني على المجيء اليك ... وتشعر بوجع في الراس .. آه ؟ .. اقعد ولنتكلم ... نيني الا تسمع ذلك ... جامي يشعر بتعب يسير ... اصابه بعض التعب ... يلزم ان تكون مؤدبا يا نيني .. سننصرف سريعا ... » والتفت الى جاكومينو واسترسل يقول : « الم يقل لك مدير المصرف الزراعي شيئا ؟

فاجاب جاكومينو ـ وقد زاده هذا الكلام اضطرابا ـ : « لا ولم ؟ »
فقال الاستاذ توتي وقد ابتسم ابتسامة خفيفة غامضة : « لأني تحدثت معه عنك امس ، ان مرتبك ضئيل يا بني ، وانت تعلم ان كلمة صغيرة مني ... »
فتحرك جاكومينو في مقعده حركة قلقة وضغط على قبضتي يديه ضغطا شديدا الى حد ان اظافره انغرزت في راحتي يديه .
وقال : « اشكرك يا استاذ لما فعلت ، ولكني ارجو ان تسدي الى هذه اليد العظيمة ، وهي الا تتعب نفسك من اجلي ! .. »

فقال توتي وكانت لا تزال على فمه بقايا تلك الابتسامة الخفيفة : « اتعني ذلك حقا ... يا للشجاعة ! .. لم تعد في حاجة الى احد ! .. ولكن افرض انني اريد ان اسعدك لأني احب ذلك وارتاح له ؟ .. يا ولدي العزيز اذا انا لم اهتم بك فبمن يا ترى اهتم ؟ .. اني رجل مسن يا جاكومينو ... اني رجل مسن ، والرجال المتقدمون في السن ـ وضع نصب عينيك اني لا اتحدث عن الانانيين منهم ـ الذين اجهدوا انفسهم في عمل الخير كما فعلت يسرهم ان يروا الشبان امثالك الاكفاء يتقدمون في حياتهم بفضل المساعدة التي نقدمها لهم ، والشيوخ يجدون لذة في سرور الشبان واتساع آمالهم وفي رؤيتهم وهم يشقون طريقهم في الدنيا ، واما من ناحيتك فانت تعلم اني انزلك من نفسي منزلة الابن ... فيالله ماذا اصابك .. انك تبكي ؟ .. »

والواقع ان جاكومينو كان قد خبا وجهه بين يديه .. وظهر من حركاته المضطربة انه يجاهد ويقاوم نوبة من البكاء كانت تصيبه .
ونظر اليه نيني نظرة فيها خوف ثم تحول الى الاستاذ وقال له : « جامي .. تعبان .. » فنهض الاستاذ وحاول ان يضع يده على كتف جاكومينو ، فانتفض الشاب كانه خشي ان يمس الاستاذ جسمه بيده ، وقد لاح في وجهه تصميم صارم احال معالمه وشوه ملامحه وصاح هادرا في غضب :
« لا تدن مني يا استاذ ... ارجوك ان تغرب عني ، اذهب لسبيلك ... انك تجعلني اشعر بآلام الذي يستحق اللعنة ... لست جديرا بعطفك ولا اريده ... اصنع معروفا وابتعد عني وخذ الطفل معك .. وانس وجودي » .
فذهل الاستاذ توتي واسقط في يده وسأله : « ماذا تعني ؟ »
فأجاب جاكومينو : « اقول لك صراحة اني شرعت في الزواج فهل تفهم ؟ .. لقد شرعت وخطبت » .
« انت ... خطبت ؟ .. »
« نعم يا سيدي ، وترى ان كل شيء قد تم ... وكل شيء قد تم على احسن الوجوه ، وانت تدرك الآن

انني لا استطيع ان اراك .. انت ترى وتسمع ... »
فسأله الاستاذ في صوت لا يكاد يسمع : « انت تطردني من المنزل ؟ »
فأجاب جاكومينو في بطء وتردد وبلهجة حزينة : « لا ... ولكن الاحسن انك .. تنصرف يا استاذ ... »
« انصرف ؟ » .. وغاص الاستاذ في مقعده ، وشعر بان ساقيه تضعفان عن حمله ، ووضع رأسه بين يديه وتأوه : آه يا الهي ... اية نكبة .. وهذا هو التفسير .. فماذا افعل ماذا افعل ؟ ولكن متى حدث هذا وكيف ؟ ولا كلمة لي ! .. ومن هذه التي خطبتها ؟ »
فقال جاكومينو : « لقد حدث هذا منذ زمن قصير ، وهي مثلي يتيمة وفقيرة وهي صديقة اختي » .
فنظر اليه الاستاذ توتي وقد استولى عليه الذهول ، وكان فمه فاغرا وعيناه شاردتين ... ولمدة دقائق لم يستطع ان ينبس بكلمة ، ثم قال وهو لا يكاد يبين :
« وهكذا ... وهكذا وقع كل شيء على هذا النمط ... ولم تفكر في احد ولم تحسب حسابا لشيء ... »
فشعر جاكومينو بتهمة انكار الجميل التي تختبيء وراء هذه الكلمات ، فاجاب وقد سيطرت على نفسه روح تمرد حزين : « ارجوك المعذرة ، اكنت تنتظر ان اصير عبدا ؟ »
فقال الاستاذ توتي دهشا وقد ارتفع صوته : « انتظر منك ان تصير عبدا ؟ انا ؟ اتطلب الي ذلك وقد جعلتك سيد المنزل ؟ آه ، حقيقة ان هذا هو ادنا انواع انكار الجميل ، اية فائدة تظنني افدتها من ذلك سوى سخرية هؤلاء الساخرين الذين لا يستطيعون ان يفهموا شعوري ؟ اني رجل يائس هرم قد اشرف على نهاية حياته ، ولكني قد استطعت ان استنبط راحة لنفسي ومتاعا من فكرة اني اترك ورائي اسرة صغيرة سعيدة قد اعددت لها العدة لمواجهة المستقبل وجعلتها تبدأ الحياة بداية حسنة ! اني بلغت السبعين يا جاكومينو ، وعما قليل ! وربما بعد ايام معدودات ــ سأكون قد بعدت عنكم ، فما الذي جعلك يا بني تفقد صوابك ؟ اني قد كتبت ضيعتي في الوصية باسمائكم انتم الثلاثة فماذا تريد اكثر من ذلك ؟ .. اني لم اعرف بعد ولا اريد ان اعرف من هي خطيبتك ، وما دمت انت قد اخترتها فلا بد ان تكون فتاة متواضعة لانك شاب مهذب ... ولكن فكر في الامر لحظة .. فكر فليس من الممكن ان تجد فتاة احسن منها ــ يا جاكومينو ــ عندما تنظر الى المسألة من جميع وجوهها ، وانا لا اقصر الكلام على مسألة انك ستكون في ظروف حسنة وعيشة رغدة ، بل انك الآن لك اسرتك الصغيرة والشيء الزائد المضاف الى الاسرة هو شخصي ، وانا لا يحسب لي حساب .. ومهما يكن من الامر فان بقائي قليل ، ففي اي شيء يضايقك وجودي ؟ اني مثل والدك ، تكلم اني استطيع .. اذا كان ذلك يجعلك اسعد .. ولكن خبرني كيف حدث ذلك ! .. وماذا وقع ؟ .. وكيف تحول رايك فجأة مثل هذا التحول ؟ ..
وضح لي الامر يا بني ... حدثني عن المسألة ... »
ووقف الاستاذ توتي وهم بأن يضع يده على كتف جاكومينو ، ولكن الشاب تراجع الى الوراء ، وكادت تعروه رجفة ... وتحاشى ان يلمسه .. وصاح قائلا : « ولكن يا استاذ الا تستطيع ان تفهم ؟ .. الا ترى ان عطفك هذا ... »
« حسن ! »
« آه .. دعني منفردا .. لا تضطرني الى الحديث .. يا الهي ... كيف لا تستطيع ان تفهم ان هناك

اشياء خاصة لا تتم الا في هدوء .. وانه لا يمكن الاستمرار في عملها حينما يعلم كل شيء عنها .. وكل انسان يسخر منها .. ! »

فصاح الاستاذ : « كل انسان ؟ انا لا اعبأ بهم كما ترى ... »

فعاد جاكومينو يقول : « آه دعني منفردا وحيدا ... » وحرك ذراعيه حركة عصبية في صورة اهتياجه ... « انظر يا استاذ ! هناك شبان كثيرون في حاجة الى مساعدتك » .

فجرحت هذه الكلمات الاستاذ توتي جرحا بليغا ، واعتبرها اهانة شديدة لا لزوم لها موجهة الى زوجته ، فاصفر وجهه ، واخذته رجفة غضب اصعدت الدم الى وجنتيه ثانية وقال : « مادلينا فتاة صغيرة ولكنها ولله الحمد متواضعه وحصان رزان .. ومادلينا قد تقضي عليها هذه الصدمة لأنها طعنتها في صميم قلبها ... وكيف تظن انها تواجهها ، لقد طعنتها في قلبها ايها الناكر للجميل الجاحد للنعمة ، وفضلا عن ذلك فانت الآن تهينها وتسبها ، الا تخجل من نفسك ـ .. اتستطيع ان تواجهني ولا تستشعر الندم ! .. حقيقة تستطيع ان تقول ذلك في وجهي يا جاكومينو ؟ .. اتظن انها تستطيع ان تستبدل شخصا بشخص كانما الامر هين ؟ .. تستطيع ان تقول ذلك لوالدة هذا الطفل ؟ .. فما الذي تفكر فيه ؟ .. وكيف تجرؤ على الكلام بهذا الشكل ! ؟

فدهش جاكومينو الى حد انه وجد صعوبة في الاجابة وقال : « انا .. ولكن هذا السؤال يجب أن يوجه اليك يا استاذ ، واعذرني لهذا القول ، ولكن كيف تستطيع التحدث بهذه الطريقة .. انك لا تجد ! »

فألقى الاستاذ توتي يديه ثم ضغط بهما على فمه واختلس النظر اليه ثم هز راسه بشدة الى الامام والى الوراء وانفجر في طوفان من الدموع ، وفي هذا الوقت بدأ نيني كذلك يبكي فسمعه الاستاذ واسرع اليه وعانقه وقال له في تمتمة : « آه يا بني المسكين اية صدمة قاسية ... خراب تام يا بني الصغير ... وماذا يصير اليه حال امك الآن ، وماذا يصيبك يا بني وامك صغيرة وليس لها من مرشد .. آه يالله .. اي نذل ! »

ورفع راسه ونظر الى جاكومينو من خلال الدموع المتساقطة قائلا : « اني ابكي لأني الوم نفسي لوما قاسيا مرا .. فلقد تعهدتك واخذت بيدك وجعلت لك في بيتي منزلا ، وكنت دائم الثناء عليك عندها ، وازلت ما كان عندها من اسباب التردد من ناحية اشتغالها بحبك . و .. الآن ... انها اصبحت تحبك حبا صادقا ، وهي ام هذا الطفل الغرير ، انت ... انت ... »

وخانته قواه ، ثم انبعث يقول منفعلا وقد اخذت باكظام نفسه عزيمة فجائية فظيعة : « احذر يا جاكومينو .. احذر .. اني استطيع ان اقصد منزل خطيبتك مستصحبا هذا الطفل »

كان العرق البارد قد تصبب من جاكومينو ولو انه كان يشعر بانه على مثل جمر الغضا حينما سمع توبيخ الاستاذ وتبكيته ورأى حيرته وهمه ، وعند استماع هذا التهديد الاخير وثب الى الامام ورفع يديه المضمومتين باشارة استعطاف : « يا استاذ .. يا استاذ .. انك لا تريد ان تجعل نفسك « فرجة » .. ولا تريد ان تجعل نفسك اضحوكة » .

فصاح الرجل : « اجعل نفسي اضحوكة ؟ .. اتحسبني ابالي بالضحك والسخرية حينما ارى البلاء النازل والشر المستطير الذي يتهدد امرأة مسكينة ويتهددك انت ويتهدد هذا البريء الصغير ؟ .. تعال يا نيني .. لننصرف .. لنخرج »

فوقف جاكومينو معترضا طريقه : « يا استاذ .. انت لا تستطيع في الواقع ان تفعل نلك ! »

فصاح الاستاذ : « اؤكد لك اني استطيع .. وسافعل .. » ونظر اليه نظرة المعتزم المصمم « واكثر من نلك انني لكي احول بينك وبين الزواج استطيع ان اطردك من المصرف .. اني امهلك ثلاثة ايام .. »

وامسك بيد الطفل واتجه الى الباب ثم استدار عند الباب واضاف قائلا : « خيرلك ان تفكر في الامر مرتين يا جاكومينو ! »

نينا ونيني

كانت نينا حينما مات والدها قد بلغ عمرها ثمانية عشر شهرا ، ولم يكن نيني قد ولد بعد ، وانما كان هنالك ، كان منتظرا قدومه . وهذه القصة جميعها سببها مجيء نيني ، فلولا وجوده لكان من المحتمل اعراض والدته عن الزواج مرة ثانية ، وربما كانت وقفت حياتها على تنشئة نينا ورعايتها ، وقد كان عندها ما يكفيها لتعيش عيشة متواضعة ، فقد كانت تملك منزلا صغيرا انيقا ودخلا كافيا من مهر زوجها ، ولكن نيني كان طفلا . وكانت هي لا تعرف شيئا عن الاولاد ، ولذا اخافتها فكرة ان عليها ان تنشيء طفلا بمفردها وتدفع به الى الحياة ، ولم يكن لها أخ او قريب على كثب منها او على مبعدة ليعينها ، ولذا قبلت طلب الزواج الذي تقدم به شاب بارع مدرس بالمدرسة الصناعية الفنية ، وقد وعد بأنه سيكون راعيا صالحا لطفليها ، وكانت نينا حينذاك تبلغ حوالي ثلاثة اعوام ، ونيني كان عمره حوالي ثمانية عشرا شهرا .

وكيفما كان الامر فانه لم يخطر ببالها انها قد ترزق باولاد اخرين من هذا الزواج ، وقد اذهلها عن هذه الفكرة تفكيرها الدائم في مستقبل نيني ، وقبل ان يمض عام على زواجها كانت راقدة على ابواب الموت حاملة توامين ، وسأل الطبيب ايهما يفقد : الأم ام الطفلين ؟ بالطبع الام .. وهكذا ضحى

بالطفلين الصغيرين ، ولم تأت التضحية بفائدة ، بعد شهر عانت فيه ابرح الآلام ماتت الأم الصغيرة يائسة محزونة .

وهكذا اصبحت نينا ونيني لا ام لهما ولا اب ، وفي رعاية شخص لا يعرفان اسمه ولا يعلمان ماذا يصنع في منزلهما

اما عن اسمه فانهما لو رغبا في معرفته لكان الجواب حاضرا ، وهو ارمنيودل دونزيللو ، اما عن ماذا يصنع في المنزل فهو نفسه كان لا يدري !

كانت زوجته قد توفيت ، ومات توأماه قبل ان يولدا ، وهذا المنزل لم يكن منزله ، وهذان الطفلان ليسا طفليه ، فبالله ماذا يصنع اذن في المنزل ؟ .. لقد وجه السؤال الى نفسه ، لقد وجهه الى نفسه وهو يبكي من الجيران ـ هؤلاء الجيران الذين هبطوا المنزل زرافات حينما وقعت الواقعة وحلت المصيبة ، كانما اصبح المنزل ملكا لهم ، واقاموا من انفسهم اوصياء وحماة لليتيمين ، وكان الاستاذ مستعدا لشكرهم وتقدير رعايتهم لو انهم اتخذوا اسلوبا آخر في القيام بذلك .

وقد عرف الاستاذ ارمنيودل دونزيللو لسوء الحظ ان الناس تحكم بالمظاهر ، وكان مظهره خداعا ، فقد كان نحيفا ناحلا بائن الطول ، وكان شاربه منتفشا ، وكان شعره المشوط متهدلا على اذنيه ، وكان بعنقه الدقيق غلصمة ضخمة (وكانت هي الشيء الوحيد الضخم بين هذه النحافة الشاملة) وكانت عيناه محجوبتين خلف عوينات ، ولكن ما قيمة المظاهر ؟ ..فقد كان ينبعث من هذا العنق الدقيق صوت عذب رخيم .

وكان حديثه لا يبارى ، فما شئت من ايماءات رشيقة وبسمات حلوة مشرقة ، ومع ذلك فان هؤلاء الجيران كانوا لا يقدرونه ! .. وكانوا قاسطين في طريقة تنقصهم له ! .. فلم تكن توجه اليه منهم كلمة عطف ولا اشفاق ! .. وكأنهم كانوا يرون ان مصابه في فقد زوجته ونكبته في ابنيه كانا له جزاء وفاقا وعقوبة عادلة ! .. وكان عطفهم متجها نحو اليتيمين اللذين كانوا يرون مصيرهما في وضوح تام ، وهذا هو المصير المنتظر ، فهذا الاستاذ لا بد ان يتزوج ثانية ، وبطبيعة الحال ستكون له اسرة اخرى ، وهذه الاسرة الجديدة ستسيء معاملة نينا ونيني وتنتهرهما ، وان نينا ستموت لا محالة ، وان نيني سيتبعها الى القبر ، وكانت اجسامهم ترتعد من فرط الاشفاق والازدراء حينما تتملكهم هذه الفكرة ، ويقبلون على نينا ونيني معانقين مقبلين نادبين سوء حظهما .

وكان الاستاذ في كل صباح قبل ان يذهب الى المدرسة يتولى اليتيمين بالتنظيف والصقل ويلبسهما لكي يرضي الجيران الواقفين بالمرصاد ، وكان يأخذ كلا منهما في يد ويخرج من المنزل ويعهد بهما في كل يوم الى اسرة من الاسر التي كانت تتهافت عليهما وتتظاهر بالترحيب بهما .

وفي كل اسرة من هذه الاسر كانت فتاة صالحة للزواج ، وكل فتاة من هؤلاء الفتيات كانت تصلح لتكون اما رؤوما لنيني ونينا ، وواحدة ليس غير كانت لا بد ان تكون جبارة لا تعرف الرحمة ، وافعى تنفث السم ، غليظة القلب فظة ـ وهذه الواحدة هي الفتاة التي يقع عليها اختيار الاستاذ !..

وكان لا بد له من الزواج بطبيعة الحال ، وكان الجيران جميعهم ينتظرون ذلك ويتوقعونه ، وفي الحق انه هو نفسه كان يفكر في الموضوع تفكيرا جديا ، ولم يكن من الميسور ان تسير حياته على هذا المنوال ، ولم تكن الاسر التي ترحب بالطفلين تفعل ذلك لوجه الله ، فاذا هو سوف في الامر اكثر من ذلك فلا بد ان تقفل في وجهه ابوابها وماذا يكون حينذاك ؟ .. وكيف يستطيع ان يتعهد هذين اليتيمين بمفرده ؟ .. فهو في الصباح يذهب الى المدرسة ، وفي العصر يقوم باعطاء دروس خاصة ، وفي المساء يصحح الكراسات ، فهل يستأجر خادما ؟ ... ولكن لا ! .. انه كان شابا يجري في عروقه دم

الشباب سواء بدا عليه ذلك ام لم يبد ، فامراة في المنزل لا تصلح بحال ، فهل يستحضر امراة عجوزا ، ولكنه تزوج ليضع حدا لحياة العزوبة ، تلك الحياة التي لا تليق بكرامته بوصفه استاذا ، والآن ومعه هذان الطفلان .....

لا .. « الزواج لازم له » ولا مفر منه ..

ولكن كيف يختار ؟ .. لقد كانت صعوبة الاختيار تزداد من يوم ليوم ، وكانت الحالة تزداد توترا وشدة ، فقد كان هنا عشر او عشرون زوجة ، وكل منهن مستعدة لاعطائه يدها ، وكل واحدة منهن اقل صبرا واشد لهفة من الباقيات ، وكان هنا الطفلان بطبيعة الحال ، ولكنهما ليسا طفليه ، والمنزل منزله وربع مهر الزواج كان يخصه حتى تبلغ نينا سن الرشد وهي لا تزال بعد صغيرة ، وهذا الربع مضافا الى ماهيته باعتباره استاذا يكونان من مجموعهما مبلغا اكثر من المتوسط .

ولكن اذا كان الاستاذ قد اضاف المبلغ فكذلك فعل الجيران ، وكل جارة من جاراته لها ابنة تصلح للزواج قد قامت بحساب هذه الأضافة اكثر من مرة ، ولنفكر الآن في موقفه ! .. فلو انه اختار بنتا من هؤلاء البنات فلا تسل عن ثورات الغضب والحنق التي ستضطرم بنفوس سائر الامهات ، ان نيران الجحيم ليست بشيء بالقياس الى تلك ..

واشد ما كان يخيفه هو الحموات ، وكل ام خاب املها ستغدو بطبيعة الحال بمثابة الأم لزوجته الميتة وحماة له وجدة للطفلين اليتيمين ، واي حموات واي جدات ؟ .. من امثلة ذلك جارته المواجهة له السيدة نينفا ! .. كانت تثابر على المجيء الى المنزل في كل صباح ومعها كريمتها روميلدا وابنها الناشيء توتو لتضمن ايواء الطفلين اثناء النهار وتمنع اعارتهما للغير : « أعرنا نينا ايها الاستاذ ! :. لا ...بل الافضل ان تعيرنا نيني هذا الملاك الصغير لا نينا العزيزة ! .. ولماذا لا تعيرنا كليهما ؟ ..» وتغمران نينا ونيني بالقبلات والملاطفات والمداعبات .

فماذا يفعل الاستاذ المنكود الحظ ، كان يلوي راسه ذات اليمين وذات اليسار كما تفعل النعامة ثم يضم يديه على صدره ويسترق النظرات اليهما من وراء عويناته « ولكن يا سيدتي العزيزة ... ويا آنستي الاعز ... حقيقة اني لا استطيع ان اظن ذلك ... »

« لا تشغل بالك يا استاذ ، سيكونان في حرز حريز معنا ، ولا يمكن لانسان ان يقول مثل ذلك عن غيرنا ، فروميلدا تعبدهما عبادة ، وانظر الى توتو يالله ! .. انظر اليه ! .. اتركب الحصان الخشبي يا نيني ؟ .. اوه ايها العزيز الغالي ، تعال يا نيني أدن منا ؟! » ويغلب الاستاذ على امره ويسير الى مدرسته يطأ الشوك وهو يتمايل الى اليمين والى اليسار كأنه يلتمس العذر من سائر الجيران ! ..

وبينما كان الاستاذ ارمنيودل دونزيللو مثابرا في مدرسة الصناعات الفنية على اعطاء دروسه للأولاد الذين كانوا يسخرون منه كانت نينا ونيني يتلقيان من الجيران دروسا ناهيك بها من دروس ! .. فأي مخاوف مستهولة واي ريب كانتا تصبان صبا في نفسيهما ! ..

فنينا التي كانت حينذاك طفلة صغيرة رشيقة مشرقة الوجنتين متوقدة العينين كانت تدرب على مقاومة أي تهديد يوجه اليها من امراة ابيها ، وكانت تقول وهي تضحك مهتاجة ثائرة ملوحة بقبضة يدها ضاربة الارض برجليها : « ساقتلها ! .. سافعل ذلك ، شافعل ... »

« نعم يا قرة العين وهذا ما يجب ان تفعليه ! . وذلك المنزل كما تعلمين منزلك ــ منزلك انت ونيني ، ومهر الزواج كذلك مالك ، اتفهمين ذلك ، انه مالك ومال اخيك الصغير ، ونحن هنا لمساعدتك وشد ازرك ، فلا تخافي شيئا ، وسنراقب كيف يتصرف هذان الاثنان ، هو وهي ، ونحن هنا من اجلك انت ونيني » .

وكان نيني عبارة عن بضعة من اللحم ، خاملا بليدا له ساقان صغيرتان معوجتان ، وحينما كانت نينا تصيح وتلوح بقبضة يدها قائلة : « ساقتلها وسافعل ... » كان يتجه اليها في بطء وتؤدة ويتلمظ قائلا بصوته البليد الكئيب : « سنقتلها ... »

وكان يستطير السرور حينذاك السيدة نينفا وكريمتها روميلدا وتغمران الطفلين بالقبلات .

وبعد انْ انتظر الاستاذ سنة اختار زوجة من مدينة اخرى ، وكانت امرأة عزبة نصفا عفة اسمها كاترينا ابنة اخ قسيس ابريشية ، واحضرها معه الى المنزل عروسا له ، وكانت متواضعه هادئة مسالمة ، وبرغم ذلك كان الاستاذ في كل صباح قبل ان يبرح المنزل ينصحها قائلا : « كوني يا عزيزتي كاترينا شديدة العناية وتذكري الجيران ، ولا تجعلي هذين الملكين الصغيرين يبكيان لأي سبب من الاسباب ، حاذري ياعزيتي ... » وكان من السهل ان يقول لها : « كوني شديدة العناية وحاذري ! » ولكن حينما يكون شعر نينا الصغيرة ملبدا فهل تكف عن تمشيطه ؟ وحينما يكون وجه نيني ملطخا بالمربة (وكان طفلا شرها) فهل تمسك عن غسله ؟ .. « تعالي يا نينا لتمشط لك اميمتك شعرك » فتلوح نينا بقبضة يدها وتصيح صارخة : « لا اريد تسريح شعري ! » اذن تعال يا نيني العزيز ودع اميمتك تغسل لك وجهك وبرهن لاختك الصغيرة على انك ولد صالح » فيقتدي نيني الخامل البليد باخته ويتلمظ قائلا : « كلا ، لا اريد غسل وجهي » فاذا دنت منهما كاترينا المسكينة ولو بمقدار قيراط حاملة المشط او الحوض ارتفعت صرخاتهما وشقت عنان السماء ، واحتشد الجيران ، وثار ثائرهم ، وبسطوا السنتهم : « آه .. لقد بدأت الآن ، انه شيء فظيع ، فيا رب السماء ادرك برحمتك هذين الطفلين اليتيمين .. انظروا انظروا .. انها قابضة على ناصية الطفلة الكبيرة ، واسمعوا انها توسع الصغيرة صفعا » .

واذا احجمت كاترينا وتركتهما اخذوا يلغطون قائلين : « انها تعامل هذين الملكين بطريقة ظالمة ، فالبنت كالقطة شعثاء الشعر ، والولد قذر كالخنزير ! » .

وفي بعض الاوقات كانت نينا ــ رغبة في المعاكسة والمشاغبة ــ تهرب من المنزل في غلالتها الصغيرة عارية القدمين ، وتجلس على عتبة الباب وقد وضعت ساقا على ساق واخذت تدفع بضفائر شعرها السود من فوق عينيها في قلق وقلة صبر ، ثم تتضاحك في اهتياج وتعلن كل من هب ودب : « اني معاقبة » .

وسرعان ما يجيء في اثرها نيني وهو يمشي في بطء على ساقيه العبلاوين الصغيرتين ، وفي احدى يديه قصريته الصغيرة ، ثم يضعها باهتمام الى جانب اخته ويجلس عليها بعناية ويعلن في بلاده وجموده : « اني مع .. اق ... ب ... »

وبطبيعة الحال يحضر الجيران : « انظروا وتأملوا هذين العزيزين الغاليين ... عريانين في هذا الزمهرير ... هذين الملكين ! آه ! هذا هو غرضها ! .. ان تقتلهما بذات الجنب او بذات الرئة .. انظروا .. انها قادمة ! .. وهي الآن ستريق الدموع ، دموع التماسيح » .

ان القديس الهابط من السماء كان لا بد ان ينفد صبره ويثور في مثل هذا الموقف ، وكان دم كاترينا يفور ويغلي ، لا من الظلم فحسب ، بل كذلك من مراقبتها لتلك الصغيرة ، الحسناء وهي تزداد كل يوم امعانا في الشر والأذى والغلظة والقحة والتمرد وفقدان الاحترام : « ان هذا المنزل ملكي ، ومهر الزواج من مالي » فتأمل بنتا صغيرة في الرابعة من عمرها تهز قبضة يدها مطالبة بمهر الزواج ! » .

وفي مدى اشهر قليلة ازداد عمر الاستاذ عشر سنوات ، وكان ينظر الى زوجته وهي تنشج باكية الى جانبه وليس عنده ما يقوله لهذين الشيطانين الصغيرين ، انه لم يصبح غبيا ابله ، وانما كان يشعر

بشدة المرض ... وكان يعلم ان هذين الطفلين يقرران مصيره .. فقد مات ابوهما وتزوجت امهما من اجلهما ثم توفيت ، والآن جاء دوره ! .. كان يعلم ذلك وكان متأكداً واثقا ..

وارملته كاترينا ستتزوج في القريب العاجل لأجل هذين الطفلين ، وستموت هي كذلك ، وسيتزوج زوجها مرة ثانية ، وهكذا دواليك .. وسيمر بالمنزل حلقة لا نهاية لها من ابدال الآباء .

والدليل على ذلك انه كان يشعر بشدة وطأة المرض ، انه القدر الذي لا يدفع ولا حيلة فيه .

وسرعان ما استولت عليه هذه الفكرة وملأت نفسه ، وحاولت كاترينا ايقاظه واستنهاض عزيمته ، ولما حبطت مساعيها استقلت القطار الى عمها قسيس الابريشية ، وسالته النصيحة فنصحها ، بل امرها بان تقوم بواجبها ، فاذا لم يجد اللين والرفق مع الطفلين فلا بد من اخذهما بالشدة والعنف ، وهي نصيحة بارعة ، ولكن كانت نتيجتها التعجيل بوفاة الاستاذ ، فقد وضعتها كاترينا في ذات يوم موضع التنفيذ ، فلما عاد الاستاذ الى المنزل من مدرسته استقبله الجيران جميعهم صاخبين منذرين ملوحين بقبضات ايديهم وعلى راسهم توتو والسيدة نينفا ، وكانت كاترينا قد حبست في حجرتها ، ووقف خارج المنزل شرطيان ، فقد اشتكى الجيران الى رئيس شرطة المنطقة ، واتهموا كاترينا باستعمال القسوة مع اليتيمين ، وكانت فضيحة مدوية ، واشتد غضب الاستاذ من جراء هذا الظلم وتلك الاكاذيب ، وبعد ايام قلائل كان راقدا على فراش الموت ، وقبل ان يغمض عينيه ويفارق الحياة استدعى زوجته وقال لها في صوت واهن « انصحك يا عزيزتي بان تتزوجي ثانية ، تزوجي توتو ابن السيدة نينفا ، لا تخافي ، ان ذلك لن يطول وستلحقين بي .. وسيتزوج توتو ثانية من اجل هذين الصغيرين ... وسرعان ما تدركه الوفاة .. »

اثناء ذلك كانت نينا ونيني يلعبان في منزل مجاور غافلين سعيدين فقد وجدا ببغاء محشوا وقطيطة وديعة .

وقالت نينا : « ساخنقك ايتها القطيطة ! » فحول نيني البليد المكتنز اللحم نظرته الكنيبة في بطء الى ناحية اخته وتلمظ قائلا في تراخ وخمود : « سنخنقها » .

ساكن الجرة

كان محصول الزيتون في تلك السنة وافرا غزيرا ، وكانت الاشجار قد رفت وازدهرت ، وبالرغم من ان السماء اقطبت حينا من الزمن فقد اجنت الفاكهة ، وكان لوللو زرافا ضيعة قد طاب زرعها وعظم محصولها ، وعرف لوللو ان الجرار الخمس القديمة المصنوعة من الخزف اللامع والمحفوظة في قبو النبيذ لا تكفي الزيت المستخرج من هذا المحصول ، واحتاط للامر فأوصى بعمل جرة اكبر حجما لتكون بمثابة الام للجرار الخمس الاخرى .

ولا حاجة الى الافاضة في ذكر المناقشة التي دارت بين دون لوللو زرافا وبين الخزاف ، فمن الصعب ان تجد انسانا لم يشتبك معه في معركة ، ولاتفه الاسباب كانت ترتفع عقيرته ويصيح بخدمه ويأمرهم باسراج بغلته ويسرع الى المدينة ليقيم الدعوى ، وقد كاد يفني تلاده وما جمع من النشب كثرة ما انفق في المحاكم وما دفع للمحامين ، وكانت تنتهي قضاياه بقيامه بدفع نفقات الطرفين ، وكثر تحدث الناس بأن مستشاره القضائي الذي كان يراه في كل اسبوع مرتين على اقل تقدير مل رؤيته ، فأهدى اليه كتيبا يحوي خلاصة القوانين لكي يرى بنفسه ما له وما عليه قبل ان يقدم على اقامة الدعوى .

وكانوا يقولون له قبل ذلك اذا اختلف مع احد الناس لكي يثيروا غضبه : « اسرج البغل » ولكنهم الان اصبحوا يقولون له : « راجع قانون الجيب » وكان يرد عليهم قائلا : « سأفعل ذلك واريكم » .

وتسلم الجرة التي دفع لها ثمنا اربعة فلورينات ، ووضعها في السقيفة التي كان يعصر بها العنب وحتى يستطيع ان يخلي لها مكانا في القبو بعد بضعة ايام ، ولم تكن هناك جرة اجمل مُنها صنعا ، وكان مما ينقبض له الصدر ان يراها الانسان موضوعة في ذلك المكان القذر الذي كانت تنبعث منه روائح عصير العنب الفاسد ، والعفونة التي تنشأ في الاماكن المحرومة من الضوء والهواء

وكان قد مضى يومان على ابتداء جني محصول اشجار الزيتون ، وكاد يجن جنون دون لوللو ، فقد تولى الاشراف على الرجال الذي كانوا يجمعون الفاكهة من الاشجار ، وراقب كذلك الرجال الذين جاؤوا بالبغال المحملة بالسماد المزمع ووضعه على جانب التل لزراعة حقل من حقوله فولا ، وظل يسب ويلعن ، ويرغي ويزبد ، وينذر كل من يغضبه بالويل والثبور ، وقد وضع على راسه قلنسوة بيضاء صغيرة وشمر اردانة وفك ازرار قميصه من اعلاه واخذ يعدو هنا وهناك ، وقد تصبب عرقا واحمر وجهه وارسلت عينه نظرات كنظرات الذئب .

وفي ختام اليوم الثالث قصد ثلاثة من الفلاحين الغلاظ الاجلاف ذوي الثياب القذرة والسحن المنكرة الى السقيفة فوقفوا مشدوهين حيال منظر الجرة الجديدة وقد شطرت شطرين وتبدت كأن احد الناس قد امسك بها من جبهتها البارزة وشقها بسكين حاد .

آه ، يا لله !.. انظروا !.. انظروا !..

ـ كيف حدث ذلك ؟..

ماذا سيكون حينما يعلم دون لوللو بذلك ؟.. الجرة الجديدة ! اي شيء يدعو للرثاء والاشفاق !..

وكان اول الثلاثة اشد خوفا من رفيقه ، فاقترح عليهما ان يقفل الباب كما كان ، وان يتسللوا في هدوء ولكن ثانيهم عنفهم بشدة قائلا :

هذه فكرة سخيفة ، ومثل هذا لا ينفع مع دون لوللو ، وسيغلب عليه الاعتقاد بأننا نحن الذين كسرنا الجرة ، لا ، اننا سنظل هنا جميعا .

وخرج من السقيفة وصاح بأعلى صوته : دون لوللو ، دون لوللو ، ولما جاء المزارع ورأى ما حل به من الضرر ثارت ثائرته وغلت مراجله وامسك بعنق احد الثلاثة ، ودفع به الى الحائط ، وزعق قائلا « وحق دم العذراء لتدفعن ثمن هذا !.. »

فوثب الاثنان الاخران مهتاجين ، وهجما على دون لوللو وجنباه بعيدا ، فحول غضبه الى نفسه ، واخذ يدق الارض بقدميه ، والقى بقلنسوته على الارض ، ولطم خديه ، وبكى لخسارته بكاء من فجع في قريب له .

« الجرة الجديدة !.. الجرة التي دفعت اربعة فلورينات ثمنا لها !.. ايمكن ان تنكسر من نفسها !.. لا بد ان احد الناس قد اكل قلبه الحقد والحسد فكسرها » .

ولما راى الفلاحون ان ثورة غضب سيدهم قد هدأت بعض الشيء اخذوا يعزونه ويهونون عليه الامر ، ويقولون ان الجرة يمكن اصلاحها ، وان الكسر الذي اصابها ليس كسرا خبيثا ، وان الجبهة المشقوقة لا تزال قطعة واحدة ، وان اللحام البارع يستطيع ان يصلحها ويعيدها جرة جديدة كما كانت ، وان زي ديما ليكاسي هو الرجل الذي يصلح للقيام بذلك ، فقد اخترع نوعا من الملاط عجيب

التركيب سحري الاثر ، فاذا استعمله في الصاق الجزأين المفصولين عادا متماسكين تماسكا متينا بحيث لا يمكن ان ينفصلا حتى لو استعملت المطرقة ، واقترحوا عليه استدعاءه .

وظل دون لوللو طويلا معرضا عن الاستماع الى نصيحتهم ، فقد كان يرى انه ليس هناك فائدة ، وان كسر الجرة لا يشعب ، ولكنه في النهاية قبل اقتراحهم ، ووصل زي ديما الى بريموسولي في صباح اليوم التالي وقد حمل على ظهره سلة بها الادوات اللازمة لصناعته ، واذا به رجل شخت ملتوي المفاصل منتفخ كأنه جذع زيتونة عتيقة شرقية ، وكان يلوح انه لا بد من استعمال الكلاليب في فمه لانتزاع الكلام منه ، وكان السخط والاكتئاب ينبعثان من طلعته المشنوءة الزرية ، وربما كان السبب في ذلك تألمه لان الناس لم يقدروا مواهبه مخترعا ، ولم يكن قد سجل اختراعه بعد ، ولذا كان يريد ان يتخذ من نجاحه سببا لاذاعة شهرته ، وفي خلال ذلك كان يشعر بضرورة الاحتياط حتى لا يقف احد على سر الاختراع .

وبادهه دون لوللو قائلا بلهجة المتشكك المرتاب : « ارني الملاط الذي تستعمله » وذلك بعد ان ظل يحدجه ببصره من فرعه لقدمه مدة دقائق .

فرفض زي ديما ذلك بأن هز رأسه هزة وقورا متعالية :

ــ سنرى نتيجة استعماله .

ــ ولكن هل يكفي لتماسك الجرة ؟..

فوضع زي ديما سلته على الارض ، واخرج منها حزمة حمراء مكونة من منديل قطني كبير قد بلي من كثرة الاستعمال ، وتلفف حول شيء ، واخذ ينشر مطويه بعناية تامة ، والجميع حوله يرقبون حركاته بانتباه ، واخيرا برزت من ثنايا المنديل نظارة قد تكسر جانباها وربطا بخيط ، فأثار ذلك عاصفة من الضحك ، ولم يلتفت زي ديما الى ذلك ومسح انامله قبل ان يتناول النظارة ويضعها في تؤدة ووقار على عينيه ويبدأ فحصه للجرة ، وبعد اجراء الفحص قال : « يمكن اصلاحها » .

فأمسك دون لوللو بذراعه وقال : « انت ذاهب ؟.. ذاهب الى اين ؟.. لست احسن اخلاقا من الخنازير !.. انظروا الى هذا الصعلوك الذي يحاول التشبه بالملوك الصيد !.. الا تعلم ايها الاحمق اني اريد ان اضع زيتا في هذه الجرة وان الزيت ينضح ؟.. وكيف تكتفي بالملاط وحده ؟.. لا بد من الملاط والمسامير ، وانا الذي افصل في هذا الموضوع » .

فأغمض زي عينيه وزم شفتيه وهز راسه ، وهكذا كان جميع الناس لا يتيحون له فرصة تجربة اختراعه واثبات قوة الملاط وحده .

وقال : « اذا لم تعد الجرة خيرا ما كانت » .

فانطلق دون لوللو قائلا : « اريد ان اسمع كلمة واحدة ، سأدفع لك عن الملاط والمسامير ، فكم تريد ثمنا لذلك ؟ »

ــ اذا استعملت الملاط فقط .

ــ ما اشد لجاجتك واكثر عنادك ، لقد قلت لك اني اريد المسامير ، وسأتفق معك على الشروط بعد الانتهاء من العمل فليس عندي وقت لاضيعه .

ومضى الى عمله وملاحظة رجاله .

وشرع زي ديما في عمله وقد استشاط غضبا ، وكان كلما احدث ثقبا يتزايد غضبه ويشتد تبرمه

وسخطه ، ولما اتم هذه العملية القى بمثقابه غاضبا الى داخل السلة ، ثم اخذ زربيته واستدعى احد الرجال لمساعدته .

ولما رآه الرجل مكتئبا حزينا قال له : « هون عليك يا زي ديما وهش ويش !.. » وفتح زي ديما العلبة الموضوع بها الملاط ورفعها نحو السماء كأنه يقدم قربانا لله لان الناس يرفضون الاعتراف بقيمة ملاطة ، ثم اخذ يلصقه بأصبعه حول الجزء المنفصل من الجرة ، ثم اخذ الزردية والمسامير الحديدة وزحف الى داخل جوف الجرة وامر المزارع ان يمسك بالجزء المنفصل وان يدنيه من سائر الجرة ، وقبل ان يثبت المسامير صاح من داخل الجرة قائلا : « شد ! شد ! شد بكل قوتك ! وها هي تلتحم وتتماسك كما ترى ، فلعن الله الذين لا يصدقونني !.. الا ترى انها قد عادت كما كانت وانا في داخلها !.. اذهب وقل ذلك لسيدك » فقال المزارع متنهدا : « على السادة يا زي ديما ان يصدروا الاوامر وعلينا نحن الطاعة ، فضع المسامير ، ضع المسامير »

واخذ زي ديما في تثبيت المسامير في الثقوب مستعينا بالزردية ، واستغرق ذلك ساعة من الزمن ، وتصبب عرقه وهو في داخل الجرة ، وكان في اثناء العمل يندب سوء حظه وما يلقاه من الغبن وقلة التقدير ، وظل المزارع الى جانبه يواسيه ويجامله .

ولما اتم زي ديما عمله قال له : « ساعدني الان على الخروج »

ولكن الجرة بالرغم من اتساع جوفها كانت ضيقة العنق ، وهو امر لم يلتفت اليه زي ديما ولم يلحظه لانه كان متكدر الخاطر ثائر النفس ، وحاول جهده للخروج فلم يوفق في ذلك ، ولما رآه المزارع في هذه الحالة وقف مغربا في الضحك الى جانب الجرة دون ان يفعل شيئا !.. وهكذا اصبح زي ديما حبيسا في الجرة التي اصلحها ، ولم يكن هناك سبيل الى اخفاء تلك الحقيقة ، وهي انه لا سبيل الى اخراجه الا بكسر الجرة !..

وسمع دون لوللو الضحك والجلبة فأقبل مسرعا ، وكان زي ديما ينفث في داخل الجرة كالسنور الغاضب .

وصاح زي ديما من داخل الجرة : « اخرجني اكراما لوجه الله ! اني اريد الخروج !.. اسرع الى نجاتي !.. »

وكان دون لوللو قد اخذته الدهشة وحار في امره ، ولم يستطع ان يصدق اذنيه ، ماذا !.. انت داخل الجرة !.. لقد اثبت فيها المسامير وانت داخلها !..

ثم دنا من الجرة وصاح بزي ديما : « اي مساعدة استطيع ان اقدمها لك الان ، وما الذي تقصده بذلك ايها الاحمق المأفون ؟ حاول الخروج !.. مد ذراعك وحرك رأسك ، قم في رفق وتؤدة واعد المحاولة ، وكيف ساغ لك ان تفعل بنفسك ؟.. وماذا يكون من امر جرتي ؟.. »

ثم التفت الى الحاضرين قائلا : « احتفظوا بهدوئكم ، لقد ادير برأسي ، حافظوا على هدوئكم ، هذه مسألة ليست لها سوابق ، اسرجوا البغلة » .

ومر على الجرة بأصبعه وقال : « لقد عادت الجرة كما كانت فانتظر قليلا » ، وامر خادمه باعداد البغلة ، وحك جبهته باصابعه حكا قويا ، واسترسل يقول : « امر عجيب !.. ولست ادري ما هو خير سبيل ، انها ليست جرة وانما هي رجس من عمل الشيطان » وجرى الى الجرة لتثبيتها قائلا : « لا تتحرك ، لا تتحرك » وكان زي ديما في داخلها قد تملكه غضب شديد واخذ يجاهد كالحيوان المتوحش في المصيدة .

انها لقضية طريفة تلك القضية التي سيفصل فيها محامي ، ولا استطيع ان افصل فيها بنفسي ، فأين البغلة ؟.. اسرعوا باعدادها !.. وسأذهب الى المحامي مباشرة واعود ادراجي ، وعليك ان تنتظر في هدوء وثبات ، فمن اللازم ان ارعى حقوقي ، وساقوم بما علي من واجبات والتزامات ، وخذ انت هذه الليرات الخمس لقاء عملك الا يكفي هذا ؟..

فصاح زي ديما : « اني لا اريد شيئا ، اريد الخروج وحده »

ـ ستخرج ولكن علي ان ادفع لك اجر عملك ، فخذ هذه الليرات الخمس .

واخرج النقود من جيب صداره والقى بها في الجرة ، ثم استفسر في صوت يبدو فيه الاهتمام الشديد : « هل تناولت طعاما ؟ اتريد خبزا وشيئا آخر لتأكله ؟.. وماذا ؟.. انت لا تريد شيئا ؟ سأقوم بواجبي اذا قدمت لك ذلك » .

وامر باحضار الطعام ، وركب بغلته وذهب الى المدينة .

والذين لاحظوا حركاته وهو يركض البغلة ظنوه ذاهبا الى مستشفى المجانيب ليقيم به .

ولحسن الحظ لم يقض زمنا طويلا في حجرة انتظار المحامي ، ولكن كان عليه ان ينتظر مليا بعد ان اخبر المحامي بالمسألة ، فقد غرق الرجل في الضحك حتى تضايق دون لوللو الذي كان لا يجد في المسألة ما يدعو الى هذا الضحك ، فقال للمحامي غاضبا :

ـ اسمح لي ان اقول لك انني لا ارى ما يثير الضحك ، والامر بالقياس اليك ليس فيه ما يضر ، ولكن الجرة من ممتلكاتي .

ولكن المحامي استمر في الضحك ، وطلب منه ان يعيد على مسامعه القصة كما وقعت حتى يستطيع معاودة الضحك .

ـ لقد وضع المسامير بالجرة وهو في داخلها ، وماذا تريد يا دون لوللو ؟.. اتريد ان يظل في داخل الجرة حتى لا تخسر شيئا ؟..

فصاح دون لوللو وقد ضم قبضته : « ولم اخسر الجرة ؟.. ولماذا افقد نقودي واصير اضحوكة للناس ؟.. »

فقال له المحامي اخيرا : « ولكن الا تعرف ما يسمى ذلك ؟.. انه يسمى الحبس الجائر » .

ـ الحبس ؟... ولكن من الذي حبسه ، لقد حبس نفسه فما ذنبي ؟..

فأفهمه المحامي ان المسألة تثير قضيتين : الاولى ان على دون لوللو ان يطلق سراح سجينه في الحال اذا كان لا يريد ان يحاكم من اجل تهمة الحبس الجائر ، والقضية الثانية ان هذا اللحام عليه تبعة الخسارة التي سببتها سخافته وقلة براعته .

فقال دون لوللو فرحا سرورا : « اذن عليه ان يدفع لي ثم الجرة ؟.. »

فأجابه المحامي : « تمهل قليلا ، وتذكر انه لا يدفع الثمن باعتبارها جرة جديدة !.. »

ـ ولم لا ؟..

ـ لان الجرة كانت مكسورة كسرا سيئا ..

مكسورة !.. لا يا سيدي ، انها الان خير مما كانت وهو نفسه يشهد بذلك ، واذا كسرت ثانية فليس من الميسور اصلاحها ، وسأخسر الجرة يا سيدي ..

فأكد له المحامي ان هذه المسألة ستراعى ، وان على اللحام ان يدفع ما تساويه الجرة في حالتها الراهنة ، واشار عليه ان يحضر الرجل نفسه ليقدم تقديرا لقيمتها في بادىء الامر ، وخرج دون لوللو من عنده مسرورا واسرع في العودة الى ضيعته .

ولما رجع في المساء وجد العمال يقيمون حفلة حول الجرة المسكونة ، وكان زي ديما لم يهدأ ثائره فحسب بل اخذ يستمتع بهذه المخاطرة ويرضى عن اقامته في داخل الجرة ، واستطاع ان يقابل ذلك بالابتسام والفكاهة التي يعرفها البائسون .

وامر دون لوللو الحاضرين بالابتعاد وانحنى على الجرة وقال :

– « هلو !.. الست مبسوطا » فأجاب الرجل : « عيشة ممتعة في الهواء الطلق !.. انها خير من منزلي » .

– يسرني ان اسمع ذلك واريد الان ان تعلم ان هذه الجرة كلفتني اربعة فلورينات وهي جديدة ، فكم تساوي قيمتها الان ؟..

فسأله زي ديما قائلا : « قيمتها وانا بداخلها ؟.. »

فضحك الفلاحون الاجلاف .

فصاح بهم دون لوللو : « اسكتوا ، اما ان يكون ملاطك نافعا واما ان يكون غير ذلك ، وليس هنا احتمال ثالث ، فاذا كان غير نافع فانت غاش دعي ، واذا كان نافعا فلا بد ان يكون للجرة في حالتها الراهنة قيمة ، فما هي هذه القيمة ؟.. اني اريد تقديرك لها »

فأجاب زي ديما بعد ان فكر قليلا : « اليك ردي ، لو كنت تركتني اصلحها بالملاط وحده – كما اردت – لما كنت حبست فيها ، ولعادت لها قيمتها الاولى بلا شك ، ولكن هذه المسامير قد اتلفتها وافقدتها قيمتها فهي لا تساوي الان ثلث قيمتها الاصلية »

اي انها تساوي فلورينا واحدا وثلاثين سنتيما .

– ربما اقل من ذلك ، ولا يمكن ان يكون اكثر .

فقال دون لوللو : « احسن !.. عدني بان تدفع لي هذا المبلغ » .

فأجاب زي ديما كأنه لم يفهم المقصود : « ماذا ؟.. »

فقال دون لوللو : « سأكسر الجرة لاطلق سراحك ، وقد اخبرني المحامي ان عليك ان تدفع قيمة الجرة حسب تقديرك ، اي فلورينا وثلاثين سنتيما » .

فاستضحك زي ديما وقال : « انا ادفع !.. احب الي ان ابقى في داخلها حتى اهلك » . وبصعوبة اخرج من جيبه غليونا قصيرا قذرا واشعله واخذ يدفع بالدخان من عنق الجرة .

ووقف دون لوللو عابس الوجه ، فان فكرة امتناع زي ديما عن طلب الخروج من الجرة لم تخطر على بال محاميه ، فماذا يصنع ؟ وقد هم بطلب اسراج البغلة ، ولكن الليل اقبل ، فقال : « او هو ، انت تريد ان تتخذ جرتي دار اقامة !.. اني اشهد الناس على انك تسكنها وترفض الخروج منها لكي تفلت من دفع الايجار ، اني مستعد لكسر الجرة ، ولكنك تصر على البقاء فيها ، ولذا سأتخذ الاجراءات القانونية ضدك في الغد لانك تحتل جرتي احتلالا غير شرعي ، وتمنعني من حق التمتع باستعمالها » .

فأرسل زي ديما نفسا آخر من انفاس غليونه وقال في هدوء : « لا يا سيدي ، انني لا اريد منعك بحال من الاحوال ، اتظنني هنا لاني اريد ذلك ، دعني اخرج وانا اذهب الى سبيلي مسرورا ، اما الدفع فهذا ما لا يكون يا سيدي » .

فغضب دون لوللو وهم بركل الجرة ، ولكنه كظم غيظه في الوقت المناسب ، ثم قال : « ولكن من الذي اخطأ ؟.. انا ام انت ؟.. اتنتظر مني ان ادفع ثمن خطئك ، تستطيع ان تهلك جوعا في داخلها ، وسترى اينا الرابح » .

وانصرف ناسيا الليرات الخمس التي قذف بها في الصباح الى داخل الجرة ، وكان اول ما فكر فيه

زي ديما هو انفاق هذه النقود في اقامة حفلة ساهرة مع الفلاحين الذين صمموا على قضاء الليلة في المزرعة بالهواء الطلق ، وذهب احدهم الى الحانة المجاورة ليستحضر اللازم منها ، وكان القمر مجلو الطلعة باهر الضياء ، ولذا كانت الليلة مضيئة مناسبة للقصف واللهو .

وبعد ساعات استيقظ دون لوللو من نومه على ضجة تصم الاذان ، ولما نظر من الشرفة راى في ضوء القمر رجاله وهم يسكرون ويعربدون ويرقصون حول الجرة ، وزي ديما في داخلها يغنيهم بأعلى صوته .

ولم يستطيع دون لوللو في هذه المرة ان يكبح جماع نفسه ، وانطلق كالثور الهائج ، وقبل ان يستطيعوا منعه ركل الجرة ركلة شديدة ، فأخذت تهوي في منحدر واستمرت في طريقها ـ وقد كادت جماعة الفلاحين تجن من السرور والطرب ـ حتى اصطدمت بشجرة زيتون وتناثرت اجزاؤها وخرج منها زي ديما منتصرا فائزا .

اضطهـــاد

الحياء علة من علل الارادة وآفة من آفات الشخصية ، وقد عرفه احد من توفروا على بحث طبيعته ـ وهو الاستاذ ديجا الفرنسي ـ بأنه حاجة ماسة الى العطف وجدت ما يصدها ويدفعها او ما يغرر بها ويخدعها ، والحياء انسان عاطفي يود ان يفتح قلبه وينفض ما في نفسه ، ولكنه يحجم عن ذلك . فالحياء رغبة في الافضاء بما في النفس ، ولكنها رغبة خائبة محرومة مدفوعة مصدومة ، والحي يشك في عواطفه وأهوائه ويستريب بأفكاره وآرائه . فهو في حاجة دائبة الى ما يرد عليه ثقته بنفسه ، بل هو في حاجة الى رعاية يتفيأ ظلالها وعناية ينعم في بحبوحتها ، وكما ان الملتاث الاعصاب يبحث على الدوام عن سيد يحكمه ، واستاذ يرشده ويعلمه ، فكذلك الحي ما ينفك يبحث عن رفيق يفهمه ويبادله المودة والعطف ، ويمحضه النصيحة ، ويعينه في حل عقده ، وتذليل صعابه ، والحي يكثر من النظر في نفسه والعكوف عليها والغوص في اغوارها السحيقة ، وعلاقاته بالناس في حالة من التوتر تجعلها كثيرة الاستهداف للانقطاع ، وعقليته ليست عقلية عملية ، ومن ثم تهوله كل عقبة تعترض سبيله فيعتصم بعزلته ويود لو عاش في جزيرة نائية او في رأس شاهق .

والحياء شعور يشبه الخوف ، ولكنه يختلف عنه ، فالحياء شيء والخوف شيء آخر ، ولست اود ان اشرف المتوقحين المقاديم فأرفعهم الى مصاف الشجعان ، ولا ان اسيء الى من اتصفوا بالحياء فأسلكهم في عداد الجبناء ، والخوف ينشأ من اشياء مختلفة ، ولكن الحياء لا يثيره سوى

الاشخاص ، وقد يخشى الناس من يرهب بأسه وتتقى صولته كما يخشون الالم والموت والوحوش الضارية ولكننا قد يتملكنا الحياء بازاء اشخاص لا يملكون لنا نفعا ولا ضررا ولا يخيفوننا بحال بل قد نعلم حسن تقديرهم لنا وعطفهم علينا واغضائهم عن هفواتنا ومواطن ضعفنا ، والحي يعلم انه لا يشقى من الرجال الذين يثيرون حياءه ولكنه يعلم في اعماق سريرته ان هؤلاء الرجال قد يمسون شعوره او يثلمون اباءه ، ويسيئون تقدير بواعثه ، كما يخشى ان يخطيء السبيل الى ترضيتهم والتقرب منهم او ان يسيء اليهم بغير قصد منه ، ومن ثم مخاوفه وأوجاله وهمومه وشجونه ، فالحياء شعور مجاور للخوف ولكنه مختلف عنه ، والاقصوصة الاتية بطلها رجل قد اصطلح عليه الحياء والخوف فنكبته مضاعفة وبلواه عظيمة ، وقد جعلته اضحوكة لزملائه وحربا على نفسه ، واخلي الان ما بينه وبين القاريء :

اضطهدت بائعة الازهار الصغيرة المستر بولن حينا من الزمن .

ففي ذات مساء وقد غادر المصلحة التي يعمل بها رآها تشق طريقها في زحمة الجمهور ، وكانت فتاة ناشئة لا تتجاوز سنها الثانية عشرة او الثالثة عشرة نابية الصورة مفرطة الدمامة ، شعرها القليل ضارب الى الصفرة وعيناها المستديرتان بهما حول يجعلهما تميلان نحو انفها الافطس ، وكان يعلو وجنتيها وأنفها نمش وكان الثوب الرث الذي ترتديه يبدو كأنه منزوع من غطاء فراش قديم بال وكانت اصابع قدميها تطل من حذائها المليء بالمسامير ، وقد جمعت ثلاثة اغصان ذاوية من نبات غير معروف وكونت منها طاقة ازهار واندفعت بها ناحية انف المستر بولن ونهرت في وجهه بصوت منكر مزعج ! ..

« ازهار جميلة يا سيدي .. »

وكاد المستر بولن يمضي في طريقه لولا ان الفتاة اعادت الكرة واستأنفت الهجوم بصوتها المدوي وصراخها الملعلع ، ووقف الكتبة الاخرون والمنصرفون من مكاتبهم ليروا ما نزل بالمستر بولن ، وكان المستر بولن رجلا مستطار الفؤاد جم الحياء يخشى على الدوام ان يسيء الناس فهمه ويفزع من ان يلفت انظار الناس ويسترعي اسماعهم وفتش جيوبه ليبحث عن بنس يتخلص به من هذه الورطة ولكنه لم يجد سوى قطعة من النقود ذات ستة بنسات . وانتظرت الفتاة فلم يجترىء على ان يخيب ظنها وأذعن للقضاء واعطاها القطعة ذات البنسات الستة .

وفي اليوم التالي وجدها مترصدة له في الوقت نفسه ، وقد جلست على قاعدة نصب تنكاري واستعملت نفس الاسلوب الذي هاجمته به بالامس وكانت تحمل ضغثا من الازهار كالذي حملته في اليوم السابق .

فاستاء المستر بولن ، وتكدر صفوه وغام افقه وبان على وجهه الضجر والملل ، وناولها بنسا واحدا وسار في طريقه ، ولكن الطفلة تبعته وهي تصيح شاكية صاخبة مرتفعة العقيرة مما استرعى التفات الناس واستوقف السائرين في الطريق ، وكان منظر هذا الرجل الكهل وهو يهطع في سيره وقد ازعجته هذه الطفلة الدميمة وهي تجري خلفه صائحة صارخة مستغيثة مستنجدة من المناظر التي رفهت عن نفوس السابلة واشاعت فيهم المرح والسرور وحب المعابثة والدعابة .

وقالت احدى الفتيات العاملات لزميلة لها : « تأملي هذا الرجل البخيل الانكد ! »

واعتقد المستر بولن انه قد اصبح هدفا للسخرية ودريئة للكراهة والاحتقار ، فوقف مجهودا لاهثا واعطى الطفلة ستة بنسات كما فعل من قبل ، وكان هذا هو ما تريده الطفلة ، واعطته لقاء ذلك حزمة الازهار الذابلة .

ومنذ ذلك ظلت في كل مساء تقف له في الطريق باصرار وعناد ، ولا تقلع عن اثارة الضجة واحداث الشغب حتى يؤدي لها المستر بولن ضريبة البنسات الستة ، ولحظ ذلك الكتبة الاخرون فأوسعوه سخرية واستهزاء ، وركبوه بالعبث والدعابة ، ولقي من ذلك الويل وعانى ابرح الالم ، واضيف الى ذلك ان زوجته كانت شديدة الشح والحرص فهي لاتفتأ تحاسبه على ما ينفق حسابا عسيرا وتلزمه مراعاة الاقتصاد التام ، وكانت ضريبة البنسات الستة اليومية تثقل كاهل ميزانيته ، وترهقه عسرا ولم يستطع ان يغطي هذا العجز في بنود مصروفاته الا بحرمان نفسه من تناول لفافات التبغ .

وثقل عليه هذا الكابوس ، ونغص عليه حياته ، واصبح الخلاص من هذه الطفلة شغله الشاغل ومشكلته المحيرة والهم الذي يقض مضجعه ويظلم عيشته ونبذ فكرة الاستعانة بالشرطة لانه لم يعرف على وجه التحديد ما يستطيع ان يتقدم به في شكواه وكان يخشى ما ينجم عن ذلك من الارتباكات والتعقيدات ، وفكر في ان يغادر المصلحة من باب اخر ولكنه لم يجترىء على ذلك ، ومرت اسابيع وهو يؤدي الضريبة صاغرا وكانت الطفلة لا تزال تتعقبه وتترصده ولا تكف عنه ، وصار يعطيها البنسات الستة قبل ان تنبس بكلمة او ترسل صيحة وكانت تتبعه نظرات زملائه الساخرة وهو يقدم لها الاتاوة المعلومة ، وكان يود لو صارح الطفلة بأن تنتظره في مكان بعيد عن الانظار ، ولكنه لم يجترىء على ذلك .

وساءه حرمانه لنفسه من لفافات التبغ ، وكبر عليه ان يظل موضوعا للفكاهة والتندر وخشي ان يبلغ الامر مسامع زوجته ، واخذ يستنبط الحيل ويستفرغ الجهد لتفريج هذه الازمة وكشف تلك الغمة .

ولما تزايد ألمه ولم يجد له حيلة بدا له ان يذهب الى احد اصدقائه يسأله الرأي ويلتمس النصيحة وكان هذا الصديق موظفا حازما جزل الرأي ، فأصغى اليه في شيء من السخرية العاصفة وهو يروي قصة نكبته المؤثرة والامه المبرحة .

« اريد ان اتخلص منها ، ولكني لا اود ان يحدث ما يدعو الى الاسف ، ولا اريد ان يعلم احد بأنني قدمت شكوى » .

فقال له صديقه : « هون عليك ، فالخطب يسير ، وهناك مؤسسات كثيرة من مؤسسات البر والاحسان ، ولن يحدث شيء مكدر ، فاطمئن من هذه الناحية ، وسأتولى الامر بنفسي واذهب الى المكان الذي تقف فيه الطفلة مترصدة لك عند باب الديوان ، وسأعرف خبيئة امرها ، وارى والديها – ان كان لها والدان – وسأنقلها الى المكان المناسب ، وستتعلم هناك حرفة من الحرف ، وسأرتب الامر بحيث تستطيع كسب شيء بطريقة مباشرة ، وسيكون هذا خيرا لها واجدى عليها من التسول في الشوارع والطرقات » .

فشكره المستر بولن شكرا مستفيضا حارا وتركه مطمئن النفس عظيم الثقة ، وفي مساء ذلك اليوم اعطاها البنسات الستة راضيا مغتبطا ، بل نظر الى معذبته نظرة تنطوي على العطف لانه ربما كانت هذه آخر مرة يراها .

وهكذا كان ، ففي اليوم التالي لم يلح له شبح الفتاة بالمكان المعهود وشعر المستر بولن بأنه رجل حر وتنفس بطلاقة وارتياح واحس ان الحمل الذي اثقل كتفيه قد زال فأشعل سيجارة وسار الى منزله يختال في برد جديد من الشباب والفتوة ومر عليه يوما وهو هادىء البال آمن السرب ، ونسي كابوسه الضاغط وهمه الملازم ، وفي مساء اليوم الثالث خرج من الديوان في الوقت العادي ، ولما بلغ الشارع تلقى صدمة شديدة طاش لها لبه ووهن جأشه ، وامتقع لونه ، ووقف حائرا لا يكاد يصدق عينيه ،

واسقط في يده ، وتخاذل واضطرب وجمد مكانه فقد رأى الفتاة الناشئة هنالك على الاقل اذا لم تكن هي بالذات فقد كانت طفلة تشبهها الشبه كله حذوك النعل بالنعل ، وابصر المستر بولن نفس العينين الصغيرتين الحولاوين ونفس النمش الذي يعلو الوجه والشعر الاصفر ، ومهما يكن الامر فقد كانت هذه الطفلة اصغر سنا ، وكان يتدلى حول جسمها ثوب بال متخذ من غطاء فراش رث قديم وكان حذاؤها الثقيل المسمر لا يكاد يحتوي قدميها ، وقد اقبلت من ناحية قاعدة النصب التنكاري حيث كانت ترقب قدومه فلما ابصرته اسرعت اليه وهي تلوح بطاقة من الزهر الذابل غير المعروف وصاحت بصوت يصم وان كان يسمع :

« ازهار جميلة ياسيدي .. »

« حسن ..حقيقة ! » ثم تمتم قائلا : « ماهذا ... ماذا في الامر ؟ » وغلب على امره وتراخت قواه ونفدت حيله وارتبك .

وقالت الطفلة في حماسة وجرأة : « اني اختها .. اتعرف الحظ الحسن الذي صادفته سلينا ؟ .. لقد اخذوها الى بيت تحصل فيه على رزقها ، ولقد سر نلك والدتي ، وقالت لي سلينا : « هناك سيد ينتظر في كل مساء طاقة من الزهر ، ويدفع ثمنا لها ستة بنسات ، ولا يستطيع الانسان ان يتخلى عن مثل هذا السيد ويتركه في حيرة من امره » وكلفتني بالبحث عنك ووصفت لي ملامحك وسماتك ، وانا كما ترى صغيرة لا احسن مهنة من المهن ولقد اخذت مكانها في بيع الازهار » .

واخذت تهز الطاقة في ثقة واطمئنان ولم ير المستر بولن مندوحة عن الاستجابة لامرها والنزول عند ارادتها واخذ يفتش جيوبه باحثا عن قطعة من النقود ذات ستة بنسات .

الى الاصقاع المجهولة

جاكوب فاسرمان كاتب موهوب وروائي بارع قدير ، في طليعة الروائيين الالمان الذين ذاعت شهرتهم في الثلث الاول من هذا القرن وكتابته لا تتسم كما يبدو لي بالاشراق والصفاء والاتزان ، وانما تمتاز بالجدية والصرامة والقوة ، فلا يطالعك من صفحاته الروض الناضر او الصباح البسام ، وانما تشرف منها على الليل المدلهم والعاصفة العازفة وهو لا يكشف لك عن حرية الانسان وقوته ومجده وعظمته وانما يريك مصارعة الانسان لاحزانه العميقة وهمومه الشديدة ، ومطاردته لاهوائه العنيفة وشهواته الغلابة وربما كانت قوة شعوره اعظم من قوة فنه وهو اقرب الى طراز بيرون منه الى طراز جيتي .

وفاسرمان مثل هيني الماني من اصل يهودي ، وقد ولد في فورث ببافاريا في سنة ١٨٧٣ ، وكانت اسرته تشتغل بالتجارة ، ولكنه نشأ ميالا الى الادب وكانت امنيته ان يصبح كاتبا ولم يعجب اسرته هذا الاتجاه الشاذ فتخلت عنه وتركته يحتمل تبعة اختياره ويشق طريقه ويبني مستقبله ونشبت معركة شاقة طويلة بينه وبين الفقر اعانته زوجته الوفية الصابرة العاطفة على احتمال مرارتها والتمرس بآفاتها حتى فاز وانتصر في النهاية وارغم الالمان على العناية بأدبه والاستماع الى صوته .

ويشعر قارىء قصصه بنفسه الملتاعة الجادة المعذبة وهو عاشق للحياة مفتون بها ولكنه في نفس الوقت كاره لها ناقم عليها وهو يعجب بالدافع الاخلاقي الكامن في الانسانية ولكنه يندد بالفرد ويراه اخيذ اهوائه ونزواته وهو يؤمن بالسعادة ويسعى اليها ولكنه لا يظفر بها وكتبه تحمل طابع نفسه

الثائرة المهتاجة الساخطة المتبرمة ولكن هذه النفس برغم نلك زاخرة بالعطف لمن يستحقه وقد كان فاسرمان بطبيعته من الميالين الى العزلة والانفراد . وهذه القصة التي اقدمها للسادة القراء لون من ابه يكشف عن مزاجه ويبين اتجاهه ، وقد توفى فاسرمان في سنة ١٩٣٤ .

في نلك العصر الغابر يوم كان انقشاع غيمات المجهول عن عوالم جديدة يثير خواطر الناس في اوربا القديمة ، كان يعيش في اسبانيا رجل من الاشراف قد املق اسمه جيرونيمودي اجويلار وكان محبا للتجواب مستهاما بالرحلات والاسفار ومنذ اصبحت اعمال كرستوف كولمبس وغيره من الابطال حديث الاقوام لم يكن له سوى غرض واحد يهدف اليه ولا يتزحزح عنه وهو ان يفعل كما فعلوا .
وهو مطلب من السهل التحدث عنه ولكن من الصعب العسير تحقيقه وادراكه وكانت كبرياء جيرونيمو تأبى له ان يلتحق باحدى السفن نوتيا او جنديا او حتى كضابط مساعد ولاجل ان يكون قائدا حتى لاصغر حملة كان لا بد ان يكون عنده مال او ان يكون له انصار اقوياء ولذا لم يكن في وسع جيرونيمو سوى ان يعكف على نفسه صابرا بالرغم من انه كان يقول لنفسه ان كل يوم يمر به يسلبه فرصة لا تعوض ، وكان يقضي لياليه ساهرا مكبا على الكتب القديمة والخرائط الحديثة ، وقد كاد يذهب بعقله الطموح اليائس والتلهف على العمل وكان من الصباح الى المساء ماينفك يزور اصحابه وعارفيه ويجلس في قاعات استقبال العظماء والاعيان ويقدم الالتماسات والشروح الضافية وكلما خاب له امل اشتد اصراره الجنوني ، وكلما بذل له وعد لا قيمة له ازدادت الرغبة استيلاء على نفسه وتمكنا منه .

وكان يقسم بأن ما فعله كولمبس المحدث الشهرة ليس بشيء ويقول : « اذا اتيح لي ان اصنع ما اشاء فاني سأعيد كشف الاتلنتيس التي عرفها القدماء وافتح الاقطار التي بها من الذهب ماهو اكثر مما في بلادنا من الاحجار التي نرصف بها الطرق وارد اليكم سفنكم موسقة بالكنوز التي تمكنكم من ان تعطوا اطفالكم الجواهر ليلعبوا بها كما رأيتم في دار الخزانة الملكية ولكن لا تتريثوا اكثر من نلك فان ليالي الزمان حبالى يلدن العجائب ! »

وكان يكثر من ارسال امثال هذه الكلمات الملتهبة وكانت عيناه السوداوان وهو يتحدث تشتعلان كأنما كانت النيران الجامحة مضطرمة في نواحي نفسه وكان الكثيرون بطبيعة الحال يعتقدون انه مذاع والبعض كانوا يعتقدون ان به مسا من الجن ولكن كان هناك فريق من الناس يرون ان الذي يخاطر بارساله عبر البحار قد يجتني ثمرة نلك وان الذي يشعر بأن في طوقه القيام بالاعمال العظيمة ليس في حاجة الى ان يتحدث عنها في تواضع معلم المدرسة .

وفي ذات يوم دعا الكونت كالنجوس جيرونيمو الى منزله ، وكان هذا الكونت من الحجاب السابقين المبعدين عن البلاط وكان غنيا غريب الاطوار فلما جاءه جيرونيمو اشار الى منضدة مليئة بالنقود الذهبية قائلا : « هنا ما يعادل عشرة الاف بيسيتا ، ولقد سمعت ياسنيوردي اجويلار عن خططك ومقاصدك وانا مستعد لاعطائك هذه النقود لتستعين بها على بلوغ غرضك فجهز بها سفينتي المسماة هيلينا الراسية في ميناء قادس وانا امهلك ثلاثة اعوام فاذا لم اسمع عنك شيئا فسأعتبر اني قد فقدت السفينة والمال والملاحين ولكن اذا عدت خائبا فلن اكتفي باعتبارك ثرثارا مذاقا بل سأجد الوسائل التي اعاقبك بها على اجترائك وادعائك » .

ومثل هذا الحديث في اي مناسبة اخرى كان يجعل دم جيرونيمو يغلي ويفور ولكنه في تلك الاونة اشاع في نفسه السرور العظيم وبدون ان ينبس بكلمة اخذ يد الكونت وانحنى وقبلها .

ولم يلبث جيرونيمو الكثير الكلام والذي ينقصه التحفظ وضبط النفس ان اصبح صامتا رزينا رابط الجأش ، ولما اخذ يشحن السفينة بالرجال والعتاد عرف كيف يفيد مما تعلمه من نجاح الذين سبقوه واخفاقهم واظهر في ذلك من القدرة وحسن الادراك واصالة الرأي ما جعل الجميع يثنون عليه وفي مطالع الخريف كان قد اتم استعداده وفي صبح وضاح الجبين من احد ايام شهر اكتوبر اقلعت السفينة مشيعة بهتافات الجمع الغفير من الناس وقد وقف جيرونيمو على منصة السفينة ثم وثب الى اعلاها كاللهب على حين كانت بلاده ترسل اليه هذه التحية الاخيرة ولم يترك وراءه قلبا ينبض بحبه ولا شيئا من حطام الدنيا ولا اصدقاء حتى ولا كلبا ! .. كان وحيدا مستفردا وكان يعرف ذلك ولا يأسف عليه وقد نسج حول نفسه غشاء رؤيا لماعة سادرة للابصار ولم يكن في حياته مكان للحب او العطف .
وانطلقت السفينة تشق طريقها غير مبالية بالرياح ، وكان كل من عليها قد شخصت ابصارهم نحو الغرب الغامض الخفي وشعر الجميع حتى الملاحون الغلاظ بأنهم قد سرت في أجسامهم تلك الرجفة الخرافية حينما اخذت النجوم التى الفوها منذ نعومة اظفارهم تغور وتختفي وقد حذرهم من الاخطار المدخرة لهم منظر السماء الجديدة ومظهرها المجهول وسحبها المتألقة ... وكان جيرونيمو وحده لا يفكر في غير الشهرة التي تنتظره وكأنما كان يرصد احلامه الملك ميداس ويحول رغباته وآماله الى ذهب وهاج لانه كان يعلم ان الثروة الضخمة التي سيجمعها في سرور ولهفة هي الوسيلة الوحيدة لنيل الشهرة والضمان الاكيد لكسبها .

وكان بالسفينة راهب قد قام برحلة عبر المحيط قبل ذلك وحل بجزيرة هيسيتولا ، وكان قد ارسل الى هناك من قبل الطائفة التي يتبعها للتبشير بالديانة المسيحية وادخال اهل الجزيرة فيها وطالما تحدث وقد بدت على وجهه امارات الحزن عن قسوة الاسبانيين وفظاظتهم في تلك الجزائر الجميلة وكيف كانو يخدعون الاهالي السذج ويخونون ثقتهم ويغدرون بهم وكيف كانوا يحيلون تلك الاقاليم النضرة المزدهرة خرابا بلقعا بسبب جشعهم الذي لا تشبع نهمته ولا يرتوي ظمؤه فكيف تجد كلمة المسيح المخلص طريقها الى قلوبهم وقد جعلت الخيانة والقتل والنهب والسلب ديانة هؤلاء المبشرين المتحمسين لا تبدو الا في صورة النفاق والرياء ؟ ..

وكان جيرونيمو يستمع في غير اكتراث الى كلمات الراهب ولكن اذا ذكر اسم كولمبس او اي جرىء آخر من الملاحين الذين خلفوه كان يضغط قبضة يده ويعلو وجهه المستطيل ما يشبه اصفرار الموت .
وفي الاسبوع السادس للرحلة ثارت زوبعة عاتية استمرت اياما ودفعت بالسفينة بعيدا عن مجراها الى الناحية الشمالية الغربية ، وقطعت الصواري وكسرت الدفة ، وكانت السفينة تترنح وتضطرب عاجزة قليلة الحيلة في مياه بحار لا يعرف مداها ولما ارسل احد الملاحين الصيحة المنتظرة في ذات صباح قائلا انه قد شاهد الارض اعتقد من في السفينة انهم قد نجوا ولكنهم نظروا الى الشاطىء في خوف ووجل لانهم كانوا يجهلون اين هم ولا يعرفون المصير الذي ينتظرهم ولما دانوا الشاطىء لحظوا في رعب الامواج المزبدة الهادرة المتلاطمة ، وقبل ان يفكروا فيما يعملون لتلافي هذا الخطر الماحق ارتطمت السفينة في صخرة شاهقة وسرعان ما امتلات بالماء ، وكان الموج الجارف قد حمل الملاحين في

بدء الغاشية واختطفهم وفقد الاخرون حياتهم وهم يحاولون الحصول على زورق ينجيهم من الغرق ، وفي وقت قصير ابتلع البحر السفينة وملاحيها .

وربما كانت رغبة جيرونيمو القوية الجبارة في ان يعيش ويعمل هي التي انقذت حياته فان العناصر نفسها لا قبل لها بمقاومة ارادة امثاله على حين يهلك حوله الرجال الاضعف منه ارادة فقد حملته موجة ضخمة هائلة الى مسيل من الماء بين شعب من الصخور الصياخيد ، وقذفت به الى الارض ، ولما ثاب اليه وعيه بعد ان ظل حينا من الزمن فاقد الرشد وجد نفسه محاطا برجال في ملابس عجيبة وقدم له احدهم شيئا ليشربه في وعاء من النحاس ، واعانه آخر على القيام ، وساروا به الى قرية كبيرة واستفسروه بالاشارة عن الجهة التي جاء منها فأشار الى ناحية الشرق ودنا منه بخطى رزينة متئدة بعض الاشخاص الذين لا يمكن الا ان يكونوا من رجال الدين ، واقترب منه كذلك قوم قد زينوا بالازهار والثياب المخملة رجح انهم من العلية والسراة ، وكانوا يخاطبونه بلغة عذبة رخيمة الحواشي ، وكان يجاوبهم بلغة بلاده ويشير اشارات معبرة تارة الى السماء وتارة الى البحر ، واخرى الى ثيابه الممزقة .

وفي اليوم التالي استقدموه الى مدينة اثارت دهشته بشوارعها الجميلة واسواقها وحدائقها وقصورها وابراجها وحصونها واقتادوه للمثول امام عرش امير شاب كان يلبس قباء ابيض اللون تشوب بياضه زرقة مرصعا بالزمرد وينتعل خفا محلى بالذهب وحيا جيرونيمو تحية ودية ونظر اليه نظرة تشي بحب الاستطلاع الساذج . وما ادركه جيرونيمو من حياة القوم وسلوكهم اوجد في نفسه الشعور بما عند هؤلاء القوم من ثروة وجمال ، وافهم انه لن يعامل معاملة الاسير ، وانما يعامل معاملة الضيف ، وقادوه الى منزل قرب قصر الامير اعد لاقامته .

ولم يعرف جيرونيمو بطبيعة الحال انه في بلاد الازتك الواسعة الرقعة المترامية الاطراف والتي كانت كل مقاطعة منها تكون مملكة قائمة بذاتها ، ومنها المقاطعة الواقعة على الشاطىء حيث استهدف للغرق ، ولم تكن اقدام الاوروبيين قد وطئت بعد تلك الارض ، ولم يعرف كذلك اي سماء تظلله وفي بعض الاحيان كان يخال انه قد نقل الى كوكب آخر ، وكان كل شيء يبدو له عجيبا ، سواء في ذلك الهواء الذي يتنفسه او الملابس التي اعطيت له وكل شجرة وكل حيوان وكل عين تنظر اليه وكل صوت تسلسل في مسمعه .

وفضلا عن الوحدة التي قضي عليه بها لاقامته بين قوم خالهم من المستوحشين كان يستوقد ألمه فكرة انه قد حالت بينه وبين بلاده بحار لا يمكن اجتيازها وخوض عبابها ، وكان يلحظ مظاهر الثروة الباذخة حوله بناظر الطامع السلاب ، وكان يلحظ ويدور في نواحي تلك البلاد العجيبة بعين الغريب وارتياح الغازي المنتصر ، وكانت عنده بمثابة حلم حالم او صورة ساخرة ، ولقد بلغ غايته ، ولكنه لا يستطيع ان يجني ثمرة مجهوده . وسيظل العالم الذي كشفه سرابا حتى يستطيع ان يوافي بأخباره ملكه وبلاده ، وكان يعد نفسه المالك الحقيقي لكل ما يراه حوله وينظر الى القوم واميرهم كأنهم خدمه وحشمه ، ولقد اصبح في حوزته كنز لا ينفد ، ولكن القدر الساخر الذي ارغمه على ان يقضي وقته في تقاعد وجمود كان يدفعه الى اليأس المرير ويجعله يقضي الليالي متضورا من الألم يرسل الى السماء التوسلات التي تحوي من الفاظ الجحود والتجديف اكثر مما تحوي من الفاظ التقوى والتضرع .

وسرعان ما لحظ انهم يتجاهلون في امره ورغم ما اظهروه له من الود والعطف فقد شعر بأنهم يراقبونه مراقبة متصلة وان كل خطوة من خطواته تقتفى بعناية وانتباه وكان بطبيعته قوي الملاحظة وقد زاده البؤس قوة في ادراك ما حوله وقد تعلم ان يفهم جانبا كبيرا من لغة القوم وكان قد عهد الى اثنين من الشبان في حراسته فأوقفاه على جلية الامور ، وفي ذات يوم احس ان حوادث عجيبة في طريق الوقوع وان نهاية خاصة تنتظره .

وكانت هناك نبوءة شائعة بين الازتك مضمونها ان ابن الشمس ـ وهو اله او نصف اله ـ سيجيء من الشرق ليعلمهم ، وبعد مجيء جيرونيمو اخذ الكثيرون يعتقدون انه هو الذي كان وجوده منظورا منذ زمن ومن ثم ذلك الخوف والتواضع الذي لحظه في سلوك من كانوا حوله ولولا انه دائم التفكير في بلواه وكارثته لشغل ذلك باله واسترعى انتباهه وكان هناك فريق اخر يخالفون اخوانهم ولا يرون رايهم في هذا الرجل الغريق وكانت حجتهم التي يصولون بها هي ان ابن الشمس لا بد ان يظهر في صورة ملؤها البهاء والروعة ، ولا يجيء كهذا العاجز الذي رمت به الامواج .

وكان الفريق الاول يردون عليهم قائلين ان مجيئه على هذه الصورة قد يكون حيلة ومكرا من الالهة اما رجال الدين فقد تشبثوا برأيهم في ان جيرونيمو احد افراد سلالة مجهولة وانه بالرغم من ثقافته العالية ووسامته فانه يجب الحذر من خيانته وان الخطر من ناحية قوم هذا الغريب يتهددهم ، وانه يجب ان يضحي به ويحترق قلبه فوق كتلة من اليشب تكريما لالهة الحرب

ورأى الامير وحاشيته من الاشراف ان واجبات الضيافة لا تتفق مع نصائح الكهنة واستمر الخلاف وطال الجدال حتى استدعى الامير جماعة ممن كان عملهم الفصل في امثال هذه الامور وخاطبهم قائلا : « يجب ان نتحرى العدل في الحكم على هذا الغريب ، فاذا كان من اصل مقدس فانه يجب ان يكون في مستطاعه ان يقدم البينة التي تثبت ذلك فما هو الدليل على القداسة عندكم ؟ .. اني ارى ان دليل القداسة هو القدرة على كبح ذلك الميل الذي يغزو قلوب الرجال ويهيمن عليها وهو حب المرأة فلنمتحنه ونبلوه فاذا فشل في الامتحان كان الحق في جانب الكهنة ، واذا صابر واحتمل عاش معنا في امن وسلام » .

ووافق الجميع على رأي الامير السميذع ، وكانوا واثقين بأنه سينفذ خطته في احكم السلوب ، ولم يدرك جيرونيمو ما كان يدور حول مصيره ولكنه احس الخطر وتوقع الشر وهداه فكره الى ان يتقدم الى الامير بطلب ليتبين من حديثه حقيقة الموقف ولذا ارتمى على قدمي الامير وسأله بالكلمات القليلة التي تعلمها ان يسمح له ببناء سفينة ، وكان يعلم ان هذا غير ممكن لان المكسيكيين لم يكن عندهم فكرة عن بناء السفن ولو ان الادوات الناقصة التي كانوا يستعملونها كانت تمكنهم من الاتيان بالخوارق في البراعة والاتقان وكان قلق جيرونيمو وقلة اصطباره والامه الموجعة تجعله يفكر في عمل زورق قد يستطيع على صغره وقلة اتقان صنعه ان يمكنه من الوصول الى احدى الجزر الاسبانية

فأجابه الامير في الفة وسرور : « لاي شيء تريد السفينة يا مالينش ؟ » . (وكان هذا هو الاسم الذي اطلقه الازتك على الغريب الحزين) .

فأجابه جيرونيمو : « لكي اعود الى بلادي » .

فقال الامير الشاب : « لا نستطيع عمل سفينة تحملك الى بلادك » .

فأجابه جيرونيمو وقد ثارت رواقده : « مر نجاريك ان يعملوا ما اشير عليهم به ، وبذلك تبنى السفينة » .

فأجاب الامير في لبس وغموض دون ان تفارقه رقة حاشيته المعهودة : « لن يكون ذلك اليوم ولكن ربما يكون حينما يهل الهلال الجديد » .

وعرف جيرونيمو من فحوى كلام الامير مدى المهلة التي منحت له ، لان الهلال حينذاك كان جديدا وشرع من تلك اللحظة يرصد انتباهه ويأخذ حذره ، ولكن من يعلم ماذا كان سيصيبه لولا انه في ذات يوم وهو يمشي في حدائق الامير ومعه الخادمان الموكلان بحراسته انقذ غلاما من مخالب فهد ، وكان هذا الحيوان المفترس قد انطلق من محبسه وهاجم الغلام واصابه بجروح دامية فهرع اليه جيرونيمو واستحث الخادمين على استعمال سلاحيهما وازعج الفهد بصيحاته ، وفي اليوم التالي حضر الى منزله والد الغلام ، وكان شيخا وقورا مرتديا ثيابا فخمة وشكره شكرا حارا مؤثرا واخذ يطيل النظر اليه ثم انحنى فجأة على اذنه وهمس فيها قائلا : « اذا لست امرأة ايها الغريب هلكت » .

وبعد ان حذر هذا الشيخ الابيض اللحية جيرونيمو وغادر منزله قتل نفسه لان ضميره لم يستطع ان يحتمل خيانته لثقة الامير وبعد ذلك بأيام قلائل جاء الى جيرونيمو رسول من قبل الامير وابلغه على لسانه هل يرغب في الزواج من احدى فتيات البلاد ؟ .. فحنا جيرونيمو راسه الى الارض واكتفى في الرد على هذا العرض بأن هز راسه في جد ووقار وبعد ذلك بساعات جاءه رسول آخر واعلنه بأن فتاة بارعة الجمال جمة الثراء عريقة الاصل على جانب كبير من الاخلاق الحسنة ارادت ان تكون له زوجة وانه مما يسوء الامير ان يرفض هذا واكد هذا الاصرار والالحاح عند جيرونيمو ما يرمي اليه الامير فلزم الرفض والتمنع .

ولما استفاق من نومه في خلال الليلة التالية اشتد تعجبه اذ وجد نفسه في غرفة غير الغرفة التي تعود ان ينام بها ، وكان الضوء ينفذ الى هذه الغرفة من اعلاها وكان الغبش الذي يملا الغرفة يضرب الى الزرقة ، وان ارض الغرفة مغطاة بالطنافس وحيطانها مزدانة بالازهار الناضرة التي كان لعطرها الفواح تأثير خاص في جيرونيمو ، فقد انامت عقله وايقظت حواسه وكان للازتك فن في مزج العطور يكاد يكون لونا من السحر وكانوا ، يحدثون بذلك تأثيرا كالتأثير الذي تحدثه العقاقير والمشروبات المخدرة ، وكانوا يكلفون بالازهار ويؤثرونها على كل شيء ويقيمون لها حفلات يتزين فيها الناس بالازهار سواء في ذلك الرجال والنساء والاطفال ويجوبون الطرقات في مواكب حافلة .

ورأى جيرونيمو ستة عشر شابا يدخلون الغرفة يقتربون منه حاملين في ايديهم اشياء جميلة بينها انسجة مسيرة بالذهب واحذية ملبسة بالذهب واسلحة مزخرفة ووعاء ملآن بالجواهر المختلفة الالوان وتماثيل صغيرة مصنوعة من العقيق واللجين غاية في الاناقة والاتقان وسنابل ذهبية من الحنطة الهندية ، ووضع الشابان الاخيران امامه حوضا ينبعث منه شعاع ذهبي براق وعلى جوانبه حيوانات وطيور صغيرة مصنوعة من الذهب وكان جيرونيمو ينظر الى هذه الاشياء وقد بهر التعجب انفاسه ولما اخبره اكبر الشبان الذين حملوا هذه الكنوز سنا ان هذه الاشياء كلها له ، قال لنفسه ان مثل هذه الطرف الثمينة تكفي لجعل مقاطعة من مقاطعات اسبانيا غنية برمتها ولكنه كان يغض طرفه ويضع قبضتي يديه المشدودتين على صدره وقد احس الخطر الكامن وراء ذلك .

وبعد هنيهة رفع عينيه فرأى اثنتي عشرة فتاة عذراء واقفات الى جانب حائط الغرفة شعورهن في سواد العاج ، وكن جماعات وكل جماعة مكونة من ثلاث فتيات وكانت ايديهن البارعة الصناع تعمل دائبة ثم اخذن يتضاحكن كأن العمل الذي كن مقبلات عليه كان مجرد مظهر ، ثم بدأن يرقصن صامتات ، ثم اخذن في الغناء بأصوات عذبة ندية ولكن جيرونيمو اغمض عينيه واعرض عنهن وخبأ وجهه بين الوسائد وظل كذلك غير مبال بما يحدث حتى ادركه النوم وفي صباح اليوم التالي لقى نفسه في حجرته وفي منزله ، وكان يشعر بالتعب وخمود الهمة ، وحاول ان يتغلب على ضعفه بأن يرسل افكاره عبر المحيط الى بلاده .

وفي الليلة التالية استيقظ في حجرة الازهار ولم يستطع ان يفهم كيف جيء به اليها واستنتج انه قد وضع له مخدر في الطعام او الشراب وكانت ازهار الامس بيضاء وزرقاء ولكن ازهار اليوم كانت حمراء قانية وسمع صوتا كصوت الطبل المقبل من بعيد تلاه صوت قرع الصنوج واضحا جليا وصيحات الطرب والضحك وانسجم في اذنه بعد ذلك عزف طويل النغمات منبعث من ناي وكان ذلك كله يحدث والظلام شامل منشور الذوائب وبينما كان جيرونيمو يفكر كيف يتوقى الخطر ويدفع الشر عاد الضوء الى الحجرة ودخلت خمس فتيات كل منهن تحمل زمردة وكانت احدى هذه الزمردات في صورة حلزون واخرى كانت في صورة الشمس والثالثة كانت تمثل سمكة عيناها من الذهب والرابعة كانت تشبه الخاتم ، والخامسة كانت تمثل كأسا قاعدتها من الذهب بديعة الصنع .

وقدمت له الفتيات الزمردات الخمس وهن راكعات امامه قائلات له : « ان توشروا ترسل اليه هذه الهدية » ثم تقدمت من الدائرة المكونة منهن امرأة محجبة فصحن قائلات : « توشروا » .

ولما ركعن ازاءها حيتهن بصوت رخيم ساحر واضح النبرات وكان حول جيدها عقد من اللؤلؤ يهفو على صدرها ويتألق في خمار من السندس المذهب ، فاصفر وجه جيرونيمو ونأى بجانبه ... واخذت الانغام الموسيقية العذبة تنسكب في اذنه من كل ناحية ، وحاول ان يحول التفاته الى ذلك بالتفكير في رغباته التي لم تتحقق ، ويرسم لنفسه صور عودته الى بلاده ونجاحه في النهاية ... وكان الضوء الذي اخذ يضعف في الحجرة يريه « توشروا » كالخيال .

وفي الصباح وجد نفسه في فراشه متعبا منهوكا حزينا موجع القلب وامضى النهار في تبلد وتراخ ولم يزره احد وكان الخدم دائبين على الحركة في صمت وشعر بأن عيني توشروا مصوبتان اليه وكان يضطرم في صدره اشتياق مشوب بالالم ، ولما اقبل المساء جاء الى حجرته كاهن نحيف البنية عابس المحيا ابيض الشعر وبعد ان حدجه طويلا بنظرة الفاحص المستفسر قال له : « اعلم أيها الغريب انك اذا ظللت محتقرا توشروا فانها ستقضي نحبها » .

وبعد ان نطق بهذا الكلام غادر المنزل وترك جيرونيمو في خوف ووجل ، ولم يحدث شيء في الليلة التالية ولا في الليلة التي جاءت بعدها ، ولم يكن جيرونيمو مسرورا من هذه الحال ، وكان يعلم الحيلة الدالة على الدهاء العميق التي املت هذه المهلة وكان يعرف كذلك عجزه الذي يفرض عليه الصبر وفي الليلة الثالثة وجد نفسه تحت قبة مقوسة عالية ، وكانت هذه القبة قائمة على اعمدة في حديقة تضيئها مشاعل زرق صغيرة . ولم يكن يبدو في هذه الحديقة سوى حيطان المظلات ، وكانت في داخل المظلات تجثم طيور بيض ، وكان جيرونيمو يرى وجوها تشرق هنا وهناك وصورا تنساب ثم تختفي ، وكأنما القى على وعيه ستارا وتمنى حضور توشروا واخذت ايد خفية تكدس الاموال حول فراشه وغص الهواء

بالتنهدات والحسرات وامتدت في الظلام ايد عديدة وكانت الراقصات يخطرن على مقربة منه وصار يغمض عينيه حتى لا يرى شيئا فلا ينفعه الاغماض وتظل الصور الخاطفة مارة امام ناظريه وملأ اريج المكان خياشيمه .

وسمع جيرونيمو وقع خطوات وهفيف ثياب ففتح عينيه فرأى جماعة من النساء الجميلات وفي وسطهن ظهرت توشروا ، وكان وجهها ينم عن حزن ومعاناة الالم ، وظهرت هناك العواطف الصريحة والشعور النبيل وحذر جيرونيمو الذي بدأ يضعف ويتهافت من المصير المحتوم فالموت له اذا قبلها والموت لها اذا رفضها وجاهد الخطر الاخير وغطى وجهه بيديه وغاص في فراشه وظل بلا حراك .

ولما مضى الليل صمم على ان يفتح عينيه ويرى فأبصر موكبا من البنات والصبية في ثياب بيض وقد وضعوا في شعورهن ازهارا بيضاء وادرك ان هذا الموكب جنازة .

وغمر جيرونيمو الحزن وغلبه على امره ولكن حزنه استحال ذهولا ودهشة في الليلة التالية حينما احضر الى منزله مثل هذا الموكب جثة توشروا الحسناء فقد سالت الدموع من عينيه على خديه وفارقت نفسه الاهواء جميعها حتى طلب الشهرة ، واصبح لا يبالي بشيء ولا يرى شيئا يستحق ان يبذل الانسان جهدا في نيله ، وخال نفسه شيئا جامدا لا حياة فيه قد نأى عن تأثير الحياة والموت واصبح يشعر بأنه كان في ايامه الماضية انسانا لا روح له ولا يملك شيئا لانه لا يحب شيئا فلا الموسيقى ولا الرقص ولا الغناء تؤثر الان في نفسه لان الموت قد ظهر على المسرح ...

وبعد ليال قلائل ايقظه من نومه لفيف من الشبان وقادوه الى الخلاء وساروا به الى حصن شاهق ولما شرع جيرونيمو يتسلق سلالمه خيل اليه انه عارج الى السماء وكان يشعر بأنه قد شفي من الالام التي برحت به ولوعت نفسه ولما بلغ قمة الحصن راى امامه معبدا واقبل كاهنان للقائه وركعا امامه والصقا جبهتيهما بالارض تقديرا لتوفيقه في اجتياز الامتحان ، وفي تلك اللحظة استولى على نفسه اعتزام مصمم لا رجوع عنه مضمونه انه لا يفعل شيئا من شأنه ان يقدم معلومات للاوربيين عن هذه البلاد .

ومن يحاسبه على ذلك ؟ .. ففي بلاده لا بد انهم اصبحوا يعتقدون انه قد ابتلعته لجة البحر ، وربما لا يقذف البحر بملاح غريق على هذا الشاطيء الا بعد عشرات السنوات ان لم يكن بعد قرون عدة .

فما اعجب هذه الحالة ! ..رجل يكشف ارضا جديدة ويتصور خطة لاخفاء ما كشفه كالذي يخبىء شيئا ثمينا وجده في خزانة الثياب ! ..

واحب جيرونيمو تلك الارض الخصبة المثمرة ، وهذه السماء الزرقاء الحارة ، واحب الجبال التي تبدو كأنها مشيدة من الرخام الاصفر ، والغابات العريقة في القدم التي لا يمكن اجتيازها واشجار الموز والمدرعات (نوع من الحيوان) وقصب اليفور الذي ينمو حتى يزيد ارتفاعه على اربعين قدما واثرت في نفسه براءة الاهالي تأثيرا عميقا وبخاصة حينما كان يوازن بينها وبين خبث مواطنيه والتوائهم ، واخذ يتذكر ما عانى من الظلم في شبابه وما لقيه من الحسد والكراهية والعجز وصار يعجب من نفسه وكيف اراد ان يعود الى بلاده .

واصبح الامير وحاشيته لا يشكان في قداسته واخذا يغمرانه بالهدايا والالطاف ، واظهر جيرونيمو من ناحيته انه جدير بما حاز من ثقة فكان يقدم لهما النصائح القيمة والمعلومات الثمينة .

ومرت شهور واعوام كاد ينسى جيرونيمو خلالها حياته السابقة وفي ذات يوم ذاعت الاشاعات بأن سفنا كبيرة قد جاءت الى الشاطيء في ناحية بعيدة وان رحالا يمتطون حيوانات غريبة الخلقة رهيبة ويحملون اسلحة تطلق نيرانا يزحفون في طريق عاصمة الاسبراطورية فأخاف نلك جيرونيمو وافزعه ، وقد شعر بحزن عميق ولاج واخذ هذا الحزن يتزايد ويتفاقم ونصح الامير بان يعد جيشا ويتأهب لمحاربة المغيرين .

فقال له الامير : « أشكرلك نصيحتك يا مالنش ، ولكن خبرنا هل هؤلاء الغرباء اخوانك ؟ .. وهل هم مثلك أبناء الشمس ؟ .. وما هذه الحيوانات التي تبدو كأنها جزء مهم ؟ .. »

ولم يكن الازتك قد رأوا الخيل ، وكان راكبوها يوحون اليهم بالخوف ، وبذل جيرونيمو جهدا ليزيل خوفهم ، ويدخل الطمأنينة على نفوسهم ، ولكنه كان يعلم انهم جميعا سيهلكون .

وبعد نلك باسبوع عبر مع جيش الامير سلسلة الجبال التي تفصلهم عن الوادي الذي عسكر به الاسبانيون وفي اثناء نلك تلقى فرناندو كورتز قائد هذه الحملة الصغيرة انباء من بعض حلفائه من الاهالي بأن احد مواطنيه مع الامير وانه لا يعرف هل هو اسير او ضيف فأرسل كورتز رسولا الى الامير وقدم له فدية ، فطلب جيرونيمو من اصدقائه ان يسمحوا له بالذهاب وقال انه سيجيء بالاسبانيين ويضعهم بين ايديهم ، ولما وصل الى المعسكر الاسباني قادوه الى خيمة فرناندو كورتز ، وتقدم فرناندو نفسه لاستقباله وكان رجلا فخما يروع منظره اشقر شعر الرأس واللحية ترغم عيناه كل من يواجه نظراته على ان يحول عينيه عنهما .

وأزعج جيرونيمو ان يرى نفسه ثانية بين مواطنيه واحزنته نظرات هذا الرجل المتكبر المتعالي ، وحيا مواطنيه وهو في ملابس الازتك بالاسلوب الذي حياهم به الوطنيون الذين جاؤوا معه

وعانقه كورتز ، وتحدث اليه كثيرون من الفرسان حديثا وديا ، ولكنهم بطبيعة الحال لم يكونوا يعرفون ما الذي يؤلم نفسه ويزعج خاطره وقد شب في نفسه صراع داخلي لا تهدا ثورته ولا تنطفىء نيرانه ، ولما كان قد كاد ينسى لغة بلاده لذلك استعان في بادىء الامر بالاشارات الصامتة ليروي قصة تجاربه وما عاناه ، ولكي لا يكون محسودا من زملائه واصحابه المحدثين اعطاهم الكثير من الثروة التي حملها معه ، ولكن هذا الصنيع قوى شهوتهم وأثار جشعهم .

وقال كورتز : « حيث يعطى التمر يكون النخل قريبا » وأعار اذنه لهمسات جيرونيمو وتقدم مع رجاله وعبروا سلسلة الجبال .

وكان كورتز ـ علاوة على الصفات الاخرى التي اتصف بها ـ استاذا في الكلمات المعسولة والاحاديث الساحرة الخداعة ، وفكر كيف يتقدم الى عاصمة الامير دون ان يمسه الجيش الذي يعترض طريقه بسوء ، وحاول تحت ستار ادعاء العطف على الامير ان يستميل جيرونيمو حتى يقبل ان يقنع الامير بالحضور الى خيمة كورتز بعد ان يعده بأنه سيرحب به ويكرم وفادته ، وقبل جيرونيمو ان يخدع وغره الامل بأن كورتز حينما يجد عدوه في قبضة يده يصغي الى العقل ويعود ادراجه ويجنب نفسه جريمة اراقة الدماء وارتكاب الجرائم ، ولذا ذهب الى المكسيكيين وطمأنهم وطيب خاطرهم وقدم نفسه لهم رهينة ونجح في اقناع الامير المتردد بضرورة اتخاذ هذه الخطوة وفائدتها المرجوة ولما مثل الامير بين يدي الاسبانيين كشفت الخيانة عن وجهها واحيطت خيمته بالحرس ولم يسمح لاحد

بالاقتراب منه سوى كورتز وجيرونيمو الذي اضطر الى ان يقوم بدور المترجم في الحديث الذي دار بين كورتز والامير .

وحار جيرونيمو في امره واسقط في يده ، فمثل هذه الخيانة النكراء لم تكن تخطر بباله وظل كورتز يؤكد له ان اعتقال الامير ليس سوى وسيلة لايقاع الرعب في نفوس المستوحشين واتقاء شرهم ، وان الازتك لا يقدمون على عمل شيء ما دام اميرهم اسيرا في ايدي الاسبانيين .

وفي ذات مساء تسلل جيرونيمو الى خيمة الامير الذي كان يحبه ويعتبره اخا له وكان الامير مستلقيا على الارض فانه لم يتناول طعاما ولم يتحدث الى احد منذ يومين ، واراد جيرونيمو ان يسري عنه ويهون عليه ولكن الامير نظر اليه في حزن كنظرة الغزال حين اقبل الشتاء .

وقال له اخيرا : « يا مالنش اطلب الى قائدك ان يمنحني حريتي وسأعطيه لقاء ذلك كل كنوز قصوري » .

وبالرغم من أن الوقت كان متأخرا فقد سعى جيرونيمو الى كورتز ، وثارت دهشته حينما رآه شاكي السلاح مشمرا للحرب ، وأبلغه ما قاله الامير ورجاه باعتمام والحاح ان يطلق سراحه .

فأجابه كورتز : « مثل هذا الطلب خيانة لبلادك يا دون اجويلار » فدهش جيرونيمو ولاذ بالصمت ، فهو خائن هنا وخائن هناك ! .. لقد هلك وقضي عليه .

وعاد جيرونيمو الى خيمة الامير وجثا عند قدميه ، ففهم الامير السيء الحظ حقيقة الموقف ومجرى الاحوال .

وقال الامير في حزن ورقة : « لقد تنازلت لكم عن كل شيء فماذا تريدون مني يا مالنش ؟ .. » وفي تلك اللحظة سمع صوت نفير الحرب الاسباني ، فخرج جيرونيمو مسرعا فرأى الفرسان يهاجمون في عنف معسكر الازتك ؛ وافزعهم شخير الخيل وصهيلها ووثبها وركضها فتفرق شملهم وولوا هاربين ، وقتل الاسبانيون الالوف منهم ، ولما وصل جيرونيمو الى المدينة كان قد قضى الامر ، وكان الفرسان يجمعون الاسلاب من الذهب والجواهر الكريمة ، وقد تخضبت الارض بالدماء وتكدست الجثث بعضها فوق بعض ، وبرح الحزن بجيرونيمو فلعن نفسه وحياته جميعها ، ولما عاد الى المعسكر الاسباني ودخل خيمة الامير الاسير رآه ميتا ملقى فوق سجادة وقد اخترق قلبه خنجر مستطيل .

ولما علم جيرونيمو ان كورتز قد انتوى ان يرسل رجالا الى الغرب لكي يجتازوا البلاد خفية ويحاولوا الوصول الى شاطيء البحر عرض عليه ان يقوم بهذا العمل الشاق ، وقبل كورتز هذا العرض ، واختار له ثلاثة من المقاتلة ليصحبوه ، وفي اليوم السابق ليوم رحيله وزع جيرونيمو كل ما يملكه من الاشياء الثمينة على زملائه واخوانه واعطى للمدعو بيدور دي الفاريز جوهرة كريمة قيمتها اكثر من عشرين الف بسيتا وقال له : « حينما تعود الى اسبانيا اعط هذه الجوهرة للكونت كالنجوس القرطبي ، وقل له انه لم يختر لبره وتكرمته رجلا ناكرا للجميل ، وقل له انني لست خائنا كما يظن قائدنا ، وخبره انني كنت اول اسباني وضع قدمه في هذه البلاد العجيبة ، ولكني نبذت الشهرة التي تتوج مثل هذا العمل . نعم اني احتقر المجد لانه ليس سوى الرؤيا التي تعذب قلبا لا يعرف الحب » .

ولكن هذه الرسالة لم تبلغ ، فقد قتل دون الفاريز في المعركة المعروفة باسم « معركة الليلة الحزينة » وكان الكونت كالنجوس قد مات منذ زمن طويل ... وتوجه جيرونيمو مع رفقائه خلال المكسيك الى الغرب ، واجتازوا الترع والانهار والجبال ، وكانوا لا يسيرون الا بالليل ، وفي النهار كانوا يلوذون بالاماكن المستورة عن الاعين ، وكان جيرونيمو ملتزما الصمت ولا يشارك رفقاءه في احاديثهم اللاهية ولا في نوادرهم الغليظة الفجة ، ولا يسهم في مفاخرتهم وادعائهم ، وكان يحتقرهم

ويتوق الى الابتعاد عنهم ، وكانت كلماتهم وآراؤهم وسلوكهم جميعا تثير تبرمه وتؤذي شعوره وأفعم ذلك قلبه حزنا .

ولما وصلوا بعد اسابيع عدة الى شاطىء بحر عظيم كان جيرونيمو قد اضمر في نفسه امرا عقد عليه نيته واخذ يعمل لتنفيذه فلما اقترب المساء انسل من بين رفقائه وهم راقدون وسار الى الشاطيء حيث وجد مستعمرة لصيد السمك وفك رباط زورق وحمل المجاديف بقوة وأوغل في البحر .

ولما استيقظ الاسبانيون الثلاثة من نومهم افتقدوه ، وفي خلال دهشتهم من اختفائه لمحوا زورقا على بعد ميل من الشاطىء يرقص فوق اللجج التي تضيئها اشعة الشمس الغاربة فأسرعوا الى حافة الماء ورفعوا اصواتهم كأقصى ما يستطيعون صائحين : « جيرونيمو » وكرروا النداء اثنتي عشرة مرة ، ولكنه لم يسمع ولم يجب ، وسرعان ما ارخى الليل سدوله فأخذوا يتساءلون « ما معنى هذا ؟ .. والى اين ذهب ؟ .. وهل يريد كشف ارض اخرى ؟ .. هل يريد الذهاب الى جزيرة سعيدة ؟ .. أو هو يسعى الى الظلام والمجهول بدون غرض ؟ .. »

لقد اتجه الى مغرب الشمس وحيدا في المحيط الخالي المتفرد .

فراش الامبراطور

نابلوين بونابرت من الافراد القلائل الذين ملاوا فجاج الارض دويا ، وشغلوا الناس على اختلاف مذاهبهم طويلا ، وهو في رأي الكثيرين اقوى شخصية واعظم عبقرية عرفتها العصور الحديثة ، ولم يكن الرجل قديسا على خلق عظيم ، ولا بطلا قد اجتمعت له اسمى معاني البطولة واجل صفاتها ولم تجر حياته على اصول الاداب المرعية وقواعد الاخلاق المتواضع عليها ، وكان لا يتردد فتيلا في اختيار الاساليب الملائمة لتحقيق اغراضه ، وقد قتل مليونا من الرجال في سبيل اطماعه ومآربه ، وترك فرنسا اصغر رقعة واسوأ حالا مما كانت حين استولى على زمام الامر فيها ، ولكن العظمة في هذه الحياة الدنيا قد لا تقترن بالفضيلة في مختلف الظروف والمواقف ، وحقيقة ان هناك العظمة الاخلاقية التي تتجلى في حياة الانبياء والقديسين والشهداء ، ولكن العظمة ليس من اولى شرائطها ان تكون اخلاقية حريصة على الفضيلة ، بل هي في الواقع قد تكون مناقضة للاخلاق ، وفي اعتقادي انه لا فائدة من انتحال الاعذار لاخطاء العظماء ونقائصهم حرصا على الجمع بين العظمة والفضيلة ولكن ما هي هذه العظمة التي قد تخلب البابنا وتسدر ابصارنا وتذهلنا عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة ؟ ولماذا كان نابليون عظيما ؟ .. ولو اننا خصصنا بالعظمة كل من قام بعمل خالد الاثر لاخرجنا كبار السياسيين وعظماء الفاتحين من سلك العظماء الخالدين ، لان الفتوح الباهرة عارية مستردة ، والدول تبني وتهدم والقوانين تغير وتبدل ، والافكار تنقض وتبطل وينصل لونها وتنفذ حيويتها ، فالعظمة اذن لا تقوم على بقاء الاعمال ، فكل شيء في هذه الحياة لا محالة زائل ، فلماذا نسمي احد السياسيين او

الفاتحين عظيما وقد اندثرت آثاره ودالت دولته وذهبت فتوحه ولماذا نعجب بقيصر والاسكندر ونابليون ونسميهم عظماء ؟ ..

هم عظماء فيما اعتقد لانه كانت لهم شخصية قوية منيفة ساحرة جذابة ، وقد كانت حياة نابليون على ما بها من سقطات ومآخذ ملحمة رائعة حافلة بالمغامرات والمواقف المحرجة الحاسمة ، وقد كان رجلا من غمار الشعب ، ولكنه وصل الى اسمى منصب بهمته وسعيه لا بحسبه ونسبه ، وقد التقت فيه القوة العملية الفائقة والقدرة الفكرية الممتازة ، وكان له جلد عجيب وقوة احتمال تفوق المألوف حتى يخيل الى الانسان انه قد قد من الصخر او صيغ من الفولاذ ، وكان يستطيع ان يمضي ست عشرة ساعة على متن جواده دون ان يعتريه كلال ، وان يظل اياما متصلة بلا راحة سوى لحظات قصار ثم يثب مع ذلك وثبة النمر ويهجم هجمة الاسد في الوقت المناسب ، وكان يعرف ما هو صانع ويحكم الرماية ويصيب الهدف ، ولم يكن بطبيعته فظا غليظا ، وانما كان لا يريد ان يقف في طريقه شيء ، وقد ذكر عنه امر سن انه كان كثيرا ما يظلم كبار قواده وينتهب مفاخرهم ويعزوها الى نفسه وانه كثير الكذب ولوع بالتأثيرات المسرحية ، ولكن حياته من ناحية اخرى انموذج في المثابرة والشجاعة والدقة والاحكام ، وهي في مجموعها حياة تطلق الخيال وتفسح مجال التفكير .

ويروى عن نابليون بألسنة اصدقائه واعدائه وانصاره وخصومه كلمات مجنحة عظيمة وطرائف فريدة ونوادر مستملحة تكشف عن التفاتات انسانية ، وتدل على نفس عميقة الاحساس جائشة العواطف ، كان مرة في الصيد والقنص فمر بكوخ للكاتب الفرنسي الكبير شاتوبريان الذي نفاه وأبعده فكسر غصنا من احدي اشجار الغار ووضعه على باب خصمه ، ولما حملت له زوجته الثانية طفلا ليرث عرشه قال له الطبيب وهي تعالج آلام الوضع :

« لا يمكن انقاذ الام الا بالقضاء على الطفل في اثناء العملية » . فأمره الامبراطور قائلا : « انقذ حياة الام في بادئ الامر » ، وبعض هذه الكلمات والنوادر والملاحظات ادل على عظمته وكثرة جوانبه وسعة آفاقه من اعظم وقعاته واروع انتصاراته .

والقصة الاتية التي ارويها عن الكاتب كونرادفوس بارك لا اعرف مدى نصيبها من الحقيقة التاريخية ، ولكن كيفما كان الامر فهي تشير الى جانب من شخصية نابليون تواترت الروايات على تأكيدها ، وقامت على صحته الشواهد ، واثر هذا الجانب في نفوسنا اقوى واعظم وابقى وادوم لانه يرينا ان هذا البطل الكرار الذي قضى خير ايامه في زماجر الملاحم وتحت قساطل الوقائع لم يفقد انسانيته فلم يتحجر قلبه او يتبلد احساسه ، وهي قصة مروية في صورة خطاب من المدعو ادوار جيرا الى لوشيان :

عزيزي لوشيان ...

ستعلم ان ولنجتن كسب معركة واترلو ، ولكن برغم ذلك اتسامحني اذا سألتك ان تسمع قصة الطفلة في المنزل القريب من نهر السومير ؟ ..

كان بناء قديما يرفرف عليه الهدوء والسكينة ، وقد توافرت فيه اسباب الراحة وظللته اشجار الدردار الفارعة ، وكان صغير الجرم محدود المدى لا يكاد يوجد به حجرة لنا وكنت قد رقيت الى مقر القيادة حديثا ، فلما وصلت الى هناك لم اجد فراشا لانام فيه ، فجميع الحجرات التي يمكن الانتفاع بها كانت مكتظة بكبار الضباط والقواد .

وكان الامبراطور يحرص في كل يوم على ان يسمع انباء الاجراءات التي تتخذ لراحة رجاله ، ويطلع على التقريرات الخاصة بحالتهم الصحية والتوسعة عليهم ، ويمضي زمن قبل ان احظى برؤيته ،

ودعيت اخيرا للمثول بين يديه وكان توهج ضوء الشمس الغاربة قد زايل الافق ، وكان هناك مصباحان يشعان ضوءا شاحبا على منضدة الخريطة التي كان يجلس قبالتها ، وكان يرتدي ـ اذا كانت ذاكرتي لم تخني ـ سترة مارشال فرنسا ، ولم تكن تتسق بحال مع ضيق الحجرة التي كان يزحمها فراش كبير وكرسيان ومنضدة .

والقى علي نظرة حينما دخلت ، واصغى الي وقد وضع راسه بين يديه الرشيقتين الحساستين وانا اتلو علي مسامعه التقرير الذي كتبته ولما بلغت منتصف التقرير اعترضني :

ـ حسن حسن ، ليس هناك نقص ولا تقصير ؟ ..

ـ لا ياسيدي .. كل شيء على ما يرام ! ..

فنظر الي وتبينت من نظرته انه متعب ، وان الاعياء قد بلغ منه مبلغا ، وكان قد قضى اسابيع مكبا على العمل ليلا ونهارا يصرف شؤون الدولة ويعالج المشكلات .

ـ وكنت اهم بالجواب ، ولكنني ابصرت عينيه شاخصتين نحوي فأدركت انه من الحكمة ان التزم الصمت ، ونهض من مقعده واخذ يتمشى في حدود الحجرة الضيقة صامتا ، وكان في حالة من تلك الحالات الهادئة الخطرة التي كانت تنتابه في بعض الاوقات ، وكان الشعاع يضيء وجهه الحائل اللون ويحيط بمحجري عينيه اللتين كان يبدو منهما انه يحمل متاعب الدنيا جميعها ، فأي جهد وأي اعياء كان يبدو عليه ! .. وبغتة التقى ناظري وناظره وعلقت عيناه عيني ، وكانت نظراته تنم على القسوة والجبروت .

ثم صاح بي فجأة وعلى غير انتظار : « حسن » فشعرت بأن سيفي يصل في غمده وأؤكد لك يا صديقي انني لست منخوب الفؤاد ولا ممن يسرع اليهم الجزع ، ولكن امبراطورنا كان له اسلوب يسترهب كبار القواد ، وصدقني ان هذا شيء يقام له وزن ويحسب له حساب ، ومهما يكن من الامر فقد طقطق مهمازا حذائي واصطكا .

وسمعت في تلك اللحظة قرعا خفيفا على الباب ، ودخل الضابط الموكل بالحراسة وبدا لي انه متردد بين الاحجام والاقدام .

سيدي ! ..

وتوقف عن الكلام كأنه ليس على بينة من امره ، وسرعان ما ادركت السبب ، فقد جاءت الى ركن الحجرة طفلة صغيرة في حالة عصبية ، وكانت سنها لا تتجاوز التاسعة او العاشرة ، وقد ارتدت ثوبا قديم الطراز مهلهل النسج كان يسبغ عليها الفة منزلية طريفة ، وكانت تحمل شيئا ضخما عرفت معرفة ملتبسة غامضة انه ذلك الشيء الذي تضعه السيدات العجائز في فراشهن للتدفئة

وكانت تبدو في صورة فكهة مضحكة وهي واقفة في طريق الباب وقد ظهرت عليها امارات الخوف والقلق ومعها الضابط يشرف عليها ومن عليائه وهو يرتدي سترته الزرقاء المقصبة .

وكان الامبراطور امامي ولذا لم استطع ان ارى وجهه وقد انحنى قريبا من غدائرها السبطة المسترسلة ، وخرج الحارس وقد تنفس الصعداء .

وقال الامبراطور في رفق : « حسن يا طفلتي » وكان صوته صوتا لم اعهده .

واطمأنت الطفلة وسكن روعها والقت الاناء وتهلل وجهها وقالت في تلك اللهجة البغيضة لهجة سكان البسائط الشمالية « للفراش » :

ويمكنك ان تتصور ان صبري بدأ ينفد .

ـ لاجل فراشي ؟ ..

وصعدت الطفلة طرفها وتغضن وجهها الصغير واجابت : « لا اعرف لقد قالت لي امي ان علي ان اضعه في الفراش الكبير ، هذا ما قالته لي امي وهذا ما امرتني به » .

فاعترض الامبراطور حديثها في رفق ولين : « دعيني احمله عنك » وحمل الاناء من طرفيه ، وتعاون امبراطور فرنسا والطفلة على رفع الاناء الساخن في وقار الى الفراش ونظر الى ضفائر شعرها الناعم وملسها في رفق ، وخطر بفكري انه كان يأنس بالنظر الى غدائرها وبراءتها بعد معاناة الايام الموقرات بالمتاعب ، ورأيته ينحني ويهمس في اذنها وسمعتها تضحك ، ثم ربت وجنتيها وقبلها قبلة الوداع في اعلى جبينها ! ..

ــ اذهبي الان الى فراشك يا صغيرتي .

ولكنها تعلقت بيديه وتشبثت بهما ، وقالت وهي مغيظة :

لقد استأثر الجنود بالفراش .

ــ ما هذا ؟ ..

فتجهم وجه الطفلة وقالت : « لقد غص المنزل بالجنود ، وقد رقد في فراشي احد اعيان القواد بالحجرة المجاورة ، وفراشي لا يتسع له ، ولذا رأيت ساقيه متدليتين منه ، وأمي وابي راقدان في الهرى » .

وانتفضت الطفلة ! ..

ــ انا لا احب الهرى ! ..

ــ ولكنهم لن يخرجوك من مرقدك ايتها الصغيرة ؟ ..

ــ لقد اخرجت ، وقد خبرت بذلك ، قد شغله الرجل العظيم ، ووالدتي تقول ان علينا ان نقدم فراشنا لان الجنود لا ينامون في الهرى ، ووالدتي تخشى بأسهم .

وبصعوبة كظمت غيظي من ثرثرتها ، ولكن الامبراطور هب قائما واشار اشارة تعبر عن الضيق والتأفف وقال في حدة وقد حول وجهه الي : « هذا غير ممكن ، الا تسمع هذا يا كولونيل ؟ .. انا لا اريد ان يستبد رجالي بالفلاحين ويأخذوهم بالعنف ، ابحث عن فراش لهذه الطفلة ، واعطها فراشك اذا استدعى الامر » .

فأجبت ــ وأنا اعجب من اهتمام امبراطور فرنسا بطفلة صغيرة غريرة ابنة احد اصحاب الفنادق البلجيكية :

ــ انا كذلك انام في الهرى يا سيدي .

فنظر الي نظرة عجيبة ! ..

ــ اكبر الظن انك ايها الشيطان جئت متأخرا الى ميدان التزاحم على الفراش ! ..

ــ نعم يا سيدي ، وفي هذا المنزل سبع حجرات يرقد بها خمسة عشرة رجلا من رجال هيئة اركان الحرب ، ويخيل الى ان الهرى مزدحم كذلك .

فصاح وهو يضحك ضحكة خفيفة : « ليأخذها الشيطان ، وما اظن احدا منهم قد فكر فيك او عني بك » وانحنى وابتسم للطفلة الصغيرة .

ــ حسن يا كولونيل ارفع هذه الستارة الموضوعة هنالك ، وكان هناك ستارة ملأى بالثقوب مسندة الى الحائط .

ــ ضعها بحيث تحجب الفراش ، والان ايتها الصغيرة هنا مكان نومك هذه الليلة ، فحملقت اليه الطفلة مشدوهة مدهوشة وجمدت في مكانها .

ـ في الفراش الكبير ؟ ..
ـ ولكني لم انم قط في الفراش الكبير .
ـ اذن ستكونين نائمة مسرورة .
ـ ولكن والدتي .. ؟
ـ سأسوي الامر مع والدتك ، وستكونين في حرز حريز ، انظري ، اننا سنضع هذه الستارة بحيث تحجب الفراش ، فلا تخشي شيئا ايتها الصغيرة ، ورددي صلواتك وادعيتك وخطوت الى الامام .
ـ سيدي ..
ـ نعم يا كولونيل ..
ـ سيدي استميحك المعذرة ... ولكن ..
ـ ولكن ماذا ؟ .. آه انت لا توافق على ذلك .
ولم تكن المسألة كما ترى مسألة موافقة او غير ذلك ، فقد كنا نعلم ان الامبراطور كان متعبا منهوكا ، وقد بلغ منه الاعياء الى حد انه الغى عرضين للجيوش في ذلك الاسبوع ، وكانت اعباء الدولة ومستلزمات الحرب الراهنة قد ثقلتا عليه ، وكان مستقبل فرنسا في يد رجل واحد ، ومن اللازم الا يعرض هذا الرجل للخطر بسبب قلة النوم ونقص الراحة ، وقد شعرت بهذا اكثر مما فكرت فيه حينما اجبته ! ..
ـ في وسعنا ان نخرج احد اركان الحرب من مرقده ياسيدي .
فابتسم وقال : « ياعزيزي الكولونيل .. اتقترح اقتراحا جديا ان اخرج احد رجالي المحاربين القدامى من مرقده في هذه الساعة من الليل لاضع هذه الطفلة مكانه ! .. فيا لله ! .. اتستطيع ان تتصور ماذا سيظنه بي ؟ .. لا استطيع ان اسمع خاتمة ذلك »
وبدت له الفكرة مسلية الى حد اني اجترأت على ان اذهب الى ابعد من ذلك .
ـ حسن ياسيدي انها تستطيع ان تنام في الهرى .
ـ ولكنها تخاف الهرى يا كولونيل ..
ـ اذن في أي مكان مناسب ياسيدي وسأدبر ذلك ، لا في فراشك فانك في حاجة الى النوم في هذه الليلة .
ـ « هكذا » .
ودنا مني والطفلة تراقبنا ..
ـ اتظن يا كولونيل انني في حاجة الى النوم في هذه الليلة ؟ .. ومتى كان لك انت او اي شخص غيرك من هيئة اركان الحرب حق الفصل في مسألة متى وفي اي وقت اكون محتاجا الى النوم ؟ ..
فأدركت انني قد تجاوزت حدي ، وكانت هذه هي طريقة الامبراطور ، فهو يسمح لك بشيء من رفع الكلفة ثم فجأة يعرفك مكانك بكلمة او باشارة .
فأجبت في شيء من الخشونة : « ابدا ياسيدي ، وانما حرصي على راحتكم هو الذي اوحى الي هذا الاقتراح » .
فأعرض الامبراطور عن ملاحظتي ولم يعبأ بها
ـ الراحة ؟ .. انها اساس الموضوع يا كولونيل ، اذا حرمنا الطفلة من فراشها فانها حينما تشب وتكبر ستضع جيش فرنسا في صف جيوش اللصوص والسلابين .
ونظر الي كأنه اما ان يكون قد قال اكثر مما يلزم واما ان يكون قد قال اقل مما يلزم ، ولم يكن على

بينة من الحد الذي يسمح به لاحد ضباط اركان حربه باحراز ثقته ، واني اصارحك بأني كنت عاجزا عن فهم وجهة نظره ، فأنا جندي خشن اكثر مني مفكرا او سياسيا ، ولست استجيب لهذه البحوث الاخلاقية ، ولكنها كانت مزية ان اقف هنالك واستمع الى هذا الرجل الذي انحنت له رقاب عواهل اوروبا والذي هو اعظم ابناء فرنسا وهو ينظر بجد واهتمام في آراء طفلة فلاحة ! ..

واتجه الى الطفلة الصغيرة ، وكانت لا تزال واقفة وقد عرتها الحيرة ، وامرها بأن تذهب الى الفراش ، ولم تكن في حاجة الى امر آخر لتّختفي خلف الستارة .

والآن يا كولونيل ارجو لك ليلة سعيدة ..

ـ ليلتك سعيدة يا سيدي ..

وتريثت قليلا ، ولكنني لم استطع شيئا ، وكان الضابط الموكل بالحراسة ينتظر خروج الطفلة ، فرفع الي حاجبه سائلا مستفسرا فلم استطع ان امسك عن الافضاء اليه همسا بما حدث .

فانفجر قائلا : « يا الهي ، اني اعلم ان هذه هي الليلة الثانية التي لم يذق فيها الامبراطور النوم ، ولو صنع بنفسه مثلي او مثلك هذا الصنيع لفقد صوابه » ثم شد شاربه واسترسل يقول : « آه ، ولكن ماذا نفعل ؟.. ان هذا شبيه به ، اليس كذلك ؟ »

وقابلني خادمي في اسفل المنزل ، وتقدمني الى الهرى ، واستلقيت في فراشي ، وبدلا من ان يأخذ الكرى بمعاقد اجفاني اخذت افكر وقد احتواني الظلام وكنت كلما امعنت في التفكير وذهبت فيه كل مذهب انتحتني الهموم وتكاثرت علي الاحزان ، ولم يكن هناك سبب خاص يدعو الى ذلك .

وبدأت افكر في رجل عرفته بمصر ، وكان من ضباط اركان الحرب ، وقد همه امر من الامور واخذ عليه مسالك تفكيره فظل اسبوعا لا يقر له جفن ولا يطيب له نوم حتى فقد صوابه ودخل في عقله ، وبينما كنت افكر في هذا الرجل تذكرت ما قاله الضابط الموكل بالحراسة وهو ان تلك هي الليلة الثانية ـ فيما يعلم ـ من الليالي التي لم ينم فيها الامبراطور وتقلبت في فراشي الضيق منصتا الى جري الجرذان وهمسات الليل الخفية في الطنف والتخاريب وبالرغم من اني لست من اوسع الناس خيالا فقد وقع في قلبي ان كارثة ستحدث ، وتغلب هذا التوقع على افكاري جميعها .

وعاودني التفكير في الضابط الذي عرفته بمصر ، لقد كان هو كذلك يضطلع بتبعات وقد ارغم نفسه بقوة الارادة وحدها على النهوض والعمل حتى غلبه على امره في النهاية النوم او الحاجة الى النوم ، وتراءى لي محياه الذي طواه الموت في ظلمة الليل واضحا جليا ، وسمعته يقول : « لست اقوى على التفكير » ، « لست اقوى على التفكير » ، وهذا ما يحدث يا صديقي حينما يجفو الانسان النوم ، فان عقله يذهب به ولا يستطيع ان يفكر تفكيرا منطقيا ويتحرك ويتكلم بطريقة آلية كأنه في الحلم ، وبينما كنت اراقبه ـ وقد استولى علي الزمع ـ غارت عيناه الكليلتان في رأسه وتراجع شعره واستطالت جبهته وطالعني في التو واللحظة وجه الامبراطور المحبوب وهو ينظر الي .

واستيقظت من النوم بعد ان ارسلت صيحة ووجدتني اتصبب عرقا وانتفض من الحمى ولا بد اني نمت بضع ساعات ، وقد ظهرت تباشير الصباح واخذت ابواقي تذوي في المعسكر .

وعلمنا ان الجيش الانجليزي في بروكسل علم بقدومنا ، وكان ولنجتون قد اقبل في طليعة جيشه للقائنا ، وقد اثار هذا النبأ شتى المخاوف التي انتابتني في الليل ، وسرعان ما لمحت طلائعنا الانجليز وهم يتقدمون الى سهل واترلو ، وسار الجيش الكبير في كبرياء صامدا لهم ، وكان من المناظر التي لا تنسى ان ترى هؤلاء المحاربين العظام تحت الاعلام الخفاقة من المشاة الجبابرة والفرسان الابطال الى الجنود الدارعين والعمالقة الاشداء .

ولم يمض زمن طويل يا صديقي حتى رأيت فرقة الحرس القديم تتصدع اركانها وتتهاوى صفوفها ، ووقفنا هناك ـ الامبراطور واركان حربه ـ نراقب سير المعركة ، وقد ثار ثائري وانا اكتب اليك .. فقد لاحت فرصة ثمينة للمبادرة الى جمع صفوف المشاة والانقضاض على الجناح الايمن ، وكنا نرى ذلك في وضوح وجلاء ، ولكننا لم نكن محتفظين في تلك اللحظة بالفرقة العاشرة ، فقد كانت الفرقة العاشرة في ذلك الوقت تهاجم المدفعية الانجليزية نزولا على اوامر الامبراطور ، وكانت المدافع المصوبة اليها مباشرة تحصد رجالها حصدا .

وكانت الدموع تسيل على خدي في غير خجل ولا حياء ، فقد كان هؤلاء الجنود رجالي كما تعرف ، وقبل ان ارقى الى القيادة العليا كنت قائدهم مدة تقرب من عشر سنوات وقد قدتهم منتصرين الى كل قطر من اقطار اوربا على وجه التقريب .

وحينذاك التفت الي الامبراطور وفي عينيه بريق النصر ، وصاح بي قائلا : « تقدم يا كولونيل جيرا بفرقتك الى الجناح الايمن ! »

لقد غلبه يا صديقي الاعياء من قلة النوم لا القائد الانجليزي ، لقد جعله ينسى اني لم اعد قائدا للفرقة العاشرة من المشاة

الوداع
ادوار جيرا

جزيرة سنت هيلانة
سنة ١٨١٦

جاك فارجيون

كان الكاتب الفرنسي بول بورجيه علما من اعلام الادب الفرنسي في الربع الاول من هذا القرن ، وقد اشتهر بالرواية النفسية التي تقوم على وصف العواطف وتحليل المشاعر ، تعارض الرواية الواقعية او الطبيعية التي تعتمد على الوصف الخارجي .

ويغلب على بورجيه التعمق في التحليل ونفاذ النظر واستنباط النظريات الفلسفيــة والاراء الاجتماعية ، وقد يعجب الانسان بما يظهره بعض الروائيين من المهارة في تناول الحبكة الروائية والسرد القصصي ولكنه يحس وراء ذلك تفاهة الموضوع ، وسطحية الاراء ، اما بول بورجيه فهو ابعد ما يكون عن التفاهة والاسفاف ، فهو على الدوام عميق الملاحظة فلسفي الرأي ، طب بالنفس الانسانية والقلب البشري ، قوي القبض على موضوعه ، بارع اللمسات ، ثابت الخطوات ، غزير المادة ، واسع الافاق .

والاقصوصة الاتية تبين جانبا من خصائصه ولون ادبه ، وهو يثير فيها مسألة هل يذيع الرجل سر امرأة او يحتفظ به ويبقيه طي الكتمان ؟... ولكلا الجانبين مدافعون ومحبذون ، ولو ان جاك فارجيون صارح صديقه الحميم لوشيان بما كان يعلمه من خطيئة زوجته لاغرق سعادة صديقه وسلبه الطمأنينة

والمثالية التي كان ينعم بها ويستريح في ظلها ، ولذا آثر الاعتصام بالصمت ، ورضي ان يفقد صديقه فهل كان على حق ؟..

وقد كان لوشيان كليرباك يعيش في جنة الغفلة ، وكان يمكن ان يتبدد وهمه في لحظة من اللحظات ، وينتقل من عالمه الخيالي الى العالم الواقعي ، والان اترك بورجيه يروي الاقصوصة عن لسان احد اصدقاء الصديقين الحميمين :

اراد القدر ان اكون بكليرمون فيران ــ تلك المدينة القديمة في مقاطعة اوفرن التي انضوت بها طفولتي ــ في عقب موت لوشيان كيرياك اقدم اصدقائي ، وبالرغم من اختلاف سبلنا في السنوات الاخيرة فقد دفعتني ذكريات صداقة خمسة عشر عاما القوية النضرة الى تشييع جنازته .

ولقد كان احد الفكهين الذين يميلون الى الدعابة الحزينة يعلل غيابه عن مثل هذه الحفلات المهيبة بقوله : « في نيتي الا احضر سوى جنازات معارفي الذين يحضرون جنازتي » وما يثير الاسف اننا حينما نصل الى سن معينة نواري في الثرى جزءا صغيرا من نفسنا عندما نقف الى جانب قبر صديق من اصدقاء الطفولة .

وقد زادت هذه الفكرة الحزينة الشعور بالعزلة الذي اثاره في نفسي الجمع الحاشد من الغرباء ، وقد عاش لوسيان كليرياك في ريوم بعد ان اشتغل بالمحاماة ، وبالرغم من اني كنت مثابرا على زيارته حينما كنت في اوفرن ، فقد كان اصدقاؤنا المشتركون قليلين

ولذا شعرت بارتياح حينما لمحت بين الوجوه الغريبة صديقا اخر من اصدقاء الدارسة ، وكان قد التحق بالجيش واعتزل الخدمة برتبة كولونيل ، واقام في باريز ، وكنت من الحين الى الحين اصادفه في النادي او في بعض الاجتماعات والحفلات ، وكان اسمه جاك فارجيون ، وتذكرت انه كان هو ولوشيان صديقين متحابين متلازمين ، وكنت ارى انه من المناسب ان يكون بالكنيسة لو لم اكن قد علمت من لوشيان نفسه انهما قد تشاجرا وفسد ما بينهما فسادا لا يرجى زواله .

وحينما ذكرت اسمه للوشيان في عرض الحديث قال لي : « ارجو منك الا تذكر لي اسمه مرة ثانية ، لقد اساء لي اساءة لا تغتفر ، وقد اصبح غير موجود في مجال اهتمامي .

وقد علمتني الحياة من زمن طويل الا اسأل الناس عن احوالهم الخاصة ، والتماس الثقة التي لم تمنح باختيار وبغير تكلف فضلا عن كونه عملا خاليا من التبصر قد ينكأ جرحا لم يكد يندمل ، ومن المحتمل ان يكونا قد اصطلحا اخيرا ، ولما كانت مدينة اسوار موطن فارجيون فلا شك في انه كان له بها اقارب ، وفي اثناء اقامته عندهم سمع بموت لوشيان وجاء وفاء بحقوق ذكرى تلك الصداقة ، وبعد انتهاء الصلاة حينما اصطف الحاضرون لتقديم العزاء لارملة المتوفي لاحظت ان فارجيون بدلا من ان ينضم اليهم قد اتجه نحو الكنيسة ، فقصدت اليه ورأيت عينيه مغرورقتين بالدموع ، ولم ادهش لرؤيته ، وهو كذلك تلقى حضوري بهدوء ،

وسألته اجئت لتتحدث الى مدام كليرياك ؟..

فقال في اقتضاب : « لا » ..

ــ اتريد اللحاق بالقطار التالي الذاهب الى اسوار ؟..

ــ لا .. اني ذاهب الى المقبرة ..

ـ ساذهب معك ، انتظرني ؟..
فقال : « نعم انتظر » ..

وادهشني العنف المكظوم الذي تحدث به ، كما ادهشني رفضه تقديم كلمات العزاء العادية لارملة المتوفي .

ولا بد ان مدام كليرياك كانت امرأة غيداء قسيمة ، وقد عين جاك فارجيون وهو ضابط ناشىء في مدينة ريوم ، فهل حدث بين هذين الاثنين شيء يستوجب العداء الاصم والخصومة اللداء ؟.. وهل اثارت الجنازة ذكرى مرة اليمة في نفس صديق كليرياك ؟.. وبينما كنا سائرين الى المقبرة ازددت يقينا من ان شيئاً من هذا القبيل قد حدث ، واحسست وجود سر خفي في الموضوع

ووقف فارجيون عند ابواب المقبرة كما وقف عند باب الكنيسة منذ دقائق قليلة وقال : « سأنتظر ذهابك ، وستجدني هنا حينما تعود »

فسألته : « اتتناول الغداء معي ؟.. سنتحدث عن لوشيان » .
ـ اشكرك ..

ولا تزال ذكرى تناولي الغداء مع فارجيون باقية الاثر في نفسي ، فقد كانت تلك المناسبات الخاصة التي ننفذ فيها ببصرنا الى صميم قلب انسان ، ولما كان صاحبي يتحدث تراءى لي وجه امرأة ، وتكشفت لي ملامحها لمحة ولمحة بعد سمة ، وكان يزيد وجه المرأة غرابة وغموضا اني رأيت ارملة المتوفي واقفة الى جانب القبر تسكب الدموع التي لم يشك احد في صدقها ، وكانت همسات المعزين لا تزال تطن في اذني .
ـ لقد كانت مشغوفة به ..
ـ لقد اخلص كل منهما للاخر ..
ـ انها ستقفو اثره بعد قليل ..

فهل كانت هذه هي المرأة التي تحدث عنها فارجيون ونحن جالسان معا ؟.. وانهالت عليه الذكريات ، ودفعته الى الثقة بي ، واخبرني وقد بلغ منه التأثر كل مبلغ بالاتهام الذي وجه اليه ، وذلك الاتهام الذي لم يرد اولم يستطع ان يفنده ، وبذلك انحسر الابهام عن كلمات لوشيان التي قالها لي .

وسألني : « الم تتحدث قط انت ولوشيان عني في السنوات القلائل الاخيرة ؟ » فقلت : « لم نتحدث عنك قط ، فقد افهمني ان ما بينكما قد اصبح خرابا ، ولما كنت اعرفكما كليكما فقد اعتقدت ان شيئا من سوء التفاهم قد وقع بينكما » .

فقال فارجيون : « نعم .. لقد كان هناك سوء تفاهم ، وهذه المرأة السافلة التي رفضت ان اتحدث اليها كانت سببه ، اني لن اسامحها ما عشت ، وحبي العميق للوشيان يجعلني لا افكر في الصفح والسماح .

فقلت عرضا : « اني اخالها كانت تغير منك ، فقد لاحظت ان النساء شديدات الغيرة من اصدقاء ازواجهن ، وهو امر مخالف للمعقول ، ولكنه من بعض الوجوه طبيعي » .

فقال جاك : « ان للغيرة اثرا في ذلك كما يميل بي الظن ، ولكن المسألة في مجموعها كانت اكثر تعقيدا من ذلك » .

وكانت فترة صمت ، ثم استأنف الحديث بعد هنيه قائلا :

« لم يكن هناك اخوان بينهما من القرب والود اكثر مما بيني وبين لوشيان ، وقد بدأت صداقتنا مند عهد الدراسة ، لما توجه الى باريز لدراسة القانون وذهبت للدراسة الحربية في سنت كير ، اتذكر كيف بدأت تلك المعونة ؟.. لقد ذهبنا نتجول على ضفاف نهر البير ، وكنت انت واثنان اخران معنا ، واقترح احدنا في شيء من التسرع والاندفاع ان نستحم في النهر ، ولم اكن احسن السباحة ، فسرعان

ما وقعت في الضيق والحرج ، وكنت ابذل جهدي لاتفادى الغرق حينما خاطر لوشيان بحياته لينقذني ، ولم يكن اعرف مني بالسباحة ، واصبحنا بعد ذلك صديقين متلازمين ، ونشأت بيننا علاقة لا ينشأ مثلها الا في ايام البراءة اذ يكون كل شيء غضا لامعا طبيعيا صادقا ، وانت تعرف لوشيان وتعرف هدوءه واحتجازه ، وكيف كان يبدو عاكفا على نفسه ، ووراء هذا المظهر كان يستتر لوشيان الحقيقي ، فقد كان مرهف الحس الى اقصى حد ، وكان ينفر من مجرد طروء فكرة اي شيء فظ غليظ او مبتذل شائن ، ويمثل هذه الطبيعة كان لا بد ان يشقى حينما تتقدم به السن مبلغ الرجولة ويخالط النساء

ولم يكن الاقبال الرقيق على الحب من خصائص التربية الحربية ، وفي اثناء وجودي بسنت كير كانت تختلف آراؤنا في الجنس اللطيف ، وتزايد اعجابي بأسلوبه في التفكير حينما رأيت تأبيه على اغراءات الحي اللاتيني ، واكبرت رقة شعوره ، ولذا تستطيع ان تتخيل فرط سروري حينما بلغني أنه قد تزوج ، واتفق اني كنت حينذاك في وهران ، وحاولت ان اتبين في رسائله اليومية اثر انقشاع الوهم واليقظة من الحلم ، ولكني لم المح شيئا من ذلك كانت السعادة تنبثق من كل كلمة ، وحينما وطئت قدمي ارض فرنسا ثانية اسرعت الى ريوم حيث قدمت الى انجيليك ــ انسب الاسماء لها كما كان يقول ــ وسترى مقدار صدق تفكير هذا المغتر المخدوع .

وقد قال ذلك في مرارة صارخة حتى اعترضت حديثه بكلمة هي عندي اقوى فكرة صاغها اخلاقي عظيم .

لا تحزن من اجله وتذكر قول جوبير : « الرجل الذي يخشى ان يخدع ، عليه ان يتنازل عن مثله العليا » .

فهز فارجيون كتفيه وقال ساخرا : « فرق كبير بين ان تترك نفسك تخدع لانك متعلق بالمثل الاعلى ، وبين ان تترك نفسك فريسة لانك لا تستطيع ان تبصر .. فهل عرفت مدام كليرياك وهي شابة ؟ »

ــ لا .. لقد رايتها اليوم لاول مرة ..

ــ ان المرأة التي تحدثت اليها منذ قليل لا تعطيك فكرة عن الفتاة في الخامسة والعشرين من عمرها التي وجدتها تزين منزل لوشيان الذي كان يغلب عليه الزهادة والصرامة حينما عدت من افريقية ، فتقاطيع وجهها الدقيقة وقوامها الاهيف وعيناها الزرقاوان الصافيتان كل ذلك كان يشعرك بفرط رهافتها وشدة رقتها ، ويجعل الانسان راغبا في ان يحميها ويكون لها وقاء ، وهذه الرشاقة هي التي اجتذبت قلب لوشيان .

اما فيما يخصني فقد كنت اكثر تجربة من ان اثق بالمظاهر ، واسترعى نظري في الحال عرضا تناقض خاص ، فقد لاحظت ان لها اسلوبين في التعبير عن نفسها ، الاسلوب الاول بريء وخال من

التكلف والتعمل ، وكانت تحتفظ بهذا الاسلوب لزوجها ، والاسلوب الثاني يتجلى فيه الفتور والبرود وكثرة الحساب والتقدير ، وكانت في بعض الاحيان تواجهني به ، وكذلك كان لها صوتان ، صوت ناعم رقيق هادىء ، وصوت حاد اجش ، وكان يمكن الا يدل ذلك على اكثر من اختلال الاعصاب واضطراب المزاج ــ ولو ان صديقي لوشيان لحظ شيئا من ذلك لفسره هذا التفسير ــ ولكني وجدت نفسي مضطرا الى الاعتقاد بأن انجيليك تحمل نفسها حملا على ان تبدو في براءة الحمامة ، على حين تعمل في جهد على اخفاء الجانب الاخر من طبيعتها ، ولقد تحدثت في التو واللحظة من غيرة الزوجة من صديق زوجها ، ولا شك في ان موقفها مني كان نتيجة هذه الكراهية الغريزية ، وقد تيقنت هذا ، وعلمت انها كانت تسيطر على مشاعرها الى حد انه حينما ظهر اسمي في الجريدة الرسمية ضابطا وبناء

على طلبي عينت في ريوم اظهرت سرورا كسرور لوشيان ، وقال لوشيان حينما عبرت عن سرورها : « انها تعلم حبي لك » ولقد اجادت القيام بذلك الى حد انها خدعتني ، ورغم عدم اطمئناني الداخلي لها اخذت اعجب واتساءل :« هل كانت التأثرات التي قامت بنفسي من ناحيتها مصدرها شعور غامض بسعادتهما وحسد خفي لهما ؟ ولكن حادثة غير منتظرة بددت كل شك »

واوعزت اليه حينما توقف عن الكلام قائلا : « ربما تكون قد احببتها من غير وعي ! »

فقال مسترسلا في الحديث : « سترى وتحكم ، ولقد ظللت في ريوم عامين ، ولم يحدث شيء يثبت سوء ظني ، وقد كانت انجيليك تبالغ في اكرامي والتحفي لي ، ولكنها كانت غاية في اللباقة والكياسة ، فلم تحم حولها الاحاديث السيئة ، ولم تفر اديمها الالسنة الطويلة ، وانت تعرف حال المدن الصغيرة ، فأي لفظة او اشارة خارجة عن المألوف تكبر وتتضخم وتشوه وتمسخ حتى تصبح صالحة لاحاديث النميمة والافك ، ولقد كانت من الحين الى الحين تسافر وتتغيب ، ولكن كان معروفا انها تذهب لزيارة والديها ، وقد كان والدها محاميا في ريوم ، ولكنه اعتزل العمل واقام في باريز ، وكانت فترات غيابها قصيرة ، فقد كانت تقول ان شدة تفقدها لزوجها لا تمكنها من ان تتركه طويلا ، وكان نجاحه في المحاماة يمنعه من الذهاب معها ، وفي احد ايام فبراير حينما يكون الشتاء على اشده في اوفرن اصيبت بنزلة وافدة حادة ، ولم تستطع الخلاص منها والتغلب عليها ، وكان قد هدها المرض واسقمها الى حد ان لوشيان صمم على ذهابها الى هييرز لتمضي عدة اسابيع في ضوء الشمس عملا بنصيحة الاطباء ، وشاءت المصادفة ان يستحثني على السفر الى طولون واجب عائلي .

وقال لوشيان حينما اخبرته بذلك : « انها مصادفة حسنة ، فسوف تستطيع ان ترى انجيليك وتعرف كيف حالها » .

فقلت معترضا : « ليس عندي سوى اجازة ثلاثة ايام »

فقال لوشيان : « ولكني اعلم ان المسافة بين طولون وهييرز لا تتجاوز بضعة اميال ، وقد عدت لالحق القطار السريع بعد ان سرت مع انجيليك الى الفندق »

وفي ليلة وصولي ، وبعد ان حللت بمنزل عمي بقليل ذهبت الى هييرز لاجيب طلب لوشيان واكتب اليه عن تقدم صحة انجيليك حتى يتلقى رسالتي قبل عودتي بيوم ، واخبرني كاتب الاستقبال انها خرجت في التو واللحظة ، وانني استطيع لقاءها في غابات كوستبل الواقعة على مسافة ياردات قليلة .

وكانت خاتمة يوم الشتاء في الجنوب سجسجا رقيقة الغلائل حتى شعرت بالاستعداد للمشي والتروض ، وبينما كنت اجوس خلال اشجار الصنوبر كان الهواء طريا عطرا شافيا حتى انساني ما

جئت من اجله ، وجلت في الطرقات غير المألوفة ، وبينما كنت ادور حول منعطف سمعت صوتين ، كان احدهما صوت انجيليك ، ولكن لمن كانت تهمس هذا الهمس الرقيق المليء بالعاطفة ؟.. وتوقفت قليلا ، وفي الظل الذي القته دوحة رأيتها تضم اليها رجلا في عناق متدان ، وعرفت الرجل كذلك ، فقد كان من ناشئة منزل لوشيان ، واخذتني دهشة عظيمة فلم تخطر ببالي فكرة الانسحاب ، وبعد دقائق قليلة مر بي الاثنان ، وهو لم يرني ، ولكنها ..! وفي الضوء الواهي رايت عينيها تتقلصان ، وعرفت انها ابصرتني ، وقد قدمت لي في هذه المرة دليلا آخر قاطعا على مقدار امتلاكها لعواطفها ، فانها لم تنبس بكلمة ، ولم تأت بأيسر حركة ، وتمشت في طريقها .. ولست في حاجة الى القول بأني في مدى ثلث ساعة كنت عائدا في طريقي الى طولون ، ولم اعاود المرور عليها »

فقلت : « اي موقف حرج لك ؟.. فقد كنت اصدق اصدقاء لوشيان ، فاذا لم تقل شيئا فقد جعلت نفسك شريكا لسر زوجته الجارم ، ومن ناحية اخرى اذا تحدثت .. »

فقال فارجيون في صوت تخنقه العاطفة : « كيف اتحدث اليه واصارحه وانا اعلم مدى حساسيته وكيف كان يعبدها ؟.. ان ذلك يجرحه جرحا لا يبرأ منه ، لا ، لم اكن اقوى على ذلك ، ولا انكر اني شعرت يوما بأني ممزق النفس موزع العواطف اكثر مما كنت يوم عدت الى منزله في ريوم ، ولم اكن قد عقدت العزم على ان اكون شريكا فليس هناك كلمة اخرى لصمتي ، وقد حياني لوشيان بلهفة ، وكان حبه لانجيليك باديا على وجهه .

وسأل بلهفة واهتمام : « كيف حالها ؟.. » فوجف قلبي وخذلني ، ولم استطع ان ابدد وهمه ، اقول اني عجزت عن ذلك .

ولجلجت وتعثرت وقلت كلاما ، وكان يكفي اضطرابي نفسه لاثارة شبهته ، ولكنه كان يثق بي في تلك الايام ثقة لا يرقى اليها الشك .

وقلت : « اني لم ار انجيليك ، وذهبت الى هييرز ، ولكنها كانت قد خرجت ، وكان عندي بعض اشغال عائلية ، فلم استطع ان اعود لزيارتها والتزمت الصمت ، لقد كنت شريكا .

وكانت محنة اخرى مدخرة لي ، محنة كنت اخشاها ، فان انجيليك كانت عائدة ، فكيف يكون سلوكها في حضوري ؟.. وهي بلا نزاع قد عرفتني في الغسق بين اشجار الصنوبر ، ومن غير شك قد ادركت اني عرفتها .

ولا بد انها قد عانت الاما شديدة ، لاني كشفت سرها ، ولا بد ان حب الاستطلاع قد اضناها حينما كانت رسائل لوشيان اليومية اليها توضح لها اني لم اتكلم بعد ، ولقد عادت لتجد مفتاح هذا اللغز ، وقد اخبرني لوشيان وهو فرح جذلان بعودتها السريعة بعد ان خانته .

قال لي : « لقد كتبت الي تقول انها شفيت شفاء تاما ، وانها ستبرح هييرز فورا ، الا ترى ان تصرفها غير حكيم ؟.. انها تذكر انها تفتقدني ، وانت تعرف حالتي بدونها ، لقد جعلني الحب شديد الاثرة ولا استطيع ان احمل نفسي على ان اقول لها لا تحضري »

فهتفت قائلا : « لقد كان من الصعب عليك يا جاك التعس ان تمسك عن الكلام » .

« كان صعبا علي الى حد مؤلم قاس ، والالفاظ التي وجهتها الى انجيليك في حضرة لوشيان جعلته امر واقسى ، فقد بدأت بقولها : « لقد سمعت انك كنت في طولون اثناء وجودي في هييرز ، وقد اخبرني

لوشيان انك مررت بي وانا غائبة ، وكدت تستطيع ترك بطاقتك ، او ان تكتب منكرة او تمر ثانية » وقد واجهت الامر بصفاقة كما ترى ، ولم تغير موقفها في الايام التي تلت نلك ، وكاد يغلب علي الاعتقاد باني اخطأت في ظني انها قد عرفتني في كوستبل لو لم اظل اراقبها مراقبة شديدة ، ولو لم اتبين في اختلاج اهداب جفونها وضحكتها وصوتها ومصافحتها وفوق كل شيء في عينيها اثر التوقع والاستطلاع ، ولقد كانت ترقب وتنتظر ، ولكن ما الذي كانت تنتظره ؟ واسعفني الحظ هذه المرة ، فقد استأثرت واجباتي الحربية بمعظم وقتي ، ومنعتني من التردد الكثير على المنزل ، وتحاشيت بذلك الانفراد بها حتى جاء يوم ونجم الموقف الذي كنت اخشاه . ومع نلك أبعد ما بينه وبين الموقف الذي كنت اتوقعه .

ففي عصر يوم من ايام الربيع الباكر حينما يمــلأ النفس سرورا ضوء الشمس الساطع الصافي والنسيم الطلق العليل ذهبت لاصحب لوشيان في جولة نقوم بها ، ولكنه كان قد دعي الى المحكمة على غير انتظار ، ولم يكن بالمنزل سوى انجيليك .

فدعتني قائلة : « تعال يا جاك لنتحدث في الحديقة ، وسأريك ازهاري فقد بدأت تنمو وتظهر » .

فتبعتها وانا عالم بأن ساعة التوضيح والتفسير قد حانت ، وانها مسرورة لذلك ، وفي بادىء الامر ظللنا صامتين ، ولكنها فجأة انبعثت قائلة :

— لقد تصرفت تصرفا نبيلا يا جاك ، وانا اريد ان اشكرك ، وكنت تستطيع ان تقضي علي وتخرب عشي بالكلام ، ولكنك خليت سبيلي ، وقد انتهى كل شيء الان ، والفضل لك ، ولقد تحققت من كرمك في الوقت الذي كنت اشعر فيه بتبدد وهمي ، فقد استبان لي ان الرجل الذي كنت اعتقد انه يحبني كان يتسلى بي

فقلت : « اذا كان صمتي قد ساعدك حقيقة على انهاء الامر فاني لن آسف عليه اسفا شديدا ، واظنك تعلمين كم كلفني هذا الصمت »

— اني اعلم نلك ، قد ساعدني على الفهم ، فأنت صديق لوشيان ، ولست ابالي ان اعترف الان باني كنت اغير منك ، وقد تحققت ان عاطفة عنيفة هي التي منعتك من الكلام ، ولقد اثر نلك في نفسي تأثيرا عميقا .

وتناولت يدي فجأة وبغير ترو ووضعتها في يديها ، وشعرت بنبضها المتدارك الخطر ، وكان هذا النبض العنيف ادل على ما في نفسها من الكلمات .

وراحت تقول : « لقد كنت خائفا من اجلي ، وانا اعرف مقدار حبك للوشيان ، ولكنك مع نلك اخترتني ، وانا كنلك .. لقد تغير شعوري نحوك تغيرا تاما »

واضافت في تؤدة وهدوء : « اني احبك يا جاك وانت تحبني » .

ودنت مني حتى كادت شفتاها تلمسان شفتي ، وتبدت كأنما قد اضاءتها شعلة استحالت رشاقتها العادية المألوفة جمالا ، وفارقتها براءة الحمامة لتظهر المرأة الحقيقية ، وقد دفعها الحزم الغالب على الطبقة المتوسطة الى الزواج من الرجل الذي يعبدها ، ولكن تحببه الحي اليها لم يشبع الجانب العاطفي في طبيعتها ، ولقد كانت انجيليك كليرياك شريرة ومنافقة . وكانت كذلك من الباحثات عن الاحاسيس ، وقد احست الخوف في اثناء تلاقينا بالغابة ، واحست بعد نلك حب الاستطلاع لاستجلاء حقيقة صمتي ، وكانت من امره في لبس ، فلماذا عزته إلى حبي لها .. وهل كشفي لسرها الجارم ايقظ في نفسي دون ان اعلم رغبة منحرفة كانت لا تزال متشبثة في اعماق عقلي الباطن ؟.. اليس

ممكنا ان يحدث مثل هذا حينما تكون المرأة شابة وجذابة كما كانت انجيليك وحينما تسمح الظروف بالمقابلات اليومية ؟.. وليس بي من حاجة الى ان اقول لك ان فكرة استغلال سرها لتهديدها بالفضيحة حتى تصبح رفيقة لي لم تلوث عقلي قط ، ولكن كما اوحيت انت الان ، لا بد انني كنت من بادىء الامر اشتهيها اشتهاء غامضا خفيا ، وقد احست هي نلك ، وكان هذا هو تفسيرها لصمتي وعلاوة على نلك فانها كانت تعلم انني لن اعترف بمشاعري حتى لنفسي ، لان لوشيان كان صديقي وقد اعترفت لي بتقلص وهمها ، وكانت في حاجة الى عشيق جديد ، وكان الاغراء قويا فغلبها على امرها وادى بها الى هذا الاعلان المفاجىء ، وقد اعترضتها باظهار النفور والتقزز ، وسحبت يدي من يديها وابتعدت .

وقلت : « انت مخطئة يا مدام كليرياك ، وافزعها اتخاذي اللهجة الرسمية في الحديث فنظرت الي بعينين نديتين فهل كان نلك خجلا من حماقتها وطيشها او غضبا او تألما صادقا من رفضي لمثل هذا العرض ؟

وتابعت الحديث قائلا : « لقد اخطأت ، فأنا لم الذ بالصمت من اجلك ، وانما من اجل لوشيان ، لا اني لم اخترك ، ولو لم اعرف من بواكر ايام دراستنا مقدار حساسيته وكيف يسهل جرحه لكنت شفيت نفسي بعمل الواجب واعلنت خيانتك وفضحتها ، والان وقد انحدرت الى هاوية اعمق باجترائك على مفاتحتي بالحب وانا اخو لوشيان ونفسه الاخرى كما تعلمين ، ولكن دعيني اضع حدا لهذه المناقشة ، فأنا سأحتفظ بالصمت مرة اخرى وللدافع نفسه ـ لكي اجنب لوشيان الالم ، وسيزداد

الامر صعوبة في هذه المرة ، ولحسن الحظ ان عملي يقتضي التنقل ، وسأتخذ الاجراءات اللازمة من ريوم ، وارجو منك ان تمكنيني من السيطرة على نفسي حتى يتم امر النقل ، وقد كنت انوي ان انتظر لوشيان ولكن الاحسن ان تخبريه بأنني ذاهب الى كليرمون ، وسأحضر لزيارته غدا ، واعدك وعدا شريفا بأني في اثناء نلك لن اقول شيئا ، وساتصرف كأن هذه المقابلة لم تحدث ، ولكن لتفهمي لاخر مرة وللمرات جميعها انه يلزم الا يكون هناك حديث من هذا القبيل .

ولقد تحدثت بانفعال وبما يقارب العنف ، فهل كان شيء اكثر من الغضب الصادق هو الذي بعثني على نلك ؟.. الم اكن احارب رغبة غامضة قد زادها قوة عرضها لنفسها الذي لم اتبينه من كلماتها وحدها بل من اقتراب جسدها وتلاحق انفاسها واشتعال حرارة يديها ، وانفلت مسرعا دون ان انظر الى الوراء ، وكان انصرافي اشبه بالفرار .

وبعد ثلث ساعة ذهبت الى رئيسي وطلبت الترخيص لي بأجازة مدعيا ان عندي شواغل عائلية كالتي اضطرتني الى الذهاب لطولون ، وكان في مأمولي ان اقابل اثناء تغيبي احد اقاربي ممن لهم مركز سام في الجيش وان اسأله ان يستعمل نفوذه لارسل الى افريقية ، وهذا يبرر تركي مدينة ريوم في نظر لوشيان ، ومن اين لي ان احكم بأنه هو نفسه كان سيصر على نلك ؟.. وكيف كان يخطر ببالي ان انجيليك وقد حز في نفسها نلك ؟.. وكيف ونال منها عدم اكتراثي ان تنتقم مني بوساطته ؟..

وتوقف فارجيون عن الحديث وقد آده حمل الذكريات ، وتذكرت كلمات مدام لوشيان فسألته : « من المؤكد انها لم تكن من القحة بحيث تخبره انك قد حاولت مغازلتها ؟ انها لم تكن تجترىء على نلك ؟ »

« لقد كانت عندها هذه القحة ، وهي لم تخاطر بشيء ، فصمتي الاول سلبني القدرة على الدفاع ، وكان الاتهام قد تأخر وقته ، وفضلا عن نلك فاني اذا دافعت عن نفسي واتهمتها ونجحت في اقناع لوشيان بجريمتها سببت له الما كنت اريد ان اجنبه اياه بأي ثمن ، وكل نلك كانت تعلمه ، ولذا اخليت

سبيلها للمرة الثالثة ، واطلقتها من اجل الصديق الذي كان مقدرا لي ان افقده ، وقد حدث ذلك بسرعة البرق ، ففي صباح اليوم التالي مررت بعد ركوبي العادي لارى لوشيان ، فوجدته في غرفة المطالعة يذرع الارض جيئة وذهابا وقد تلوت ملامحه وتغيرت سحنته ، ولما دخلت عليه ضغط على قبضتي يديه واتجه الي ثائرا مهتاجا وانفجر قائلا :

« انت تفعل بي ذلك .. انت .. انت .. لقد حاولت مغازلة زوجتي واغراءها ، ولقد اضطرت الى طردك من المنزل ، ولقد توسلت اليها الا تكل امرك الي ، ولما كانت تعرف مقدار حبي لك وكيف ان خيانتك تجرحني فقد حاولت ان تحميك وتتستر عليك ، ولكن الامر قد هالها وهز نفسها وكربها حتى حملها على ان تخبرني بما اصابها .. آه يا جاك انت .. كيف اقمت على فعل ذلك معي ؟.. لقد عشت تبعا لالهامات قلبي ، وكنت جد سعيد ، لقد كان لي زوجة وكان لي صديق .. والان ليس لي سوى زوجة » .

وكان يحبني حبا جما ، وكان في مستطاعي ان اطعنه بسكين مطرور في نحره العاري ، ولكني احجمت عن ذلك ، لم اكن املك القوة التي تمكنني من ان اريه طبيعة المرأة التي يعبدها الحقيقية ، وحتى لو فعلت ذلك لما صدقني ، ولما اغتفر ذلك الكشف والافشاء ، وكانت صداقتنا قد تحطمت ، ولو تحدثت في تلك الاونة لشابت المرارة البقية الباقية من اثار ذلك الحب في نفسه ، وكان الاجمل ان اتركه في عمياء من امره ، وقد مرت هذه الافكار بخاطري مرا سريعا بينما كان صوته متموجا مسترسلا .

وعاود الحديث قائلا : « تكلم ، قل شيئا ، حدثني كيف حدث ذلك ، خبرني انك آسف عليه » .

ولكني تماسكت وتجلدت ولم اقل شيئا .

فسمعته يدمدم بهذه الالفاظ : « في المستقبل سيكون كل منا في حكم العدم بالقياس للاخر . وتركته وهذه الكلمات تصل في اذني »

فسألته : « ولكن هل كنت على حق في ترك نفسك ترزح تحت اعباء هذا الاتهام ؟.. الم يكن من الواجب ان تتكلم من اجل صديقك ومن اجل نفسك ؟.. لقد كان لا بد لها من ان تستمر في خداعه ، وهذا استنتاج مفروغ منه » ..

« اذن كانت قد ظلت تخدعه ، ومن الواضح انها لم تكف عن خداعه ، فانه لم يشعر بذلك ، لانها كانت ممثلة بارعة ، وقد تنسمت اخبارهما وراقبت سيرتهما فلم تترام الى سمعي شائعة سوء ، لقد كانت مطبوعة على الرياء والنفاق من طالبات الاحاسيس ، وقد عرفت كيف تجعل لوشيان سعيدا ، ومن اجل ذلك كان يمكن ان اسامحها لولا حادثة صغيرة ولكنها مع ذلك بالغة التأثير جعلتني اقدر الصداقة التي سلبتني اياها .

وقد حدث ذلك منذ عشر سنوات ، وكنت عدت الى اسوار بعد غياب طويل ، وخطر ببالي ان ازور احد هذه الاماكن التي كنت اتمشى بها مع لوشيان في ايام الدراسة ، وكان هناك ناحية كنا نؤثرها بوجه خاص ، وهي غابة الشربين والبتولا الصغيرة الواقعة عند سفح باي دي لافاش والمواجهة لقصر رندان ، فقد كنا نستمتع بالتروض تحت ظلال تلك الاشجار وبين كسور الصخور المنثورة التي قذف بها فيما مضى البركان ، وكنا نقضي الساعات الطويلة في تأمل اعماق فوهته المتوهجة التي كانت تثير الاسى والحزن في ذلك المنظر الساجي الوديع حيث كان التعارض ظاهرا بين الازهار المتفتحة والاشجار الخضر والشجيرات وبين الحمم المزمجرة ، وحضرت من اسوار في عربة وسرت من القرية الى الغابة ، وبينما كنت اجول في الممرات المعهودة رأيت خيال انسان جالسا على صخرة متآكلة في البقعة نفسها التي كنا نؤمها ونقيم فيها ولائمنا في ايام الدراسة ، وكان ينظر الى الفوهة وقد بدت على وجهه غيبوبة

الاستغراق كأنه كان يدعو موكبا من الاشباح ، كان هذا الرجل لوشيان . فما الذي جاء به الى تلك البقعة سوى نكرى صداقتنا الضائعة المفقودة ؟.. واي وجه غير وجهي كان يلتمسه بين تلك الاشباح ؟.. نعم لقد كان يدعو للمثول امامه صورة الرجل الذي كان يعتقد انه خانه ، ومع نلك ظل يضمر له الحب ، لقد زار هذا المكان لانه يحبني ، انه دليل لا ينقض ، وتقدمت منه خطوات ونحوه ، ثم كبحت نفسي ووقفت جامدا ونظرت اليه وفكرت !..

يجب الا اتكلم ، ولا بد لي من الاحتفاظ بالسر ، اني اذا تكلمت فسأقول الحق ، يجب الا اتكلم » .

وضغط جاك فارجيون بيديه على عينيه وقال : « لم اره بعد نلك قط ، ولعلك قد ادركت لماذا لم اخاطبها وماذا كان يعنيني من امر جنازة لوشيان » .

يوحنا المنحوس

في بلاد غير معروفة كان يعيش رجل رقيق الحال اسمه يوحنا ، وكان يلقب بالمنحوس ، وكان يقيم في غابة ويحترف صناعة الملاعق الخشبية وعمل الكيزان وما الى نلك من الاشياء التي تحتاج اليها المنازل ، وكان هذا العمل لا يدر عليه سوى القليل من الرزق ، ولذا كان يعاني صعوبة في الحصول على ما يقيم اوده ويمسك عليه رمقه ، وبرغم نلك خطر بفكره ان يتزوج ابنة جاره قاطع الاخشاب ، ولم يكن صداق زوجته سوى ساعدين قويين وعينين دعجاوين يشعان النور في وجهها الصبيح كما تضيء الكواكب ، ولم يكد ينتهي العام حتى ولد له غلام قوي البنية من فور العافية خفيف الحركة ، وشرع يوحنا يفكر في امر ولده ، وعقد العزم على ان يلتمس له اشبينة ترعاه اذا ما فاجأه الموت .

وانطلق يسعى في طلب الاشبينة ، وغذ السير حتى ضل الطريق ، واشتبهت عليه المعالم ، وما عتم ان لحظ امرأة مقبلة نحوه ترتدي ملابس ارجوانية وقد توشحت بوشاح ازرق اللون ، وكان على رأسها اكليل من الورد ، وفي يمينها صولجان ذهبي له بريق اخاذ ، ولما دنت منه قالت له :

ـ عم صباحا يا سيدي الطيب ، والى اين تغدو مبكرا ؟ ..

ـ ابحث عن اشبينة لنجلي ..

ـ اتخذني اذن له اشبينة فان نلك يسرني ..

فقال لها يوحنا : اشكرك ، ولكن اعلمي انني اريد اشبينة عادلة ..
ـ حسن ، اتخذني اذن ، فاني ملكة الحظ ، وانا المسيطرة على ارجاء هذه الغابة ..
ادهش ذلك يوحنا وحيره ..
ـ اذن انت الجنية ! .. يؤسفني ذلك ، واخشى الا تكون هناك فائدة في هذا الحديث .
فقالت الجنية وقد ساءتها لهجته وجرحت اباءها :
ـ ولم ذلك ؟ ..
ـ لهذا السبب يا سيدتي ، ولست ادري انحن مقصرون في احترامك ام اننا لا نقدم لك ما يليق بمقامك من الاجلال والاعظام ، والواقع اننا جميعا صغيرنا وكبيرنا نجيء الى كهفك كلما تبلجت انوار الربيع ونزينه بالازهار المختلفة الالوان ، ومن اجلك نقدم اكبر باقه من الزهر ، ولصحتك نشرب اول نخب من النبيذ ، ونامل ان نظفر بعطفك ويلين لنا قلبك ، ولكن لماذا نرى بدلا من ذلك ؟ .. فانك تستيقظين من نومك شرسة الاخلاق متعكرة المزاج فتلتوي علينا الامور ، وتضطرب الاحوال ، فمن يشتاق الى الجو الصحو الجميل ترسلين له هوج العواصف ، ومن يحتاج الى الغيث تسلطين عليه الجفاف ، ويجهد الرجل الفقير جهده وينفق ما عنده وانت لا تحفلين به فتيلا ، ويندر ان تحركي اصبعا للأخذ بيده ، وتغدقين عطاياك على الكسول المتبلد ، لا يا سيدتي ، انت لا تصلحين اشبينة لولدي ، واستودعك الله يا سيدتي ..
وتركها يوحنا المنحوس ومضى لطيته ، وامعن في السير حتى افضى به التجوال الى روض اريض حافل بزنابق الوادي ، وابصر هناك غادة حسناء وجهها كالربيع روضه القطر ، وقد ارتدت ثيابا خضرا وبيضا ، وكانت تحمل في مئزرها بعض الازهار .

وقالت له : « الى اين تهرول ؟ .. »
ـ ابحث عن اشبينة لنجلي ...
فقالت له في صوت رقيق : « اتريد ان اكون اشبينة له ؟ .. ان ذلك مما يسرني » ..
ـ اشكرك ، وارجو ان تعلمي انني اريد اشبينة شيمتها العدل ، ومن انت ايتها الحسناء ؟ ..
ـ انا الملكة فينوس التي تهب الناس الجمال ، وتمنحهم الحب ، وهو خير ما في الدنيا ..
فهز يوحنا راسه وقال : « كلا يا سيدتي العزيزة ، انت لا تصلحين لنا » ..
ـ لم لا ؟ .. لانك لست عادلة ، هذا هو السبب ، فانت تجودين بالوجه الوسيم على قوم ارواحهم اشد ظلاما من الليل البهيم ، وترسلين الرجل الطيب القلب الصادق السريرة الى الدنيا شتيما مسيخا ، واما من ناحية الحب فان الامر افظع والخطب افدح ، فانت تنثرينه جزافا ذات اليمين وذات اليسار في غير روية ولا تدبير ، ومن جراء هذا التخليط لا نرى اينما حللنا اسرة تنعم بالسعادة ، فالزوج يريد شيئا ، والزوجة تريد شيئا آخر ، فاغربي عني يا سيدتي الحسناء .
فقالت فينوس وقد هزت كتفيها : « ما اكثر حماقتك وما اقل فطنتك ! .. »
فحنى يوحنا راسه وانصلت في طريقه ، وقال مخاطبا نفسه في صوت مسموع :
« حقيقة انني متعوس منحوس » ولم يكد ينطق بهذه الالفاظ حتى راى نفسه في وسط مدينة كبيرة ، ولم يحلم في حياته بانه سيرى مثل هذا البهاء الذي يحار فيه اللب ، فما شئت من جواسق فخمة ، وكنائس مذهبة القباب ، وحدائق فينانة الظلال ، وشوارع كبيرة قد حفلت واجهات حوانيتها الزجاجية بنفائس السلع والمعروضات وغوالي التحف ، وكانت المتاجر والحدائق والشوارع جميعها ملأى بالناس ، وكان فريق من الناس يجري في هرج ومرج ، وفريق آخر منهم قد جلسوا في عرباتهم

يرمقون المارة في فتور وعدم اكتراث ، ثم هدأت الضجة فجأة وخفتت الاصوات . وتبدت في سوق المدينة مركبة تجرها جياد صافنات بيض ، وقد سار في مقدمتها والى جانبها جماعة من النافخين في ابواق وضاربي الطبول ، وكانت تقف في وسط المركبة امرأة في رداء فاخر من الحرير المشجر المحلى بالفضة وشرائط الذهب وعلى راسها اكليل من الغار ، وكانت راحتاها المدوتان تساقطان مرة غصنا من الغار واخرى باقة من الزهر ، وسرعان ما نشبت الحرب بين الناس واشتد بينهم التناحر وحمي الوطيس ، وسقط بعضهم تحت سنابك الخيل ، وكان من الحين الى الحين يوفق بعضهم الى تسلق المركبة والاستيلاء على بعض الاغصان الملقاة ، وكان كلما سقط قوم في حومة النزال تقدم آخرون وشغلوا مكانهم ، واخيرا اخذت المركبة تتهادى في تؤدة ووقار الى الامام ، ووقعت عين المرأة فجأة على يوحنا المنحوس ، وكان قد تملكه الرعب وبان عليه الفزع ، وقد وقف مستندا الى جذع شجرة حابسا انفاسه ، فاوقفت المركبة وسألته :

ـ من انت ؟ ..

فقال لها :

ـ انا يا صاحبة السمو يوحنا المنحوس .

ولماذا تستتر ؟ ..

فهمس يوحنا في حياء وخوف قائلا :

ـ لأني أخافك ..

ـأنت تخافني ؟ .. وكيف جئت الى هنا اذن ؟ ..

ـ كنت اسير على غير هدى ، ولم أكن انتظر ان ينتهي بي الطواف الى هنا ، وقد كنت ابحث عن اشبينة لنجلي ..

ـ ففكرت المرأة هنيهة ثم قالت :

ـ اتقبلني اشبينة ؟ ..

ـ من انت ؟ ..

ـ انا الشهرة والمجد ..

ـ اريد اشبينة ديدنها العدل .

ـ اتراني غير عادلة ؟ ..

فهز يوحنا راسه وقال متنهدا : « من المؤكد لا ، انظري كم من الناس يهلكون من اجلك ، على حين تقفين في مركبتك المطهمة الفاخرة باسمة غير حافلة ، وكل انسان يجري في وهمه انك تبتسمين له وتعطفين عليه ، وانت لا عمل لك سوى التغرير بهم والسخرية منهم ، ولا تكترثين لانين الذين يسقطون تحت عجلات مركبتك ..

فصاحت به قائله في كبرياء وخيلاء : « ايها الفظ الغليظ القلب عد الى غابتك ! .. » ثم الهبت الجياد بالسياط فانطلقت تعدو كالريح العاصف ..

وتابع بيوحنا السير حتى وصل الى مكان قد حشد فيه بعض المجرمين لينفذ فيهم حكم الاعدام ، وابصر هناك امراة عجوزا تبدو عليها القسوة والصرامة ، وفي احدى يديها موازين ، وفي اليد الاخرى عصا سحرية صغيرة من الابنوس .

ونظرت المرأة العجوز الى يوحنا وخاطبته بلهجة جافة قائلة : « الى اين تسرع ايها الشاب ؟ .. »

ـ أبحث عن اشبينة لنجلي ..

ـ اشبينة ! .. حسن ، اصغ الي ، لقد احببتك منذ وقع نظري عليك ، واني مستعدة ان اكون اشبينة لنجلك .

فأجاب يوحنا في حذر : « اشكرك على هذه المكرمة ، واحب ان اعرف في بادىء الامر من انت يا سيدتي ، لأني التمس لنجلي اشبينة عادلة ..

ـ هذا حسن وطيب ، فالماثلة امامك هي العدالة نفسها ! ..

فصاح يوحنا وقد ملئت نفسه رعبا : « العدالة ! .. رحماك يارب ، اذن انت التي تشرّفين على المحاكم وتصدرين الاحكام في القضايا ؟ ..»

ـ نعم ... انا

ـ كلا يا سيدتي ، هذا لا ينفعني ابدا ، فانت يا سيدتي من الفظاظة والتنطع بحيث لا يمكن ان يستقيم نظرك ويصدق حكمك ، وطالما يا سيدتي قضيت باعدام الابرياء واطلقت سراح القتلة السفاكين ، وكثيرا ما تعاقبين من اعترض طريقك او من لم يخف ظله على قلبك لسبب من الاسباب ، لا يا سيدتي ، لست ارضاك اشبينة لنجلي ..

ـ انت تستطيل على العدالة ايها التعس المنكوس وتسبها ، وسأريك عاقبة حماقتك وسوء ادبك ..

ومهما يكن من الامر فقد كان ليوحنا التعس ساقان سريعتان ، فانطلق يعدو لينجو بنفسه ، ولم يكف عن العدو الا بعد ان نال منه الاعياء ووجد نفسه في مقبرة ، وعرضت له بغته امرأة فارعة القامة ملفوفة في اكفان بيض ، وقد ارخت جدائل شعرها على كتفيها وسألته :

ـ ما الذي جاء بك الى هنا ايها الرجل ؟ ..

ـ ابحث عن اشبينة لنجلي ..

ـ اتخذني اشبينة له ..

ـ اريد اشبينة عادلة ..

ـ ليس هناك من هو اعدل مني ..

ـ آه يا سيدتي العزيزة ، الجميع يدعون ذلك ، ومن انت ؟ ...

ـ أنا المنية ..

ففكر يوحنا برهة ثم قال : « حقيقة انت صادقة فيما تقولين ، فالعدل اوضح خلائقك ، فانت سويت بين الصغير والكبير والغني والفقير ، فاذا ما ازفت الساعة وحم الرحيل فانك لا تحفلين بالدموع والحسرات والتوسلات والشفاعات ، اذا ما قرعت باب احد فلا سبيل له سوى الطاعة والاستسلام ، نعم يا سيدتي انت عادلة ويستطيع الانسان ان يطمئن الى ذلك ، فكوني اذن اشبينة لنجلي .

واخذ يوحنا المنحوس المنية من يدها وقادها الى كوخه ، ووقفت المنية اشبينة لنجله ، وبعد انتهاء الحفلة اولم يوحنا وليمة واكل الجميع وشربوا وظلوا في سمر الى ساعة متأخرة من الليل .

ولما حان ميعاد الانصراف قالت المنية ليوحنا : « انك يا صديقي رجل طيب ، وسأثيبك على ثقتك بي بان اعلمك مهنة تدر عليك المال الجزيل وتجعلك من الاغنياء الذين يشار اليهم بالبنان ويكثر الناس من التحدث عنهم ..

فسألها يوحنا متعجبا : « ما هي هذه المهنة ؟ .. »

ـ الطب ! ..

ـ انا اصبح طبيبا ؟ .. اني يا سيدتي اجهل حتى القراءة والكتابة ! ..

ـ هذا ليس بشيء ، وعليك ان تصغي لما ساقوله لك ، فحينما تدعى لفحص مريض انظر في بادىء الامر الى مقدمة الفراش ، فاذا ابصرتني بغير ضفائر فاعلم ان المريض سنيل من مرضه ، ويسترد عافيته ، وتستطيع في هذه الحالة ان تصف له ما تشاء ، فكل شيء يشفيه حتى الماء القراح ، ولكن حينما ينعكس على الحائط خيال ضفائري فاعلم انه قد انتهى اجله وبادر الى استدعاء الكاهن .

وهكذا تم الاتفاق بينهما ، وغادرت المنية الكوخ ، واشترى يوحنا لنفسه حلة داكنة وقبعة ، وصار طبيبا مداويا ، وكان جريئا لا يتردد ، والجراة كما هو معروف من اسرار النجاح ودواعي ثقة الناس بالانسان ، واشتهر امر يوحنا ، وصار يستدعي لزيارة المرضى من الاطراف البعيدة والجهات النائية ، وكان يضع نصب عينيه العلامة التي يتلقاها من المنية ، ولذا لم يخطىء الحكم ، ولم تند عنه الحقيقة ، فكان اذا قال عن المريض الوصب « هذا على ما يرام » اطمأن اهله واستبشروا ، وعلموا انه سيعيش ويبرأ من العلة ، وبعدت شهرته وعظم امره وكثرت عنده الفضة والذهب .

ونشأ ابنه غلاما حسن الشمائل رضي الاخلاق مشرق الوجه ، وعلت سن يوحنا ، واشتعل راسه شيبا ، وحينما كانت المنية تحضر الى النواحي المجاورة له لانجاز عمل من اعمالها كانت تغتنم الفرصة وتزوره في قصره الفخم ، وكان يضيفها ويحتفي بها ، وكانت تسر برؤية الغلام الناشيء وتلاطفه وتظهر اعجابها به ، ثم تستنشق السعوط من علبة يوحنا وتودعهما وتنصرف .

وقالت المنية يوما للطبيب : « لقد اكثرت من زيارتك يا صديقي ، وانت لم تزرني قط » .

فتكلف يوحنا الابتسام وقال : « لا يزال هناك متسع من الوقت ، ولو اقدمت على زيارتك فمن يدري ؟ .. ربما لا تسمحين لي بالعودة »

ـ آه ! .. لا ، اطمئن من هذه الناحية ، فانا لا احتجز انسانا قبل ان يحين اجله ، وانت تعرف استمساكي بالعدالة ، فاحضر لتناول العشاء معي ولا تخشى شيئا .

وبعد فترة قصيرة صمم يوحنا على زيارة صديقته ، وتلاقيا في الغابة ، وسارا معا فوق الهضبات والتلال والوهاد والاهضام ، واجتازا غابات كثيفة حتى انتهيا الى مكان موحش مهجور قد قام به قصر خيم عليه الصمت ، وجلله السواد وتعلق بجدرانه اللبلاب .

وفتحت المنية الباب وانثنت لصديقها بالدخول .

ولما احتواه القصر تأوه وقال : « لقد سرنا طويلا واراني لا استطيع الوقوف على ساقي » .

واعدت المائدة ، وبعد ان تناولا الطعام واستراحا قليلا انتقلا الى قاعة الاستقبال ، ووقفت المنية الى جانب النافذة ، وكان المطل من هذه النافذة يشرف على براح مترامي الاطراف قد انتثرت به الوف من المشاعل مغروسة في الارض .

وادركهما الليل ، وكانت مشاعل لا ينالها العد تنير ظلمته وترسل اشعة غامضة عجيبة ، وكانت بعض المشاعل شديدة التوقد وهاجة الضوء ، وبعضها قليل اللألاء واهي الضوء .

وادهش يوحنا هذا المنظر واثار تعجبه ، فقال للمنية :

ـ ما خبر هذه المشاعل ؟ .

ـ هذه مشاعل الحياة ..

ـ مشاعل الحياة ! .. ما معنى هذا ؟ .. اني لم افهم عنك ..

ـ ستفهم في التو واللحظة ، فكل كائن حي يستمد حياته من ضوء مشعله الذي يتقد هنا ..

فتمتم يوحنا قائلا : « ولكن لماذا تتفاوت اضواء المشاعل ، فبعضها باهر الضوء ، وبعضها واهن الشعاع ؟ ..

ـ لأن الحياة هكذا ، فالبعض ينمو وتتزايد قوته ، والبعض قد اخذ يدب فيه البلى ، وذهبت نضارته ، والمتقدمون في السن تنطفىء شعلتهم وتحور رمادا .

فقال يوحنا وقد تلعثم لسانه وشعر برعدة من الخوف تسري في اوصاله : « ارى هناك مشعلا لماع السنى جم الضوء » .

ـ هذا مشعل شاب في العشرين من عمره .

فقال لها يوحنا : « خبريني يا صديقتي اين شعلة حياتي ؟

ـ هنا امامك ..

ـ فصاح وقد اصفر وجهه : « هذا غير ممكن ، لقد فنيت زبالتها واشرفت على الانطفاء » .

ـ نعم يا صديقي ، فالباقي لك من العمر لا يتجاوز ثلاثة ايام .

ـ ما هذا ؟ .. وماذا تقولين ؟ .. لم يبق من عمري سوى ثلاثة ايام ! .. اننا صديقان ايتها المنية ، اليس كذلك ؟ .. اما في وسعك ان تمدي في عمري ؟ .. الست صاحبة الكلمة النافذة هنا ؟ .. اجعلي شعلتي اكبر واقوى واستعيري لها جزءا من نبالة الشعلة الوهاجة المجاورة لها .

ـ لا استطيع ذلك ، انها شعلة نجلك ، ولو فعلت ذلك لأصبحت ظالمة ، وانت تعلم انني العدالة نفسها .

فتنهد يوحنا وطأطأ راسه وقال : « هذا حق » .

وقالت المنية : « غاية ما استطيع عمله هو ان اجعلك اكثر شيخوخة حتى يهون عليك الموت » .

وقد وفت بوعدها فان يوحنا لما عاد الى منزله كانت قد اضعفته الشيخوخة وهدمت بنيانه حتى عجز عن ارتقاء درجات قصره وتساقطت نفسه في اللحظة التي خبت فيها شعلته .

هانز المحظوظ

خدم هانز سيده مدة سبع سنوات ، واخيرا قال له : « يا سيدي ، لقد انتهت خدمتي واريد العودة الى بلدي لأرى والدتي فاعطني اجري » وقال له سيده : « لقد كنت خادما امينا صالحا ولذا ساجزل لك العطاء » واعطاه فلذة من الفضة بمقدار حجم راسه .

فاخرج هانز منديل جيبه ووضع فيه فلذة الفضة والقاها على ظهره ولف الى بلده ، وبينما هو يتهادى في سيره ويجر قدما بعد اخرى ابصر رجلا يخب به جواد فاره وهو مرح ناعم البال ، فقال هانز في صوت مسموع : « آه ما اجمل ركوب الخيل ! .. انه يجلس هناك كأنما هو في بيته متربع على كرسيه ، فلا يتعثر في الاحجار ويحافظ على حذائه ، ومع ذلك يتقدم وهو لا يكاد يدري » فسمعه راكب الجواد وقال :

« حسن يا هانز ، ولماذا تسير على قدميك اذن ؟ .. »

فقال هانز : « علي ان اتحمل هذا الحمل الثقيل ، انه فضة ، ولكنها من الثقل بحيث اني لا استطيع ان ارفع راسي ، وهي تؤلم منكبي ايلاما موجعا » .

فقال له راكب الجواد : « ماذا تقول في تبادلنا ؟ .. وساعطيك جوادي وانت تعطيني فلذة الفضة » .

فقال هانز : « اني اقبل ذلك واوده ، ولكني لا اخفي عليك شيئا واحدا وهو انك ستلقى رهقا وعنتا في جرها » .

فترجل راكب الجواد واخذ فلذة الفضة وساعد هانز على امتطاء الجواد ووضع عنانه في يده وقال : « حينما تريد ان يسبح بك الجواد فتمطق تمطقا عاليا وصح به قائلا : « احرن » .

وسر هانز لما اعتلى الجواد ، وسار به الجواد وهو مرح فرح ، وبعد حين من الزمن بدا له ان يسرع في السير ، ولذا تمطق وصاح : « احرن » فانطلق الجواد يعدو ملء عنانه ، وقبل ان يدرك هانز ما هو صانع سقط من فوق الجواد في حفرة على جانب الطريق ، وكاد يفر الجواد لولا ان تصدى له واوقفه احد الرعاة ، وكان مقبلا حينذاك يسوق امامه بقرة ، وسرعان ما عاد هانز الى رشده وهب واقفا على قدميه ثانية ، وكان مغيظا حنقا ، وقال للراعي : « ليس الركوب لهوا حينما يمتطي المرء مثل هذا الجواد الذي ينزل به ويلقيه كانه يحاول ان يدق عنقه ، ومهما يكن من الامر فانني لن اعود الى ركوبه وانا افضل بقرتك عليه كثيرا ، فالانسان يستطيع ان يسير خلفها على رسله ويبيع كل يوم لبنا وزبدا وجبنا ، فماذا ادفع لكي احصل على مثل هذه البقرة ؟ »

فقال الراعي : « اذا كنت قد تعلقت بها ، وحرصت على اقتنائها ، فاني استبدل حصانك ببقرتي » .

فقال هانز وهو جذلان مبتهج : « لقد قبلت » .

فامتطى الراعي الجواد وسار به ..

وساق هانز البقرة في هدوء وظن ان الصفقة رابحة ، وقال لنفسه : « ان كان عندي قطعة من الخبز (ومن المؤكد انني ساحصل على ذلك) فاني استطيع حينما اريد ان آكل بها الزبد والجبن وحينما اعطش احلب بقرتي واشرب من لبنها وماذا اريد اكثر من ذلك ؟ .. »

ولما صادف خانا في الطريق توقف واكل خبزه كله ودفع آخر ما معه من النقود ثمنا لكأس من الجعة ، ثم ساق امامه البقرة وسار قاصدا القرية التي تقيم بها والدته ، واشتدت الحرارة لاقتراب الظهيرة ، والفى نفسه في وديقة مترامية الاطراف يقتضي اجتيازها ساعة من الزمن ، ولفحته حمارة القيظ ولاحه الظمأ حتى التصق لسانة بحنكه ، وقال لنفسه : « اني استطيع ان اجد علاجا ناجعا لذلك ، فالآن احلب بقرتي واروي ظمئي » ولذا ربط البقرة الى جذع شجرة وامسك بقلنسوته المصنوعة من الجلد ليحلب فيها اللبن ، ولكنه لم يظفر بقطرة واحدة .

وبينما كان يجرب حظه ، ويستدر الضرع بطريقة خرقاء خاطئة تضايقت البقرة فركلته في راسه ركلة اوقعته على الارض ، وظل طويلا فاقد الرشد ، ولحسن الحظ مر به في التو واللحظة قصاب يسوق امامه خنزيرا في عربة يد بعجلة واحدة ، وقال القصاب وهو يعاونه وياخذ بيده : « ماذا اصابك ؟ .. » فاخبره هانز بما حدث واعطاه القصاب قنينة قائلا : « اشرب ورفه عن نفسك ، وبقرتك لم تدر لك لبنا لانها عجوز فهي لا تصلح الا للذبح » .

فقال هانز : « واأسفاه ! .. واأسفاه ! .. من كان يظن ذلك واذا ذبحتها فماذا افيد منها ؟ .. اني اكره لحم البقر ، انه ليس من الطراءة بحيث يصلح لي ، ولو انها كانت خنزيرا لامكن الانسان ان ينتفع به ، وكان يمكن على اي حال ان يعمل منه مقانق »

فقال القصاب : « حسن ، اني اقبل البدل لكي اسرك واعطيك الخنزير لقاء البقرة .

فقال له هانز وهو يعطيه البقرة ويأخذ الخنزير من العرب : « جزاك الله خيرا عن عطفك » وساق امامه الخنزير وقد امسك بيده الخيط الذي اوثقت به ساق الخنزير .

وهكذا اخذ يسير الهويني وبدا ان احواله ستستقيم ، وعثر به الحظ بعض العثرات ، ولكنه لقى الآن جزاء احتماله وصبره ، وكان الشخص الذي لقيه بعد ذلك رجلا ريفيا يحمل اوزة بيضاء خفيفة

تحت ذراعه ، ووقف الرجل الريفي ليسأله عن الساعة ، فاخبره هانز بأخبار حظه وذكر له الصفقات الرابحة التي عقدها ، فقال له الرجل الريفي انه يحمل الاوزة لحفلة تعميد ، واسترسل يقول : « جسها لترى ثقل وزنها ومع ذلك فان سنها لم تتجاوز ثمانية اسابيع ، والذي يشويها ويأكلها سيقطع منها مقدارا كبيرا من الدهن فقد عاشت عيشة راغدة ! » .

فقال هانز بعد ان وزنها بيده : « كلامك صحيح ، ولكن خنزيري ليس بالشيء الزهيد » وفي اثناء ذلك اخذ الريفي يقطب حاجبيه ، وبدت على محياه علائم الجد والاهتمام وهز راسه ، وقال : « الق الى سمعك يا صديقي الطيب ، ان خنزيرك هذا قد يوقعك في ورطة ، ففي القرية التي غادرتها منذ هنيهة قد سرق من زريبة احد سادتها خنزير ، وقد فزعت حينما رايتك فزعا شديدا خشية ان تكون قد حصلت على خنزير هذا السيد ، وستصيبك محنة اذا قبضوا عليك ، واقل ما يصنعونه بك هو ان يقذف بك في البركة التي تشرب منها الخيل » .

وخاف ذلك هانز المسكين خوفا شديدا ، فصاح بالرجل قائلا : « ايها الرجل الصالح ، اتوسل اليك ان تنقذني من هذه الورطة ، وانت ادرى مني باحوال هذه الناحية ، فخذ خنزيري واعطني اوزتك » .

فقال الرجل الريفي : « كان يجب ان آخذ شيئا آخر فوق ذلك لأقبل هذه الصفقة ولكني لا اريد ان اشدد عليك لأنك في محنة » ، واخذ الخيط في يده وساق الخنزير في طريق جانبي ، وسار هانز في طريق بلده خاليا من الهم ناعم البال وقال لنفسه : « لقد كسبت في هذه الصفقة ، فاول شيء سأحظى بلحم مشوي من الصنف الجيد الممتاز ، وسيكفيني دهنها مدة ستة اشهر ، ويبقى بعد ذلك ريشها الابيض الجميل ، وساضعه في وسادتي واني واثق باني سانام بعد ذلك نوما عميقا لا اميل فيه ولا أتقلب ، وما اشد فرحة والدتي ! .. »

ولما وصل الى القرية الاخيرة راى احد الذين يسنون المقصات ومعه عجلته وهو يقوم بعمله ويغني فوقف هنيهة ينظر اليه ثم قال له اخيرا : «ايها الاستاذ السنان ، لا بد انك في عيشة راضية ، ويبدو لي انك مسرور في عملك » .

فقال له السنان : « نعم ، فعملي تجارة رابحة ، والسنان الصالح كلما ادخل يده في جيبه يجد نقودا ، ولكن من اين احضرت هذه الاوزة الجميلة ؟ .. »

ـ اني لم اشترها ، وانما استبدلتها بخنزير ..

ـ ومن اين حصلت على الخنزير ؟ ..

ـ استبدلته ببقرة ..

ـ ومن اين جئت بالبقرة ؟ ..

ـ لقد استبدلتها بحصان ..

ـ ومن اين جئت بالحصان ؟ ..

ـ لقد قدمت لقاءه فلذة من الفضة بمقدار حجم راسي ..

ـ ومن اين احضرت فلذة الفضة ؟ ..

ـ آه ، لقد اشتغلت من اجلها سبع سنوات شغلا شاقا ..

فقال السنان : « لقد نجحت في الدنيا حتى الآن ووفقت ، واذا استطعت ان تجد نقودا في جيبك كلما ادخلت فيه يدك تأثلت ثروتك » .

« هذا حق ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ .. »

« يلزم ان تصبح سنانا مثلي ، وانت ينقصك حجر السن والباقي يتم من تلقاء نفسه ، فخذ هذا الحجر الذي قد ابلاه الاستعمال ولست اطلب له ثمنا اكثر من هذه الاوزة ـ فهل تقبل الشراء ؟ »

فأجابه هانز : « كيف تسأل مثل هذا السؤال ؟ .. ساكون اسعد انسان في الدنيا اذا وجدت نقودا في جيبي كلما ادخلت فيها يدي ، وماذا اطلب اكثر من ذلك ؟ .. فخذ الاوزة ! »

فقال له السنان وهو يعطيه حجرا خشنا عاديا ملقى بجانبه : « هذا حجر فخم ، ولو استعملته ببراعة لاستطاع ان يجعل المسمار القديم حادا قاطعا » .

فاخذ هانز الحجر وسار في طريقه فرحا مستبشرا ، واومضت عيناه ببريق السرور وقال لنفسه : « لا بد اني ولدت في ساعة سعيدة فكل ما اطلبه واريده ياتي الي من تلقاء نفسه » .

وفي اثناء ذلك اخذ يشعر بالتعب والاعياء فقد بدأ رحلته من مطلع الفجر ، وكان يحس بالسغب وليس معه نقود فقد اعطى كل ما كان في جيبه فرحا بحصوله على البقرة ، واخيرا عجز عن متابعة السير واتعبه حمل الحجر واستنفذ قواه وتحامل على نفسه حتى وصل الى جانب غدير لكي يستقي من مائه ويرتاح قليلا ، ولذا وضع الحجر بعناية على حافة الغدير بجانبه ، ولكنه حينما انحنى ليشرب نسيه ودفعه قليلا فهوى الحجر دفعة واحدة في الغدير ، ولاحظه هنيهة وهو يغرق في الماء العميق الصافي وقفز من السرور والمرح وركع على ركبتيه وشكر الله والدموع تجري على خديه لأنه اكرمه باراحته من هذه البلية ، وهي ذلك الحجر الثقيل البغيض ، وصاح قائلا : « ما اسعدني ، ليس هناك من كان حظه مثل حظي » . ونهض وقد امتلأ قلبه سرورا وسار متخففا من الهموم والمتاعب حتى وصل الى دار والدته .

حلم رجل هزأة

لا نزاع في ان التفكير الروسي يبدو اوضح واقوى واعمق ما يكون في كتابات كبار الروائيين الروسيين ، ولكل من تولستوي ودستوفسكي وشيكوف تصوره الخاص للحياة وموقفه تجاه الكون ، بل لعل طريقتهم اسلم واهدى من طريقة اصحاب الابنية الفلسفية والمذاهب الفكرية المجردة ، وذلك لانها تؤكد العلاقة الصميمة بين الفلسفة والحياة التي قد يعنى بها الفلاسفة الرسميون ، ويغفل شأنها انصار التفكير المجرد ، والروائيون الروسيون لم يترددوا في مهاجمة مشكلات الفلسفة ومعضلات الحياة ولم يدخروا في ذلك جهدا ، وقد شغلهم هذا السؤال الخطير واستأثر بالنصيب الاوفى من بحثهم وتطلعهم وهو : « هل الحياة جديرة بأن تحيا ؟ » وقد قدروا من بادىء الامر ان الحياة معناها الحياة الحافلة المليئة بالتجارب والمغامرات والالام والاحزان والافراح والمسرات ، فهي ليست مجرد جسر نعبر عليه الى حياة اخرى ، وليس قوامها كبت الرغبات وسحق الميول والاهواء والخيم عن لقاء المشكلات الفكرية العسيرة ، اي ان الحياة ليس معناها بحال من الاحوال انكار الحياة واهدارها ، والحياة عندهم جماع الممكنات وملتقى المتناقضات ، ففيها الحلو والمر والخير والشر ، وقد حاولوا التعبير عن شتى مظاهرها ومختلف حالاتها وحاولوا ان يضعوا القوالب التي تسع لكل شيء ولا تعتاق شيئا ولا تشوهه ولا تبتره ، وشملوا كل مظهر من مظاهر الحياة بعطفهم ، وخصوه

بعنايتهم ، وقد اخفقوا في هذه المحاولة الضخمة والمطلب البعيد المدى بعد ان بذلوا جهد الجبابرة ، ولكنهم لم تكل عزائمهم علاا يرومون ، ولم يقعد بهم اليأس ، وظل كل منهم حتى اللحظة الاخيرة من حياته وهو يعتقد ان هناك طريقا للخلاص وانه من الميسور بعد البحث والاستقصاء وبذل الجهود الاهتداء الى هذا الطريق ، وقد لفظ تولستوي آخر انفاسه وهو يبحث عن هذا السر وادرك الموت دستوفسكي وهو يحاول ان ينتزع للانسانية املا من هاوية المستقبل المتخيل .

وقد قضى دستوفسكي حياته الشاقة المجهدة في مغالبة الازمات ومصارعة الشكوك فكان قلبه يرتاب فيما يذهب اليه عقله ، وهذه القصة التي اقدمها للقارىء تعبر عن حياته وتطلعاته وتلمس فيها نبضات قلبه ، وخلجات نفسه ، وتشعر فيها بآلام نفس هي نفسك وفي الوقت نفسه ليست نفسك ، وهي تكاد تكون خلاصة لحياة دستوفسكي وجهاده واعماله والمشكلات التي عرضت له وامرضت نفسه واطالت حسرته ، وهي مع ذلك قصيرة بسيطة صريحة مستقيمة ، فهي حلم بعالم خير من عالمنا وحياة مباركة سعيدة خير من حياتنا وعصر ذهبي خير من عصرنا الفضي او النحاسي ، فهو عصر بريء طاهر عف يتلوه عصر معرفة الخير والشر والسقوط والعثار .

وهذا الرجل الهزأة الذي يسترسل مع الحلم ويغرق فيه ربما كان أنموذج الانسانية في هذه الارض ، السنا جميعا اشخاصا غرباء الاطوار نحلم الاحلام العجيبة ونتخيل الرؤى المدهشة ؟.. وماذا يكون لو كانت الحقيقة على خلاف ما نؤمل وغير ما يتراءى لنا في الاحلام ؟.. ولا اتوسع واسترسل في الشرح والابانة واكتفي بان اقول ان هذا الشخص الهزأة قد حلم حلما من احلام الشخص العجيب الغريب المسمى فيودور دستوفسكي .

- ١ -

انني رجل هزأة ، وهم الان يدعونني المجنون ، وفي ذلك رفع لدرجتي لو لم اظل في نظرهم هزأة كما كنت من قبل ، ولكني الان لا استاء من ذلك ، فكلهم الان اعزاء علي - حتى حينما يضحكون مني - والحقيقة انهم حينذاك يكونون اعزاء علي بوجه خاص ، وانا استطيع ان انضم اليهم في ضحكهم ، لا في ضحكهم مني بالضبط وانما بطريق العطف عليهم لو لم اشعر بالحزن يغمر نفسي حينما انظر اليهم ، ويلم بي هذا الحزن لانهم لا يعرفون الحق وانا اعرفه وما اقسى التفرد بمعرفة الحق !.. ولكنهم لم يفهموا ذلك ولن يعوه !..

وفي الايام السالفة كنت اتألم واشقى حينما ابدو هزأة ، اقول عندما كنت اكون هزأة لا عندما كنت ابدو كذلك ، ولقد كنت على الدوام هزأة ، وقد عرفت ذلك ، وربما عرفته منذ ساعة ميلادي ، وربما عرفت انني هزأة منذ بلغت السابعة من عمري ، وذهبت بعد ذلك الى المدرسة ودرست بالجامعة واعلم انني كنت كلما عظم حظي من العلم ادركت ادق وأوفى انني هزأة ، وبدا لي في النهاية كأن العلوم التي ادرسها في الجامعة جميعها لم توجد الا لتثبت لي وتجعلني استيقن كلما تعمقتها انني ضحكة ، وكان

حالي في الحياة كما كان في العلم ، فكلما مر بي عام ازددت شعورا بأنني رجل هزأة وقوي احساسي بذلك ، وكان كل انسان يضحك مني ، ولكن لم يخطر ببال احد منهم ولم يتحسس ويحدس بانه لو كان هناك انسان على سطح الغبراء يعرف اكثر من اي انسان اخر انني سخيف فان ذلك الانسان هو انا نفسي ، واشد ما كان يضايقني هو جهلهم ذلك ، ولكني كنت انا المخطيء فقد كنت من الكبرياء والتأبه بحيث لا شيء كان يمكن ان يغريني بان افضي الى اي انسان بذلك ، ولو كان حدث انني سمحت لنفسي بالاعتراف لاي انسان بأنني كنت ضحكة فانني اعتقد انني كنت اقتل نفسي في المساء نفسه ، وكم شقيت في مطالع شبابي خشية ان اضعف واعترف بذلك واعترف بذلك لزملائي بالمدرسة ، ولكن منذ بلغت مبلغ الرجولة اصبحت لسبب مجهول اهدأ نفسا ولو انني استوثقت من خاصتي المخيفة وعرفتها معرفة اتم واشمل على توالي الاعوام ، اقول ان هذا السبب المجهول لانني لم استطع ان اتبينه حتى

اليوم وربما كان مصدر ذلك الشقاء الرهيب الذي كان ينمو في جنبات نفسي بباعث شيء كان اعظم خطرا من اي شيء آخر حولي ، وكلن هذا الشيء هو الاعتقاد الذي تمكن من نفسي بالا شيء في هذه الدنيا يستحق ان يحفل به ، وقد لمحت هذه الفكرة لمحا منذ امد طويل ولكني لم استوضحها واتبين حقيقتها الا في العام الفائت ، ولقد وقع ذلك بطريقة تكاد تكون مفاجئة غير منتظرة ، فقد شعرت فجأة انه سواء عندي اوجدت الدنيا او لم يوجد شيء قط ، وبدأت اشعر بكل وجداني بأنه ليس هناك شيء موجود ، وفي باديء الامر توهمت انه قد وجد في الماضي ، وانما بدا كذلك لسبب من الاسباب ، وشيئا فشيئا حدست انه لن يوجد شيء في المستقبل كذلك ، وحينئذ نبتت الغضب من الناس بل اصبحت لا اكاد الاحظهم ، وحقيقة ان ذلك ظهر وتجلى حتى في اضأل الاشياء واتفهها ، فمثلا كنت اصدم الناس في الشارع ، ولم

يكن ذلك لانني كنت مستغرقا في التفكير ، وماذا كان عندي لافكر فيه ؟.. لقد كنت هجرت التفكير حينذاك ولا شيء كان يهمني ، فلو كنت على الاقل قد عالجت مشكلاتي ! آه ، لم اكن قد سويت واحدة منها وما كان اكثرها !.. ولكني قد تخليت عن الاهتمام بأي شيء وكل المشكلات قد اختفت .

ولقد حدث بعد ذلك انني وجدت الحق ، ولقد عرفت الحق في نوفمبر الماضي ـ ولاجل الدقة اقول اليوم الثالث من نوفمبر ـ وانا اتذكر كل لحظة منذ ذلك ، وقد كانت امسية حزينة من اشد الامسيات حزنا ، وكنت عائدا الى منزلي في الساعة الحادية عشرة واتذكر انني فكرت في انه ليس هناك مساء اشجى واملأ بالحزن من هذا المساء ، وذلك حتى من الناحية الطبيعية ، فقد ظل المطر يهطل طوال النهار ، ولقد كان مطرا باردا مكتئبا بل منذرا مهددا كانه يحمل ضغنا على البشرية . وامتنع فجأة عن السقوط بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة ، وتبعته رطوبة مستفظة اشد برودة ورطوبة من المطر ، وكان يتصاعد من كل شيء ما يشبه البخار ، من كل حجر في الشارع ومن كل عطفة ، وخطرت لي فجأة خاطرة مضمونها انه لو ان مصابيح الشارع جميعها اطفئت لقلل ذلك من الاكتئاب الشامل المخيم وان الغاز يزيد قلب الانسان حزنا لانه يضيء الشارع جميعه ، وتبلغت في هذا اليوم بالقليل من الطعام وقضيت المساء مع احد المهندسين وكان هناك اثنان اخران من اصدقائي ، وجلست صامتا ، ويخيل الي اني امللتهم وتحدثوا عن امر من الامور المثيرة واحتدمت المناقشة ولكنهم في الحقيقة لم يكترثوا للامر فقد كنت استطيع ان اتبين ذلك ، وانما كانوا يتظاهرون بالاهتمام والاهتياج ، وخاطبتهم قائلا : « يا اصدقائي انتم في الواقع لا تحفلون بشيء » فلم يسوءهم ذلك وانما ضحكوا مني ، وقد كان ذلك لاني تكلمت بلهجة ليس فيها شيء من اللوم والتقريع اذ كان الامر لا يعنيني ، ورأوا هم ذلك وقد تسلوا به .

وبينما كنت افكر في مصابيح الغاز التي بالشارع رفعت بصري الى السماء ، كانت السماء مظلمة ظلمة حالكة ، ولكن الانسان كان يستطيع ان يرى السحب المتقزعة في وضوح وبينها رقاع سوداء لا قرار لها ، ولحظت فجأة في احدى هذه الرقاع نجمة ، وطفقت اراقبها باصرار ، وقد كان ذلك لان هذه النجمة اوحت الي فكرة ، فقد صممت على ان اقتل نفسي في تلك الليلة ، وكنت عقدت العزم على ذلك منذ شهرين ، وبالرغم من فقري استحضرت مسدسا فاخرا في ذلك اليوم نفسه وعبأته ، ولكن مر على ذلك شهران وكان المسدس لا يزال في درجي ، وقد كنت غير عابىء ولا مكترث حتى اني وددت ان انتهز لحظة لا اكون فيها هكذا غير مكترث ، ولم ذلك ؟ لست ادري ، وهكذا ظللت شهرين كلما عدت الى منزلي في الليل اخذت افكر في ان اقتل نفسي ، وظللت اترقب اللحظة المناسبة ولذا اوحت الي النجمة في هذه الاونة فكرة ، واجمعت امري على ان يكون ذلك الليلة ، ولست ادري لماذا اوحت الي النجمة هذه الفكرة .

وبينما كنت ناظرا الى السماء جذبتني هذه الطفلة الصغيرة من مرفقي ، وكان الشارع خاليا لا تكاد ترى فيه انسانا ، وكان سائق احدى العربات نائما في عربته على مسافة منا ، وكانت الطفلة في الثامنة من عمرها وعلى رأسها منديل . وكانت ترتدي ثوبا خلقا صغيرا بلله المطر ، ولكني لاحظت بوجه خاص حذاءها الممزق المبتل واني لاذكره في هذه الاونة فقد استرعى نظري بوجه خاص ، وقد شدتني فجأة من مرفقي ونادتني ولم تكن باكية وانما كانت تصيح صيحات متقطعة بكلمات لا تستطيع ان تحسن التلفظ بها وتخرجها لانها كانت ترتعد وتضطرب وتهتز من فزعها الى حد ما وكانت

مرعوبة مفزعة وظلت تصيح : « وا أميماه وا اميماه ! » فاتجهت اليها ولم انطق بكلمة واحدة وسرت في طريقي ، ولكنها جرت وظلت تجنبني وكان في صوتها تلك النبرة التي تنم على اليأس في الاطفال المفزعين ، وانا اعرف هذا الصوت ، وبالرغم من انها لم تعبر بالالفاظ فقد ادركت ان امها كانت تحتضر او ان شيئا من هذا القبيل كان اصابها وانها خرجت مستغيثة مستنجدة ، ولم اذهب معها ، بل على عكس ذلك كان بي دافع الى ابعادها عني والتخلص منها ، فأشرت عليها في بادىء الامر بأن تذهب الى الشرطي ، ولكنها شبكت يديها وجرت الى جانبي باكية لاهثة ولم تشأ ان تتركني ، فقرعت الارض برجلي وصحت بها فنادت قائلة : « سيدي !.. سيدي ! » . ولكنها فجأة تركتني وجرت قدما في الطريق ولاح في الطريق شخص آخر ، وظاهر انها انصرفت عني اليه .

ورقيت الدرج الى سكني بالطابق الخامس ، وكان لي حجرة في شقة بها غيري من السكان وكانت حجرتي صغيرة ويبدو عليها الفقر ورقة الحال وبها نافذة صغيرة في شكل نصف دائرة ، وكان عندي اريكة مغطاة بجلد امريكي ومنضدة عليها كتب وكرسيان وكرسي آخر بمسند مريح قديم العهد ولكنه من الطراز الجيد القديم ، وجلست واشعلت شمعة وطفقت افكر ، وفي الحجرة التالية لحجرتي كانت تقوم ضجة ، وقد ظلت قائمة في الايام الثلاثة الاخيرة ، كان يقيم هناك ضابط متقاعد ، وكان عنده ستة من الزوار من ذوي السمعة السيئة يحتسون الفودكا ويلعبون القمار ، وفي الليلة السالفة وقعت بينهم مشاجرة عنيفة واعرف ان اثنين منهم قضيا حينا من الزمن يشد كل منهما شعر الاخر ، وارادت ربة الدار ان تشكو ولكنها كانت مذعورة قد استولى عليها الخوف من الضابط ، وكان في الشقة ساكن اخر هو سيدة هزيلة صغيرة الجرم جاءت في زيارة لبطرسبرج ومعها ثلاثة اطفال صغار قد مرضوا منذ مجيئهم الى المسكن ، وكانت هي واطفالها يخشون الضابط اشد خشية ، وكانوا يقضون الليل مرتعدي الفرائص خوفا منه ، وكان اصغر الاطفال قد اصيب بنوبة من شدة الخوف وهذا الضابط فيما اعلم كان يستوقف المارة في ميدان نيفسكي ويسألهم المساعدة ، ولم يرغبوا في اعادته الى الجيش ، ولكن من العجيب ـ وهذا سبب تحدثي عن هذا الموضوع ـ ان سلوك الضابط في خلال ذلك الشهر الذي قضاه هنا لم يسبب لي اي مضايقة ، وبطبيعة الحال قد حاولت ان اتحاشى معرفته من بادىء الامر وهو كذلك زهد في معرفتي من اول مرة ، ولكني لم احفل بصياحهم وضجتهم ولا بكثرة عددهم ، وكنت اجلس طوال الليل وانساهم نسيانا تاما حتى لا يصل الى مسمعي شيء عنهم ، واظل مستيقظا حتى مطلع الفجر ، وقد ظللت على هذه الوتيرة السنة الاخيرة . وكنت اقضي الليل جالسا على الكرسي ذي المسند الى جانب المنضدة ولا اعمل شيئا ، وكنت اكتفي بالقراءة في النهار ، وكنت اجلس ولا افكر في شيء ، وكانت افكار من نوع واحد تجول بخاطري وكنت ادعها تروح وتجيء كما تشاء . وكنت استهلك في كل ليلة شمعة كاملة ، وكنت اجلس في هدوء الى جانب المنضدة واحضر مسدسي واضعه امامي ، وكنت بعد ان اضعه اسأل نفسي على ما اذكر : « هل الامر كذلك ؟.. » وارد على نفسي مؤكدا : « انه كذلك » اي أنني ساطلق المسدس على نفسي ، وكنت اعرف انني سأنتحر في هذه الليلة بكل تأكيد ، ولكني لم اعرف كم ساظل جالسا الى جانب المنضدة ، ولا ريب في انني لولا حادثة هذه الفتاة الصغيرة لكنت قد انتحرت .

وترى من نلك انني كنت اشعر بالالم بالرغم من انني لم اكن اعبأ بشيء ، فلو صفعني انسان لاوجعني نلك ، وكان هذا حالي من الناحية المعنوية ، واذا حدث شيء مثير للشجون محرك للعطف استشعرت الاشفاق كما كان يحدث لي قديما حينما كنت اعبأ بالحياة ، ولقد شعرت بالشفقة في نلك المساء ، وكان يجب ان اعين الطفلة ، فلماذا امسكت عن مساعدتها ؟.. سبب نلك فكرة خطرت لي حينذاك ، فعندما كانت تناديني وتجتذبني خطرت لي مسألة فجائية ولم استطع تسويتها ، وكانت هذه المسألة تافهة ولكنني كنت مغيظا ، كنت مغيظا لانني اذا كنت قد عقدت العزم على الانتحار في تلك الليلة فما ينبغي ان احفل بشيء ، فلماذا وقد اصبحت لا اكترث لشيء كنت محزونا من اجل الطفلة ؟ واتنكر انني جزنت من اجلها حزنا شديدا الى حد انني شعرت بألم مبرح لا يلائم حالتي ، والواقع انني لا اعرف اسلوبا اقدر على نقل احساسي العارض في تلك اللحظة لكن هذا الاحساس ظل يلازمني وانا في المنزل ، جالس الى منضدتي ، واشتد بي الحنق الى درجة لم اعهدها قبل نلك منذ امد بعيد ، وكانت تتوالى علي الخواطر وتتداولني الافكار ، ورايت بوضوح انني ما دمت كائنا بشريا ولست لاشيء فانني حي ومعنى نلك انني اشقى واغضب واستحي من اعمالي ، وليكن نلك كنلك ، ولكن اذا كنت ساقتل نفسي بعد ساعتين مثلا فما شأني بالبنت الصغيرة ومالي وللحياء او باي امر آخر من امور الدنيا ؟..

انني سأستحيل لاشيء . لاشيء على الاطلاق ، وهل في الحق ان شعوري بأنني سيلغى وجودي الغاء تاما ناجزا وبنلك يبطل وجود كل شيء بالقياس الي هل في الحق ان نلك يؤثر في اشفاقي على الطفلة او استحيائي من عمل مخجل ؟.. لقد ضربت الارض برجلي وصحت بالطفلة البائسة وكانني كنت اقول لها : « انا لا اشعر بالشفقة فحسب بل انني لو تصرفت تصرفا غير انساني جديرا بالاحتقار فانني حر

في نلك لانه في مدى ساعتين ستنتهي حياتي ويزول كل شيء ، اعتقد ان هذا كان سبب صياحي بالطفلة ؟.. انني الان متأكد من نلك ، وقد بدا لي جليا واضحا ان الحياة والدنيا متوقفتان علي الان ، واكاد اقول ان الدنيا في هذه الاونة تبدت كأنها قد خلقت من اجلي ، فاذا اطلقت على نفسي رصاصة فان الدنيا ـ على الاقل ـ تصبح غير موجودة بالقياس الي ، ولا اقول شيئا عن احتمال انه قد لا يوجد شيء لاي انسان حينما افارق الدنيا ، وانه حينما تنطفىء شعلة وعيي يختفي العالم باختفائها ويصبح فراغا خواء كالطيف لانه كان ظلا لوعي ، ومن المحتمل ان هذه الدنيا والناس جميعهم ليسوا سواي ، واتذكر انني وانا جالس افكر حولت الى ناحية اخرى هذه الافكار الجديدة التي كانت تتوارد على خاطري متتابعة وفكرت في شيء جديد كل الجدة ، مثال نلك ان تفكيرا عجيبا خطر لي فجأة وهو انني ان كنت قد عشت من قبل في القمر او في المريخ وارتكبت هناك محظورا منكرا مخالفا للشرف والمروءة

وجللني من اجل نلك من العار والشنار والخزي ما لا يمكن ان نتصوره ونتمثل حقيقته الا في الاحلام والرؤى المزعجة ، واذا كنت ـ وقد وجدت نفسي بعد نلك في الارض ـ قد استطعت ان استعيد نكرى ما اقترفته في الكوكب الاخر وعرفت في الوقت نفسه انني لن اعود الى هناك مهما كانت الظروف والاحوال ففي هذا الموقف هل احفل او لا احفل اذا رفعت بصري من الارض الى القمر ؟.. ولقد كانت هذه

المسائل غير مجدية ولا لازمة لان المسدس كان موضوعا أمامي وكنت اعلم بكل جارحة من جوارحي انه لا بد من وقوعه ، وانه ضربة لازب ، ولكن هذه الافكار كانت تثيرني وقد استفزتني وهاجت رواقدي ،

ولن استطيع الان ان اقدم على الموت الا بعد ان اصفي حساب هذه المسائل وانتهي منها ، وموجز القول ان الطفلة انقذتني فقد ارجأت اطلاق الرصاص على نفسي من اجل هذه المسائل ، وفي اثناء ذلك هدأت الضجة في حجرة الضابط ، فقد انتهوا من اللعب واقبلوا على النوم وكانوا في خلال ذلك يدمدمون متضجرين ويعملون في فتور وتراخ على انهاء ما بينهم من دواعي الخلاف والمشاجرة ، وفي تلك الفترة غشيني النوم وانا جالس على الكرسي الى جانب المنضدة ، وهو شيء لم يحدث لي من قبل ، وقد استولى علي النوم من حيث لا ادري ولا اشعر .

والاحلام كما نعلم جميعا من الاشياء العجيبة الغريبة ، فبعض اجزائها تتمثل لنا في وضوح مخيف بينة التفصيلات وافيتها دقيقتها وبعضها يمر بها الانسان مرا سريعا ولا يستبين منها شيئا كان يمر خلال الزمان والمكان ، والاحلام مبعثها كما يبدو الرغبة لا العقل والقلب لا الرأس ، ولكن مع ذلك اي حيل معقدة كان يحتالها عقلي بعض الاحيان في الاحلام واي أشياء متأبية على الفهم مستعصية على الشرح والتفسير كانت تحدث له !.. من امثلة ذلك ان اخي قد مات منذ خمس سنوات ، وفي بعض الاحيان اراه في الحلم ، ويشترك في اموري واحوالي ويثير ذلك اهتمامنا ومع ذلك فاني اثناء الحلم اعلم كل العلم وانكر انه ميت وانه دفين ، فكيف لا يدهشني كونه يعمل هنا الى جانبي بالرغم من انه في عداد الموتى ؟.. ولماذا يسيغ ذلك عقلي ؟.. ولكن يكفي هذا وسأبدأ الحديث عن حلمي ، نعم فقد رايت حلما ، حلم اليوم الثالث من نوفمبر ، وهم الان يغيظونني قائلين انه لم يكن سوى حلم ، ولكن اذا كان الحلم قد كشف لي الحق فهل ابالي ان كان حلما او حقيقة ؟.. واذا عرف الانسان الحق ورآه رأي العين فأنت تعرف انه الحق وان ليس هناك حق سواه ولا يمكن ان يكون هناك حق غيره وذلك سواء كنت نائما ام كنت يقظا ، ولا بأس في ان يكون ذلك حلما وليكن كذلك ، ولكن تلك الحياة الواقعية التي تكبرونها وتغالون في شأنها قد نويت اطفاء شعلتها بالانتحار ، وحلمي — حلمي الذي رأيته آه — قد كشف لي عن حياة مختلفة طريفة جديدة جليلة رائعة حافلة بالقوة !..
فاصغوا ..

لقد نكرت انني استغرقت في النوم على غرة مني ، وبدا لي انني لا ازال مفكرا في نفس الموضوعات التي كانت تشغل بالي وفجأة رأيت في النوم انني تناولت المسدس وصوبته الى قلبي ـ الى قلبي لا الى راسي ، وعقدت العزم قبل نلك على ان اطلق الرصاصة على رأسي ، على صدغي الايمن ، وبعد ان صوبت المسدس الى صدري انتظرت ثانية او ثانيتين وفجأة اخذت الشمعة والمنضدة والحائط امامي اخذ نلك كله يتحرك ويضطرب ، فبادرت الى جذب الزنبرك .

وفي بعض الاحيان يرى الانسان في الاحلام انه يسقط من مرتفع او انه طعن او ضرب ولكنك لا تشعر بالالم الا اذا كنت قد اصطدمت بشيء في السرير ، فحينذاك تشعر بالالم وفي الاغلب تستيقظ من الالم ، وهذا نفسه هو ما حدث لي في الحلم الذي أريته ، وانا لم اشعر بالالم ولكن بدا لي بعد ان اطلقت الرصاصة ان كل شيء في داخل نفسي قد اهتز وان كل شيء قد اظلم فجأة واعتكر الظلام حولي اعتكارا بشعا ، وبدا لي انني قد غشي بصري وتخدرت حواسي وكنت مستلقيا على شيء صلب جامد وقد تمددت على ظهري ، ولم ار شيئا ، ولم استطع ان اقوم باقل حركة ، وكانت الناس تمشي حولي وقد ارتفعت اصواتهم ، فكان الضابط يجأر وربة المنزل تصرخ ، وتلت نلك فترة اخرى حملت في اثنائها في تابوت مقفل ، وشعرت باهتزاز التابوت وفكرت في نلك وخطرت ببالي لاول مرة فكرة انني ميت ، انني قد مت حقا ، وعرفت نلك معرفة لا يخالجها شك ، فلم اكن استطيع ان انظر ولا ان اتحرك ومع نلك كنت اشعر وافكر ، ولكني سرعان ما وطنت نفسي على قبول هذا الموقف ، وقبلت الحقائق دون ان اناقشها كما يفعل الانسان عادة في الحلم .

.. ـنت في الثرى ، وانصرف الجميع وخلفت منفردا وحيدا ، ولم أتحرك وكنت قبل نلك كلما تخيلت انني ادفن كان الاحساس الوحيد الذي يجتمع بصورة القبر هو الرطوبة والبرودة ، ولذا شعرت الآن ببرد شديد وبخاصة في اطراف اصابع القدمين ، ولكني لم اشعر بشيء آخر .

وظللت متمددا بغير حراك ، ومن العجيب انني لم اكن انتظر شيئا . فقد قبلت بدون مناقشة ان الرحل الذي مات ليس له ان ينتظر شيئا ، ولكن الرطوبة كانت سائدة ، ولم ادر مقدار ما مضى من الزمن سواء اكان ساعة ام بضعة ايام ام اياما عدة ، وسقطت فجأة قطرة من الماء على عيني اليسرى المغمضة وقد شقت طريقها الى غطاء التابوت ، ولم تمض دقيقة حتى تلتها قطرة اخرى ، وبعد دقيقة تبعتها قطرة ثالثة ـ واستمر نلك متتابعا في كل دقيقة ، وثار في قلبي فجأة لهيب غضب شديد ، وشعرت بغتة بوخز الالم الجسدي ، فقلت لنفسي : « هذا الم الجرح واثر الرصاصة » وظلت القطرات تتابع سقوطها على عيني المغمضة في كل دقيقة ، واستنجدت لا بصوتي وانما بكياني جميعه بالقوى المسئولة عن كل ما اصابني .

« كائنا من كنت اذا كنت موجودا ، اذا كان هناك شيء أكثر ملاءمة لاحكام العقل مما انا فيه فعليك ان تسمح به هنا الآن ، ولكن اذا كنت تنتقم لنفسك لانتحاري الذي لم يكن له معنى بهذا الوجود

اللاحق البشع السخيف فدعني اصارحك بان اي عذاب يصب علي لا يمكن ان يعادل الاحتقار الذي سأظل اشعر به في صمت ، ولو ان استشهادي قد يستمر مليون سنة ! .. »

وبعد ان قدمت هذا الالتماس احتفظت بهدوئي ، ومرت دقيقة مليئة بالصمت الذي لا يشوبه شيء ثم سقطت قطرة اخرى ، ولكني عرفت معرفة اكيدة وثيقة ان كل شيء سيتغير فورا ، واذا بالقبر الذي احتواني ينشق فجأة ، ولست ادري هل فتح القبر او نبش ، واعسك بي كائن مجهول مظلم الناحية ووجدتني معه في الفضاء ، وفجأة استعدت بصري ، وكان الوقت منتصف الليل ولم ار ظلمة حالكة كتلك الظلمة ، وكنا نطير في الفضاء بعيدا عن الارض ، ولم اسأل هذا الكائن الذي كان يحملني ، كنت متكبرا ابيا وظللت انتظر وأكدت لنفسي انني لم اكن خائفا وملأ نفسي غبطة وسرورا انني لست خائفا ، ولم اعرف مدى الزمن الذي استغرقناه في الطيران ولا استطيع ان اتخيل ، ولقد حدث ذلك كما يحدث على الدوام في الاحلام حينما نتخطى المكان والزمان وقوانين الفكر والوجود ولا نعرج الا على النواحي التي يهفو اليها القلب ، واتذكر انني رايت فجأة في الظلام نجما ، وكنت نويت الا أسأل اسئلة ولكنني وجدت نفسي مدفوعا الى ان اتساءل : « هل هذا هو نجم الشعري ! ... »

فأجابني الكائن الذي كان يحملني : « كلا ، هذا هو النجم الذي ابصرته بين السحب حينما كنت عائدا الى المنزل » .

وعرفت ان له وجها يشبه وجه البشر ، ومن العجيب انني لم احب هذا الكائن ، والواقع اني شعرت بنفور شديد منه ، فقد انتظرت ان ازول من الوجود زوالا تاما ، وها انا هنا في قبضة كائن ليس انسانا بطبيعة الحال ولكنه مع ذلك حي وموجود واسترسلت في التفكير بذلك الاندفاع الغريب الذي نعهده في الاحلام ، قائلا لنفسي : « وهكذا هناك حياة وراء القبر » ، ولكن لم يطرأ أي تغيير على ابعد اعماق قلبي ، وفكرت في انني اذا عدت الى الوجود وعشت ثانية تحت سيطرة قوة غلابة فانني لن اقهر ولن استذل واخضع .

وقلت فجأة لرفيقي وقد عجزت عن الامتناع عن توجيه هذا السؤال المذل الذي ينم على الاعتراف وشعرت بان خشوعي يحز في قلبي « انت تعرف انني اخشاك وتحتقرني من اجل ذلك » ، ولم يرد على سؤالي ، ولكني شعرت فورا بانه لم يكن يحتقرني فحسب وانما كان كذلك يضحك مني وليس في نفسه ذرة من العطف علي وان رحلتنا لها غرض مجهول غامض لا يهم احدا غيري ، وأخذ الخوف يغزو قلبي ، وانتقل الى نفسي من زميلي الصامت شيء صامت مؤلم وغمر كياني جميعه ، وكنا طائرين في الظلام في خلال فضاء مجهول ، وفقدت حينا من الزمن رؤية مجموعة النجوم التي الفتها عيناي ، وكنت اعلم ان في الابعاد السماوية نجوما يستغرق وصول ضوئها الى الارض الآلاف أو الملايين من السنين ، وربما كنا حينذاك سابحين في تلك المخترقات واخترقت شيئا وقد اعتصرت قلبي الآلام الموجعة المبرحة ، وفجأة استفزني وهز كياني شعور مألوف حرك نفسي وأثارها من اعماقها ، فقد ابصرت بغتة الشمس !... وعرفت انها لا يمكن ان تكون شمسنا التي تهب ارضنا الحياة واننا كنا على مسافة لا نهائية من الشمس ، ولكن هناك اسبابا جعلتني اعتقد بكل كياني بانها شمس تشبه شمسنا تمام الشبه وانها صورة منها ونسخة مكررة ، فسرى في قلبي شعور مستعذب من السرور والابتهاج ، وهذا التقارب بين تلك الشمس والشمس التي منحتني الضوء حرك في نفسي الشعور وايقظه ، وخالجني الاحساس بالحياة حياة الماضي السالفة لاول مرة منذ دفنت في القبر .

وصحت قائلا : « ولكن اذا كانت هذه هي الشمس ، واذا كانت هي تشبه شمسنا الشبه كله فاين الارض ؟ .... »

فأشار رفيقي الى نجم يتلالأ بعيدا له ضوء زمردي ، وكنا نطير متجهين اليه .

فصحت وقد هزني حب ساحر للأرض القديمة المألوفة التي تركتها ومرت بخاطري صورة الطفلة البائسة التي دفعتها عني « هل مثل هذا التكرار ممكن في الكون ؟.. وهل يمكن ان يكون هذا قانون الطبيعة ؟.. واذا كانت هذه ارض هناك فهل يمكن ان تكون مثل ارضنا .. مثلها في كل شيء فهي بائسة وشقية ولكنها عزيزة وغالية ومحبوبة دائما وتوقظ في انكر ابنائها للجميل نفس الحب القوي لها الذي نشعر به نحن نحو الارض ؟ » ...

فأجابني رفيقي وقد تبينت اثر الحزن في صوته : « سترى ذلك كله » .

ولكننا كنا نقترب مسرعين من هذا الكوكب ، وكان ينمو امام عيني ، وكنت استطيع اذ ذاك ان اميز البحر المحيط ورسم اوروبا . وفجأة ثار بنفسي شعور بالغيرة عظيم مقدس .

« كيف يمكن ان يكرر ذلك ؟ .. اني احب الارض التي غادرتها ولا استطيع ان احب غيرها ، وقد تركتها مخضبة بدمي حينما دفعني انكار الجميل الى اطفاء جذوة حياتي برصاصة اطلقتها على قلبي ، ولكني لم اكف عن حب الارض وربما في الليلة التي غادرتها نفسها احببتها اكثر من قبل ، فهل هناك شقاء في هذه الارض الجديدة ؟... ففي ارضنا لا نستطيع ان نحب الا مع الالم والشقاء ومن خلال الالم والشقاء ؛ ولا نستطيع ان نحب بطريق آخر ولا نعرف لونا آخر من الوان الحب ، فانا اريد الالم والشقاء لكي احب ، واني لمشتاق في هذه اللحظة ذاتها وعندي لوعة وظمأ شديد الى ان اقبل بالدموع الارض التي تركتها ولست اريد الحياة في غيرها ولا اقبلها !... »

ولكن رفيقي كان قد تركني ، فجأة وبدون ان الحظ كيف تم ذلك وجدتني في تلك الارض الاخرى ، وكان اليوم مشمسا ، باهر الاضواء جميلا كالفردوس ، واعتقد انني كنت واقفا على احدى الجزائر التي يتكون منها في كوكبنا الارخبيل اليوناني او على شاطىء ارض القارة المواجه لهذا الارخبيل . أوه لقد كان كل شيء يشبه ما نعهده كله الا ان كل شيء كان يبدو بهيج الاشراق ، وهذا الاشراق البهيج هو بهاء انتصار عظيم مقدس قد ظفرت به الاشياء اخيرا ، وكان البحر المترفق الودود وهو في اخضرار

الزمرد تغشى امواجه الشاطىء في لين ويسر وتقبله في حب واضح يكاد يكون حبا واعيا ، وكانت الاشجار الفارعة الزاهرة تقف في روعة ازدهارها واوراقها التي لا تحصى تحييني بحفيفها الخافت الناعم الرقيق وتبدو كأنها تعرب عن حبها ، وكان الحشيش يلتمع بالازهار المشرقة الفواحة العطرة وكانت اسراب الطيور تتطاير في الفضاء وتحط على كتفي وذراعي آمنة مطمئنة وتلمسني باجنحتها الحبيبة المداعبة في سرور ومرح ، واخيرا رايت اهل هذه الارض السعيدة وعرفتهم وقد حضروا الي بأنفسهم واحاطوا بي وقبلوني ، آه ما كان اجمل هؤلاء الناس ابناء الشمس ابناء شمسهم اني لم ار قط في كوكبنا الارضي مثل هذا الجمال بين البشر ، وربما رايت له بأطفالنا في سنواتهم الباكرة ظلا

واهيا ، فعيون هؤلاء القوم السعداء كانت تلمع بضوء واضح وكانت وجوههم مشرقة بضوء العقل وامتلاء النفس بالهدوء والوداعة التي تصحب الفهم التام ولكن هذه الوجوه كانت سعيدة ففي كلماتهم واصواتهم كانت نبرة السرور الذى يشبه سرور الاطفال ، آه لقد فهمت كل شيء من اللحظة الاولى !..

لقد كانت الارض قبل ان يلوثها سقوط الانسان ، ففيها يعيش قوم لم يقعوا في الخطيئة ، فهم يعيشون في مثل تلك الجنة التي عاش فيها آباؤنا الاولون قبل ان يأثموا ، وقد كان الفرق الوحيد هو ان هذه الارض كلها كانت الجنة نفسها ، وتجمع حولي هؤلاء الناس وهم يبتسمون جذلا ولاطفوني واظهروا عطفهم علي وصحبوني الى منازلهم وحاول كل منهم ان يدخل على نفسي الطمأنينة والسكينة ، ولم يوجهوا الي اسئلة وخيل الي انهم على ما يبدو يعرفون كل شيء دون ان يوجهوا سؤالا ، وقد ارادوا ان يسرعوا ويبتدروا تلطيف علائم الشقاء الماثلة في وجهي

اتعرف ما هذا ؟ ... حسن ، ولنسلم بأنه كان حلما ليس غير ، ومع ذلك فان الاحساس بحب هؤلاء الناس الابرياء الاطهار الحسان قد ظل ملازما لي الى الابد ، واني اشعر كما لو ان حبهم لا يزال يتدفق الى نفسي منحدرا ، من اعالي هنالك ، ولقد رايتهم بعيني وعرفتهم واقتنعت وصدقت ، وقد احببتهم وشقيت بعد ذلك من أجلهم آه وادركت من بادىء الامر مباشرة انني لا استطيع ان افهم على الاطلاق في مسائل كثيرة وقد ادهشني باعتباري رجلا من سكان بطرسبرج الحقراء ذوي الافكار التقدمية اقول ادهشني انهم مثلا ليس عندهم علم ثملنا وقد بدا لي ذلك مما لا يمكن تفسيره وتعليله ، ولكن سرعان ما ادركت ان معرفتهم مكتسبة ومستمدة من الهامات وافتطارات مختلفة عما نعهده في

هذه الغبراء ، وادركت ان امانيهم مختلفة عن امانينا الاختلاف كله ، فقد كانوا لا يطلبون شيئا ، وكانوا في سلام ودعة ولم يتطلعوا الى معرفة الحياة كما نحاول نحن فهمها لان حياتهم كانت حافلة ، ولكن معرفتهم كانت اسمى واعمق من معرفتنا ، لان علمنا يحاول ان يفسر معنى الحياة ويطمع في فهمها ليعلم الغير كيف يحيونها على حين انهم قد عرفوا كيف يعيشون بدون علم ، وقد ادركت هذا ولكني لم استطع فهم معرفتهم ، وقد اروني اشجارهم ، ولم استطع ان افهم الحب الشديد الذي ينظرون به اليها ، وكأنهم كانوا يتحدثون منها الى مخلوقات مثلهم ، وربما لا اكون مخطئا اذا قلت انهم كانوا يخاطبونها ، نعم لقد عرفوا لغتها ، واني واثق بان الاشجار كانت تفهمهم ، وكانوا ينظرون الى الطبيعة كلها مثل هذه النظرة ـ الى الحيوانات التي كانت تعيش في سلام معهم ولا تهاجمهم بل تحبهم ـ فقد غزاها حبهم ، كانوا يشيرون الى السماء واخبروني باشياء عنها لم استطع فهمها ، ولكني مقتنع بانهم كانوا الى حد ما على صلة بالنجوم لا عن طريق الفكر وحده وانما عن طريق صلة اخرى حية ، آه ان هؤلاء القوم لم يصروا على محاولة جعلي افهمهم ، لقد احبوني بدون ذلك ، ولكني عرفت انهم لن يفهموني ، ولذا لم اكن احدثهم عن كوكبنا الارضي ، وقبلت في حضرتهم الارض التي كانوا يعيشون فيها وعبدتهم هم انفسهم في صمت ، وقد راوا ذلك وسمحوا لي ان اعبدهم دون ان يخجلوا حينما كنت اقبل اقدامهم وقد فاضت من عيني الدموع فقد كانوا مبتهجين لشعورهم بالحب الذي يستجيب في نفوسهم لحبي . وفي بعض الاحيان كنت اسائل نفسي متعجبا كيف استطاعوا الا يسيئوا قط الى مخلوق مثلي وكيف لم يثيروا قط في نفسي الشعور بالغيرة او الحسد ؟.. وطالما تعجبت كيف لم اتحدث اليهم ـ على ما كان بي من حب للمفاخرة وميل الى التزيد في القول ـ عما اعلم ـ وهم بلا شك ليست عندهم اية فكرة عنه ؟ وكيف لم تغرني بذلك رغبتي في ان ادهشهم او ان انفعهم .

كانوا مسرورين محبورين نزاعين الى اللعب والتواثب مثل الاطفال ، كانوا يجوسون خلال الغابات والادغال ويتغنون اغانيهم المحبوبة ، وكان طعامهم خفيفا مكونا من فواكه اشجارهم والشهد المأخوذ من غاباتهم ولبن الحيوانات التي احبتهم ، وكان العمل الذي يقومون به في سبيل الحصول على المأكل والملبس وجيزا غير شاق ولا مجهد ، كانوا يحبون ويرزقون الاطفال ولكني لم الحظ فيهم قط دافع

الحسية البشع الفظيع الذي يكاد يغلب كل انسان في هذه الارض على امره وهو مصدر كل خطيئة من خطايا الانسان في الارض ، وكانوا يسرون بقدوم الاطفال ويعتبرونهم كائنات جديدة جاءت تقاسمهم سعادتهم ، ولم ينشب بينهم شجار ولا غيرة ولا تحاسد ، بل لم يكونوا يعلمون معاني هذه الالفاظ ، وكان اطفالهم اطفال الجميع لانهم كانوا جميعا اسرة واحدة ، وكان الموت يغشاهم ولكنهم كانوا لا يعرفون المرض الا في الفلتات النادرة ، وكان المتقدمون منهم في السن يموتون موتا هادئا كأنما تأخذهم سنة من النوم ويباركون من حولهم ويبتسمون ليكون الوداع الاخير بين البسمات المشرقة المحبوبة ، ولم ار قط حزنا او دموعا في مثل تلك المناسبات وانما رايت حبا كان يصل احيانا الى حد الوجد والهيام ولكنه هيام برىء هادىء وديع قد جمله التأمل ، وكان يخالج الانسان الظن بانهم لا يزالون متصلين بالراحل بعد موته وان الموت لم يقطع صلاتهما الدنيوية وكادوا لا يفهمونني حينما سألتهم عن خلود النفس ، ولكن من الواضح انهم كانوا يؤمنون به بدون تفكير ايمانا يجعلهم لا يرون فيه ما يدعو الى التساؤل ولم يكن عندهم معابد وانما كانوا يعيشون عيشة حقة متصلين بالكون اتصالا وثيقا موحدا ، ولم تكن لهم عقيدة من العقائد ولكنهم كانوا يعلمون علم اليقين انه حينما يبلغ سرورهم الارضي غاية الطبيعة الارضية فانهم ــ احياء وامواتا ــ يتصلون اتصالا اوفى واتم بالكون جميعه ، وكانوا يتطلعون في سرور الى تلك اللحظة ولكن بدون تسرع ، وكانوا لا يتلهفون عليها وكانهم كانوا يتوقعون مجيئها في قلوبهم ويتجانبون اطراف الحديث في ذلك .

وفي المساء قبل ان يأووا الى فراشهم كانوا يحبون الغناء جماعات ، وكانوا يعبرون في تلك الاغنيات عن المشاعر التي اثارها في نفوسهم اليوم المنقضي ويشيدون بمفاخره وامجاده ويودعونه ، وكانوا يتغنون بمدح الطبيعة والبحر والغابات ، وكانوا يحبون ان يغني كل منهم مثنيا على الأخر ويتبادلون المدائح كالاطفال ، وكانت اغانيهم ابسط الاغاني ولكنها كانت نابعة من القلب ولذا كانت تتغلغل الى القلب ، ولم يكن اعجاب بعضهم ببعض مقصورا على الاغاني وانما كان هذا الاعجاب شاملا حياتهم جميعها ، وكأنهم كانوا يتبادلون الحب ولكنه كان شعورا عاما شاملا .

ولم اكد افهم بعض اغانيهم الوقور المطربة ، وبالرغم من اني كنت افهم الالفاظ فاني لم استطع ان اتعمق معناها وقد ظلت وراء طاقة عقلي ومع ذلك كان قلبي يستوعبها اكثر فاكثر بدون وعي ، وطالما اخبرتهم بانني كنت اتوقع سماعها من قبل بزمن طويل وان هذا السرور والبهاء والسناء قد الم بنفسي وانا بظهر الارض في صورة اسى متلهف كان في بعض الاحيان يبلغ حد الحزن الذي تعجز الطاقة على احتماله ، وانه كان لي سابق علم بهم جميعا وبأمجادهم في احلام قلبي ورؤى عقلي ، وكثيرا ما كنت ــ وانا على ظهر الارض ــ لا استطيع ان اشاهد غروب الشمس دون ان تجري دموعي ... وان كراهيتي لاهل الارض كان بها على الدوام الم متلهف ... فلماذا كنت لا استطيع ان اكرههم دون ان احبهم ؟.. ولماذا كنت لا اجد مندوحة عن الصفح عنهم !.. ولقد كان في حبي لهم حزن متلهف : لماذا كنت لا استطيع ان احبهم دون ان اكرههم ؟.. وكانوا يستمعون الي وقد رايتهم انهم لا يستطيعون ان يتصوروا ما اقول ، لكني لست آسفا على اني حدثتهم عن ذلك ، فقد عرفت انهم يقدرون مدى قوة تلهفي الحزين على هؤلاء الذين فارقتهم ، ولكن حينما كانوا ينظرون الي بعيونهم الوديعة المليئة بالحب وحينما كنت اشعر بان قلبي في حضرتهم اصبح بريئا نقيا عادلا مثل قلوبهم فان الشعور بامتلاء الحياة كان يدهشني ، وكنت اعبدهم في صمت .

آه ، كل انسان يضحك الان في وجهي ويؤكد لي ان الانسان لا يستطيع ان يحلم بمثل هذه التفصيلات التي اتحدث عنها ، واني رايت حلما او مارست احساسا ثار في قلبي وانا في غيبوبة وانني اصطنعت التفصيلات حينما استيقظت من النوم ، وحينما كنت اقول لهم انه ربما كان الامر كذلك في الواقع فيا لله كيف كانوا يصيحون في وجهي ضاحكين هازلين واي سرور ومرح كنت اثيره في نفوسهم !.. آه ، نعم بطبيعة الحال كان يغلبني على امري مجرد الاحساس بهذا الحلم الذي أريته ، وكان هذا هو كل ما تبقى في قلبي المكلوم المجروح ، ولكن الصور واشكال الحقيقة لحلمي اي نفس الاشخاص الذين رايتهم في أثناء الحلم كانوا متفقين متصافين محبوبين ساحرين وكانوا حقيقيين الى حد انني حينما استيقظت من الحلم لم استطع ان أصفهم بلغتنا القاصرة العاجزة ومن ثم كان لا بد ان تنطمس معالم الصورة في عقلي ، ولذلك ربما كنت حقيقة مضطرا بعد ذلك ان اصطنع التفصيلات ولذا كنت بطبيعة الحال امسخها واشوهها لفرط رغبتي في ان انقل على الاقل بعضها في غاية ما استطيع من السرعة ، ولكن من ناحية اخرى كيف امتنع عن تصديق ان ذلك كله كان حقيقة ؟.. وربما كان أشرق وأسعد وأوفر سرورا ومرحا آلاف المرات مما اصف ، ولأسلم بأنه كان حلما ، ولكنه مع ذلك لابد انه كان حقيقيا ، واعلم بانني سأفضي اليك بسر ، فربما لم يكن حلما على الاطلاق ! فقد حدث حينذاك شيء فظيع رهيب ، شيء من البشاعة في واقعيته بحيث لم يكن من الممكن تخيله في الاحلام ، وقد يكون قلبي انشأ هذا الحلم ، ولكن هل كان قلبي يستطيع ان ينشيء الحادثة المستفظعة التي حدثت لي بعد ذلك ؟.. وكيف استطيع وحدي ان ابتكرها او اتخيلها في حلمي ؟.. وهل كان يستطيع قلبي الصغير وعقلي الركيك الضئيل ان يتساميا الى كشف مثل هذاالحق ؟.. آه ، اترك لكم الحكم على ذلك ، ولقد خبأت ذلك عنكم حتى هذه اللحظة ، ولكن الان سأقول الحق ، والحقيقة هي انني ... افسدتهم جميعا !..

نعم ، نعم ، لقد انتهى الامر بافسادي لهم جميعا !.. ولست ادري كيف حدث هذا ، ولكني اتذكره تذكرا واضحا ، لقد اشتمل الحلم على الاف السنين وترك في نفسي اثر الاحساس بها في كليتها ، ولست اعرف سوى انني كنت السبب في خطيئتهم وسقوطهم ، وكدودة التريخينا او جرثومة الوباء لوثت هذه الارض كلها التي كانت سعيدة بريئة من الاثام والخطايا قبل قدومي اليها ، فقد تعلموا الكذب ونما حبه في نفوسهم وكشفوا فتنة الباطل وسحره ، أوه وربما كانت المسالة في بادىء الامر من قبيل الداعبة البريئة ، وربما كانت من قبيل المعابثة الغرامية التي لم تخل من عنصر من عناصر الزيف ، ولكن هذا العنصر وجد طريقه الى قلوبهم وسرهم ، وسرعان ما تولدت منه الشهوة الحسية

وتبع الشهوة الحسية ظهور التنافس والغيرة وجاءت القسوة في اثر الغيرة والتنافس . أه انني لا اعرف ولا أتذكر ، ولكن سرعان ما سفك اول دم ، وقد ادهشهم ذلك وافزعهم وأخذ شعبهم المتلائم في التصدع والتفرق ، وتكونت منهم جماعات ، ولكن هذه الجماعات كان يناوىء بعضها البعض ، وتبع ذلك تبادل اللوم والتوبيخ والمنافرة والتجريح ، وعرفوا الحياء ، ومعرفة الحياء ساقتهم الى الفضيلة ، ونشأ تصور الشرف واخذت كل جماعة تهز لواءه ، وشرعوا في تعذيب الحيوان فابتعدت عنهم الحيوانات ولاذت بالغابات وناصبتهم العداء واخذوا يجاهدون للانفصال وليؤكد كل منهم فرديته وصاروا يتنازعون من اجل ما يملك كل واحد منهم ، واصبحوا يتحدثون بلغات مختلفة ، وعرفوا الحزن واحبوه وكلفوا بالشقاء وزعموا انه لا يمكن الوصول الى الحقيقة الا عن طريق الشقاء ، وحينئذ ظهر العلم ، ولما اصبحوا اشرارا مناكيد اخذوا يتحدثون عن الاخاء والانسانية وادركوا هذه الافكار ،

ولما غدوا مجرمين اخترعوا العدالة ووضعوا القوانين وسنوا الشرائع للعمل باحكامها ، ولكي يضمنوا صيانتها ورعايتها نصبوا المقصلة ، وكانوا لا يكادون يتذكرون ما فقدوه ، والواقع انهم رفضوا ان يعتقدوا بانهم كانوا من قبل سعداء ابرياء ، بل كانوا يضحكون مستنكرين امكان حدوث تلك السعادة في الماضي ، ووصفوها بانها حلم من الاحلام ، ولم يستطيعوا ان يتخيلوا لها صورة واضحة ولا شكلا معلوما ، ولكن العجيب الغريب انهم بالرغم من فقدانهم كل ايمان بسعادتهم السابقة ووصفها بانها اسطورة وخرافة كانوا شديدي النزوع الى السعادة والبراءة الى حد انهم اصبحوا من شدة حرصهم

على ذلك كالاطفال ، وصنعوا لهذه الرغبة تمثالا معبودا واقاموا لها المعابد ، وعبدوا فكرتهم ورغبتهم ، وبالرغم من انهم في الوقت نفسه كانوا يعتقدون بانها امر لا سبيل الى تحقيقه ولا يمكن ادراكه فانهم مع ذلك كانوا ينحنون لها ويعبدونها وقد جرت دموعهم ولو امكن عودتهم الى تلك الحالة

البريئة السعيدة التي فقدوها ولو ان انسانا قد اطلعهم عليها ثانية وسألهم هل يرغبون في العودة اليها لكان من المؤكد انهم يرفضون ، ولقد اجابوني قائلين :

« قد نكون مدلسين موالسين اشرارا ظالمين ، ونحن نعرف ذلك ونأسف له ونأسى عليه ، ونحن ربما كنا اكثر تعنيبا لانفسنا وابلغ في عقابها من ذلك القاضي الرحيم الذي سيحكم علينا والذي لا نعرف اسمه ، ولكننا عندنا العلم وبوساطة العلم سنجد الحق وسنصل اليه عن وعي وبصيرة ، والمعرفة اسمى من الشعور ومعرفة الحياة اسمى من الحياة ، والعلم سيعطينا الحكمة ، والحكمة ستكشف لنا عن القوانين ، ومعرفة قوانين السعادة اسمى من السعادة ».

هذا ما قالوه ، وبعد ان قالوا امثال هذه الاشياء اخذ كل انسان منهم يحب نفسه ويؤثرها اكثر من حبه وايثاره لاى انسان آخر ، وحقيقة انهم لم يكن لهم مندوحة عن ذلك ، واصبحوا جميعا شديدي الحرص على حقوق شخصيتهم الخاصة حتى لقد بذلوا اقصى جهدهم لكي ينتقصوا حقوق الغير ويقضوا عليها ، وقد جعلوا ذلك اهم مطالب حياتهم ، وقد تبع ذلك تفشي العبودية ، حتى العبودية الاختيارية ، وتلهف الضعفاء على الخضوع للاقوياء شريطة ان يعينهم الاقوياء على اخضاع الاضعف منهم ، وحينئذ ظهر بينهم القديسون الذين جاؤوا الى هؤلاء القوم باكين وتحدثوا اليهم عن كبريائهم وفقدانهم التوافق والتناسب وضياع الحياء بينهم ، وكان يسخر بهؤلاء القديسين ويضحك منهم او

يرجمون بالاحجار ، وكان الدم المقدس يراق على عتبات المعابد وحينئذ ظهر قوم يفكرون كيف يعيدون جمع شمل الناس ورأب صدعهم وتمكينهم من ان يعيشوا في مجتمع منسجم متوازن مع احتفاظ كل منهم بحبه الفائق لنفسه على شريطة الا يدفعه هذا الحب الى التدخل في شؤون الغير ، ونشأت الحروب حول هذه الفكرة واطردت ، وكان جميع المحاربين يعتقدون في الوقت نفسه اعتقادا جازما ان العلم والحكمة وغريزة المحافظة على الذات سترغم الناس اخيرا على ان يتحدوا ويكونوا مجتمعا منسجما قوامه العقل ، ولذا عمل العقلاء في خلال ذلك على استئصال شأفة غير العقلاء الذين لا يستطيعون فهم

فكرتهم في اسرع وقت ممكن وبذلك تزول العقبات التي قد تعترض انتصار الفكرة ، ولكن غريزة المحافظة على الذات اخذت تضعف في سرعة ونبغ رجال متكبرون متهالكون على الشهوات يريدون كل شيء او لا شيء ، ولكي يظفروا بكل شيء كانوا يرتكبون الجرائم ، واذا لم ينجحوا عمدوا الى الانتحار ، وقامت اديان تدعو الى الرغبة في العدم والقضاء على النفس من اجل الحصول على هدوء الفناء الابدي ، واخيرا سئم هؤلاء الناس عملهم الخالي من المعنى وبدت على وجوههم علامات الهم والشقاء ، وحينذاك اعلنوا ان الشقاء جميل وانه هو الوحيد الذي يكشف عن معنى حياتهم واشادوا بالشقاء في اغانيهم ،

وكنت اسير بينهم محزونا من اجلهم باكيا عليهم ، ولكن ربما كنت احبهم حبا اكثر من حبي لهم في الايام السابقة حينما كانت وجوههم خالية من علامات الشقاء وحينما كانوا ابرياء حسانا وضاحين ، واحببت الارض التي لوثوها اكثر من حبي لها حينما كانت جنة ، ولو لم يكن سبب سوى الحزن الذي غمرها ، فوا أسفاه !.. انني دائما احب الحزن والشدة ، ولكني احبهما لنفسي ولنفسي وحدها ، ولكني بكيت لهم ورثيت لحالهم ، ومددت يدي اليهم يائسا لائما لاعنا نفسي محتقرا لها ، واخبرتهم ان هذا كله من عملي ، من عملي وحدي ، وانني انا الذي ساق اليهم الفساد والتلويث والزيف ، وتوسلت اليهم ورجوتهم ان يصلبوني ، وعلمتهم كيف ينصبون الصليب ، ولم استطع قتل نفسي اذ لم اكن املك

القدرة على ذلك ، وانما كنت اريد ان القى الشقاء على ايديهم ، وكنت ظامئا الى الشقاء متحرقا على ان ينزف دمي حتى آخر قطرة في هذه الالام والحرقات ولكنهم كانوا يكتفون بالضحك مني ، واخيرا اخذوا ينظرون الى نظرتهم الى من به مس من الجنون ، وكانوا يبررون عملي ويعلنون انهم لم يحصلوا الا على ما ارادوا هم انفسهم وان ما حدث كان لا بد من حدوثه ولم يكن عنه متحول ، واخيرا صارحوني انني قد اصبحت خطرا عليهم وان عليهم ان يعتقلوني في دار المجانيب اذا لم اكف غرب لساني ، وحينئذ استولى علي حزن شديد مبرح اعتصر قلبي من الالم وشعرت بانني مشرف على الموت وحينئذ .....حينئذ استيقظت من النوم .

وكان ذلك في باكورة الصباح ، ولم يكن ضوء النهار قد لاح ، واستيقظت من الرقاد وانا على نفس الكرسي ذي المسند وكانت شمعتي قد اضاءت حتى نفدت ، وكان كل من في حجرة الضابط قد ناموا ، وكان السكون مخيما حولي وهو شيء نادر في شقتنا ، وكان اول شيء فعلته هو انني وثبت وقد اخذت مني الدهشة كل مأخذ ، فلم يحدث لي قط من قبل شيء كهذا ، حتى في اتفه التفصيلات ، فاني مثلا لم يسبق لي ان استغرقت في النوم وانا جالس على الكرسي ذي المسند ، وبينما كنت واقفا وقد اخذت اثوب الى نفسي استرعى نظري فجأة منظر مسدسي وهو ملقى محشوا مجهزا ... ولكني في الحال القيته بعيدا !.. أوه الان الحياة الحياة !.. ورفعت يدي واستدعيت الحق الابدي لا بالكلمات وانما بالدموع وغمرني سرور عظيم ونشوة غالبة ، نعم ، الحياة واستطارة الانباء السارة !.. آه ، لقد عقدت العزم في تلك اللحظة على اذاعة الاخبار ، ولقد ازمعت ذلك بطبيعة الحال طوال حياتي جميعها ، وسأمضي في اذاعة الاخبار ، واني اريد اذاعة الاخبار ـــ اخبار ماذا ؟.. اخبار الحق فاني قد رايته ، وابصرته بعيني ، وطالعني في كامل جلاله .

ومنذ ذلك الحين وانا مدمن التبشير !.. وفضلا عن ذلك فاني احب جميع الذين يضحكون مني واوثرهم على غيرهم ، ولست ادري لم ذلك ولا استطيع تفسيره ولكن الامر كذلك في الواقع ، وكثيرا ما يقال لي اني غامض ومختلط الافكار ، واذا كنت الان غامضا ملتبس الافكار فماذا سيكون من امري فيما بعد ؟.. وهذا حق ، فانا غامض وملتبس وربما سأزداد غموضا والتباسا كلما مر الزمن ، وبطبيعة الحال ساقع في اخطاء كثيرة قبل ان اهتدي الى وسيلة للتبشير ، اي قبل ان اجد كلمات لاقولها ، واعرف ماذا اصنع لان هذا امر في غاية من الصعوبة ، واني ارى ذلك بوضوح كوضوح النهار ، ولكن اصيخوا الي فمن هذا الذي لا يتورط في الخطأ ؟.. ومع ذلك فانكم تعلمون ان الجميع يعملون للهدف نفسه ، والجميع يجاهدون في نفس الاتجاه سواء في ذلك ، الحكيم وادنأ اللصوص ، فالغاية واحدة والطرق مختلفة ، وانه لحق قديم ، ولكن هذا هو الجديد ، وهو انني لا استطيع الايغال في الخطأ ، وذلك لانني رايت الحق ، وقد رأيت وعرفت ان الناس يمكن ان يكونوا على جانب كبير من الجمال والسعادة دون ان يفقدوا قوة الحياة في الارض ، ولن اصدق ولا استطيع ان اصدق ان الشر هو حالة الانسان العادية المألوفة ، ونفس هذه العقيدة هي التي يسخرون بها ويضحكون مني لاجلها ، ولكن كيف لا اصدق بها ؟.. لقد رايت الحق وليس كما لو اخترعه عقلي ، فقد رأيته وتبينته وصورته الحية قد ملأت نفسي الى الابد ، ولقد رايته في كامل جلاله وتمام بهائه فلا استطيع ان اعتقد ان الناس عاجزة عن حيازته وامتلاكه ، ولذا كيف اتورط في الخطأ ؟.. وستبدر مني هفوات من غير شك ، وربما ساتحدث في لغة قد اخلقها الابتذال ، ولكن هذا لن يطول ، فالصورة الحية لما رايت ستكون على الدوام معي وستصحح خطئي وترشدني ، آه ، اني ممتلىء شجاعة ونضارة وفتوة وسأمضي في طريقي قدما ولو استمر ذلك آلاف السنين !.. اتعرفون انني في بادىء الامر قصدت ان

اخبيء حقيقة انني افسدتهم ، ولكن هذا كان خطأ مني ــ وكان هذا اول خطأ وقعت فيه !.. ولكن الحق هتف بي قائلا انني اكذب وحفظني واصلح من خطئي ، ولكن كيف اوطد الفردوس ؟. لست ادري ، لانني لا اعرف كيف اعبر عنها بالالفاظ وبعد الحلم الذي أريته فقدت السيطرة على الالفاظ ، جميع الالفاظ الرئيسية والالفاظ الضرورية اللازمة ، ولكن لا بأس في هذا فسأمضي في عملي واستمر في الحديث ، ولن اكف عن ذلك فقد رايتها بعيني ولو انني عاجز عن وصف ما رايت ، ولكن الساخرين المستهزئين لا يفهمون ذلك ، فهم يقولون ان ذلك كان اضغاث احلام وخيال سمادير ، آه كأن هذا الكلام يحمل معنى خطيرا ! وهم يتأبون ويتعالون !.. حلم !.. ما معنى الحلم ؟.. اليست حياتنا حلما ؟.. سأقول اكثر من ذلك ، فلنفرض ان هذا الفردوس لن يكون (وهذا افهمه) ومع ذلك فانني سامضي في التبشير ، وبالرغم من ذلك فانه هين يسير ، ففي يوم واحد وفي ساعة واحدة يمكن تنظيم كل شيء مباشرة !.. والشيء الجوهري هو ان تحب الغير كما تحب نفسك وهذا هو الشيء العظيم ، وهذا هو كل شيء ، وليس المطلوب سوى ذلك ــ وستجدون طريق تنظيم ذلك في الحال ، ومع ذلك فان هذا حق قديم طالما قيل وكرر ملايين المرات ولكنه مع ذلك لم يكن جزءا من حياتنا ! ان وعي الحياة اسمى من الحياة ، ومعرفة قوانين السعادة اسمى من السعادة ــ هذا ما يجب ان نحاربه وساقوم بذلك ، ولو اراد ذلك كل انسان فانه من الميسور تنظيم ذلك في الحال .

وتعقبت آثار الفتاة الصغيرة ... وسأتابع ذلك واواصله !..

دقاق الكتان

(وهي قصة واقعية مختارة من كتابه الممتع القيم عن ذكريات طفولته

كان المستشفى العمومي ـ وقد سمي كذلك لان المرض والشيخوخة والبؤس قد اختاره للقاء ـ كان هذا المستشفى بناء ضخما يشغل حيزا واسعا مثل جميع الابنية القديمة ولا يأوي سوى عدد جد قليل من الناس ، وكان امام بابه سقيفة صغيرة يجتمع فيها معا الناقهون والاصحاء حينما يرق الجو ، والواقع ان هذا المستشفى لم يقتصر على ايواء المرضى ، وانما كان يأوي كذلك جماعة من الفقراء الذين كانوا يعيشون على الصدقات وفريقا من الضيوف الذين كانوا يدفعون لقاء ذلك مبلغا زهيدا ويعيشون عيشة مبتذلة حقيرة غير مبالين ، وكانت هذه الجماعة كلها تجيء عند بزوغ الشمس الى السقيفة ويجلس افرادها على مقاعد مبطنة بالقش ، وكانت هذه البقعة احفل نواحي المدينة الصغيرة بالحياة والحركة ، وحينما كنا نمر ـ صديقي جيومار وأنا ـ كنا نحييهم ونتلقى تحيتهم ، لاننا بالرغم من اننا كنا لا نزال صغار السن كان ينظر الينا باعتبارنا من رجال الدين ، وكان هذا يبدو لنا شيئا طبيعيا . وامر واحد كان يثير دهشتنا بالرغم من أننا كنا اغرارا لا نرى فيه شيئا من الاشياء التي كنا نستطيع استنباطها لو كنا نعرف بالحياة ، فقد كان بين الفقراء بالمستشفى شخص واحد كان يثير عجبنا كلما مررنا به .

كان هذا الشخص عانسا في الخامسة والاربعين من عمرها ، على راسها قلنسوة كبيرة من الصعب تحديد نوعها ، وكانت في العادة تجلس بلا حراك الا في النادر وقد بدا عليها الاكتئاب والذهول وانطفأ لمعان عينيها واصبحتا جامدتين ، وكانت تنبعث في عينيها الحياة حينما ترانا وتشيعنا بنظرات عجيبة تارة رقيقة حزينة ، وطورا قاسية بل تكاد تكون وحشية ، وكنا حينما نستدير نرى القسوة والغضب قد غلبا على محياها ، وكنا نتبادل النظرات دون ان نفهم شيئا ، وكان هذا يعترض تيار حديثنا ويلقي ظلا كثيفا على سرورنا ومرحنا ، وهي لم تكن تخيفنا على وجه التحديد وقد كانت تعتبر مجنونة ، ولم

يكن المجانين في تلك الايام يعاملون بالطريقة القاسية التي ابتكرتها التقاليد الادارية منذ انقضاء ذلك العهد ، فلم يكونوا يحبسون ويعزلونْ ، وانما كان يسمح لهم بالتجول طوال اليوم ، وكان بقرية تريجيير عدد كبير من المجانين ، والبريطانيون في تلك الانحاء – مثل سائر الشعوب التي يضنيها طلب المثل الاعلى – حينما لا تسندهم الارادة الناهضة يسهل انحدارهم الى حالة تترجح بين السكر والجنون ، وهي في الاغلب تنم على ضلالات القلب الذي لم يتحقق مطلبه .

وكانت هذه المرأة المجنونة بالمستشفى العام لا تكلم احدا ، ولم يعرها اي انسان اهتمامه ، ومن الواضح ان قصتها كانت قد نسيت ، ولم تقل لنا كلمة واحدة قط ، ولكن عينيها المتخاوصتين الحائرتين كانتا تؤثران فينا تأثيرا بالغا وتثيران رواقدنا ، وطالما فكرت في هذا اللغز دون ان استطيع تفسيره وجلاءه ، وقد اهتديت الى مفتاحه منذ ثمانية اعوام حينما اصيبت والدتي بمرض عضال شفها في بطء وكانت قد بلغت الخامسة والثمانين سليمة من العاهات والعوارض .

وكانت والدتي بعواطفها وذكرياتها من اهل ذلك العالم القديم ، وكانت تجيد الكلام بلغة البريطان ، وتعرف امثال الملاحين جميعها واشياء اخرى كثيرة لا يعرفها احد في الدنيا في هذا الاوان ، وكان كل ما فيها متصل بالشعب ، وكانت بديهتها الحاضرة تفيض حياة عجيبة على القصص الطويلة التي كانت ترويها ولم يكن يذكرها غيرها .

وفي ذات يوم دار الحديث عن المستشفى العام ، فروت لي تاريخه برمته .

فقلت لها : « وتلك المرأة المجنونة التي كان من عادتها الجلوس في السقيفة وكانت تخيف جيومار واياي ؟..»

ففكرت لحظة لتستحضر في ذاكرتها المرأة التي تحدثت عنها واسترسلت في تدفق وطلاقة .

« آه ، هذه المرأة يا ولدي كانت ابنة دقاق الكتان »

« ومن هو دقاق الكتان ؟..»

« لم اخبرك بهذه القصة منذ قبل ، وهي يا ولدي شيء لايفهم في هذا العصر ، فهي قصة قد مضى عليها زمن طويل ، ومنذ جئت الى ابرشيتكم هذه وانا ارى اشياء لا استطيع ان اتحدث عنها ... لقد كان اشراف الريف هؤلاء يبجلون ويحترمون ، لقد كنت اعتبرهم على الدوام النبلاء الحقيقيين ، آه ، واني اذا قلت ذلك لهؤلاء الباريزيين فانهم يضحكون مني ، فهم لا يقيمون وزنا لشيء غير باريزهم ، واني ارى انهم جدا محدودين ، لا ، انك لا تستطيع ان تعرف كيف كان ينظر الى هؤلاء النبلاء الريفيين القدامى بالرغم من فقرهم .. وتوقفت عن الكلام برهة واستأنفت الحديث :

« تنكر قرية تريدارزك الصغيرة التي كنا نرى ابراجها من اعالي منزلنا ؟.. فعلى بعد اقل من ربع فرسخ من تلك القرية التي كانت مكونة حينذاك على وجه التقريب من الكنيسة وقاعة القرية وبيت راعي الكنيسة كان منزل صاحب الاملاك كرمل ، وكان هذا المنزل ـ كغيره من منازل ملاك الارض ـ ضسعة معتنى بها يبدو عليها القدم ويحيط بها سور عالٍ لونه رمادي جميل ، وكان به بوابة كبيرة مقببة يعلوها سقف مصنوع من الاجر تفضي الى ساحة الدار ، والى جانبها باب اصغر للاستعمال اليومي ، وكان برج الحمام والمنارة ونافذتان او ثلاث متقنة البناء تشبه نوافذ الكنيسة كان هذا كله هو الذي يدل على دار النبيل ، وهي احدى القلاع القديمة التي كان يسكنها طبقة من الناس لا يمكن اليوم ان نتصور اخلاقهم وعاداتهم .

وهؤلاء الاشراف الريفيون كانوا مزارعين مثل غيرهم من الناس ، ولكنهم كانوا رؤساء عليهم ، وفي الايام الخوالي كان في ابريشية واحد منهم ، وكانوا هم قادة الشعب لا ينازعهم احد في هذا الحق وينظر اليهم الناس بعين الاكبار والاجلال ، ولكن قبل تلك العهد حوالي الثورة الفرنسية كان عددهم قد تناقص حتى اصبحوا قلة نادرة ، وكان المزارعون يعتبرونهم الرؤساء العلمانيين للابرشية ويعتبرون القسيس الرئيس الديني ، وكان النبيل الذي يعيش في تريدارزك والذي احدثك عنه رجلا مهذبا شيخا طوالا قوي البنية كشاب في مقتبل العمر وكان محياه ينم على الامانة والصراحة وكان شعره طويلا ، وكان يعقصه بمشط ولا يتركه مسترسلا الا ايام الاحاد حينما كان يشترك في العشاء الرباني ، وقد كان من عادته ان يزورنا في منزلنا بترجيبه . وما أزال اراه جاذا متوقرا يكاد يغلب عليه الحزن لانه كان الوحيد الباقي من النبلاء ، وهؤلاء النبلاء الحسباء النسباء قد اختفى اكثرهم ، والباقون منهم قد نزحوا الى المدن ، وكان جميع سكان الريف يجلونه ويعلون من شأنه ، وكان له مقعد خاص في الكنيسة ، وكان يحضر هناك في ايام الاحاد ويجلس في الصف الاول من صفوف المؤمنين وقد ارتدى حلته القديمة الطراز وقفازيه التقليديين اللذين كانا يبلغان مرفقيه ، وعند ابتداء قداس العشاء الرباني كان يبدأ في اسفل المكان المعد لجوقة المرتلين ويسدل شعره ويضع قفازيه على منضدة صغيرة من مناضد مستلزمات العشاء الرباني كانت تعد له على مقربة من الستار ، ثم يجتاز مكان الجوقة وحده محتفظا بسمته الوقور ، وكان لا يذهب احد الى مائدة العشاء الرباني الا بعد عودته الى مكانه وحتى ينتهي من لبس قفازيه وكان فقيرا ذا متربة ، ولكنه كان يستر فقره رعاية لطبقته ومستواه ، وكان لنبلاء الريف هؤلاء قديما امتيازات خاصة كانت تعينهم على ان يعيشوا عيشة تختلف بعض الاختلاف عن حياة المزارعين ، ولكن ذلك كله ذهب به الزمن وانقضى عهده ، وكان كرمل يعاني ازمة ويلقى من دهره عنتا ، وقد كان بحكم طبقته لا يستطيع العمل في الحقول ، فكان يحتبس نفسه في منزله طوال اليوم ويشتغل وراء الابواب المغلقة بعمل لا يستلزم الهواء الطلق ، فالكتان حينما يغمس في الماء يتقشر ولا يبقى منه سوى الياف النسيج ، وكان هذا هو العمل الذى وجد كرامل انه يستطيع ان يشغل نفسه دون ان يفقد كرامته وينزل من مستوى طبقته ، ولم يكن احد يراه وبذلك حافظ على شرف المهنة ، ولكن كل الناس كانوا يعرفون ذلك ، ولما كان كل انسان في تلك الايام لا بد ان يتميز بلقب فانه سرعان ما عرف بين سكان الاقليم باسم دقاق الكتان ، وقد غلب عليه هذا اللقب كما هي العادة وحل محل اسمه الحقيقي وعرف به .

وكان يعيش كزعماء العشائر وستضحك اذا حدثتك عن الطريقة التي كان يتبعها دقاق الكتان في استكمال نقص الدخل القليل غير الكافي الذي كانت تدره عليه تجارته القليلة الشحيحة ، فكانت الناس تعتقد انه بوصفه زعيما فان دم اجداده القوي لا يزال يجري في عروقه وان مواهب ارومته تتجلى فيه كأقوى ما تكون وان لعابه ولمس يديه يستطيعان ان يعيدا اليهم القوة حينما يعتريهم الوهن ، وكانوا مستيقنين من ان شفاء مثل هذه العلل يستلزم ان يكون عند الانسان عدد كبير من الدروع التي تدل على تلاقي الانساب الشريفة ، وكان هو وحده يملك ذلك ، وفي ايام معينة كان يلتف القوم حول بيته وقد قدموا من مسافة تبلغ عشرين فرسخا ، وحينما كان يتأخر طفل في المشي لضعف ساقيه كانوا

يحضرونه اليه ، وكان يبل اصبعه بلعابه ويضعها على ظهر الطفل فتعود اليه القوة ، وماذا كنت تنتظر ؟.. لقد كان للناس يقين في تلك الايام ، كانوا بسطاء صالحين !.. ولم يكن ينتظر ان يدفع له نقود لقاء ذلك ، ولما كان القوم الذين يحضرون لا يستطيعون دفع نقود لفقرهم الشديد فانهم كانوا يقدمون له هدايا اثنتي عشرة بيضة وقطعة من لحم الخنزير السمين وحفنة من الكتان وسلة من البطاطا وكتلة من الزبد وقليلا من الفاكهة ، وكان يقبل هذه الهدايا ، وكان اشراف المدينة يسخرون منه ويستخفون به ولكنهم كانوا مخطئين فهو كان يعرف حالة الريف حق المعرفة وكانت تتمثل فيه روحه .

وفي وقت الثورة هاجر الى جرسي ، ولست ادري لماذا هاجر ، ومن المؤكد انه ما كان ليمسه بسوء اي انسان ، ولكن اشراف تريجيير قالوا له : ان الملك امر بذلك ، وقد ذهب مع الاخرين ، وعاد مبكرا ووجد داره القديمة التي لم يكن احد راغبا في احتلالها اقول وجدها كما تركها ، وفي وقت التعويضات اغراه الناس بان يزعم انه فقد شيئا وانه كانت هناك اسباب وجيهة تسند دعواه ، وكان النبلاء الاخرون غير مرتاحين لفقره الشديد وكانوا يميلون الى الاخذ بيده ، ولكن نفسه البسيطة لم تقنع بالحجج التي كانوا يقدمونها له ، وحينما طلبوا اليه ان يعلن ما فقده قال : « لست املك شيئا فلا يمكن ان اكون قد فقدت شيئا » ولم ينجح اي أنسان في الحصول على رد آخر منه ، وظل فقيرا كما كان من قبل .

واظن ان زوجته ماتت في جرسي ، وكانت له ابنة ولدت في وقت الهجرة ، وكانت فتاة حسناء عطبول (لقد رايتها حين ذبلت) رقراقة بضة يتدفق في عروقها دم قوي نقي .

وكان يجب ان تتزوج وهي في ميعة الشباب ، ولكن ذلك لم يكن ميسورا ، فهؤلاء النبلاء الصغار المفلسون في المدينة الصغيرة الذين لا يصلحون لشيء والذين هم ليسوا بشيء اذا قيسوا الى نبلاء الريف كانوا لا يفكرون في طلبها لاحد من ابنائهم ، وكانت مبادئه تحتم عليه الا يزوجها من أحد النبلاء ، وهكذا ظلت الفتاة معلقة كروح معذبة ، ولم يكن لها مكان في هذه الارض ، فأبوها كان آخر طبقته ، وكأنما قذف بها الى الارض عبثا فهي لا تستطيع ان تجد فيها ركنا تلجأ اليه ، وكانت دمثة الاخلاق موطأة الاكناف وكانت جسما جميلا حتى كادت تكون جسما بلا روح ، فالغريزة كانت فيها كلاشيء ، وكان يمكن ان تكون اما بارعة ، وفي حالة عدم الزواج كان يجب ان تصير راهبة ، فان قواعد الرهبنة وواجباتها الصارمة وتكاليفها الشاقة كانت قمينة بأن تهدىء منها ، ولكن من المحتمل ان والدها لم يكن يسمح لها بان يجعلها اختا علمانية ، فما اتعس حظها !.. لقد سيقت الى الطريق الخاطىء وقضى عليها بالهلاك فيه .

ولقد ولدت صالحة مستقيمة ، ولم يخالجها شك فيما عليها من واجبات ، ولم يكن بها من علب سوى ان لها دما يتدفق في عروقها ، ولم يجترىء احد من شباب القرية على ان يتجاوز حده في الحديث معها لما كان لوالدها من الاحترام والمكانة في النفوس ، وشعورها بالتفوق كان يتجافى بها عن الالتفات الى ناشئة المزارعين ، وكانت هي في نظرهم سيدة ، فلم يفكروا فيها . وهكذا عاشت هذه الفتاة المسكينة في عزلة ، ولم يكن معها في المنزل احد سوى غلام في الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمره ، وكان ابن اخي كرمل ، وقد افسح له كرمل في بيته مكانا ، وكان القسيس على جلالة قدرة يعلمه ما يعرفه ، وهو اللاتيني .

وكانت الكنيسة هي مسلاتها الوحيدة ، وقد كانت تقية دينة بالفطرة وذلك بالرغم من انها لم تؤت من الذكاء والفهم ما يمكنها من فهم غوامض دياناتنا . وكان القسيس من رجال الدين الصالحين المتوفرين على اداء واجباتهم ، ولذا كان يعامل نقاق الكتان بالاحترام اللائق به ، وكان يقضي الساعات التي تبقى له بعد الفراغ من الصلاة وهموم وظيفته في منزله وكان يعلم ابن اخيه ، وكان يعامل الفتاة بذلك التحفظ الذي تعوده رجال الدين في بريتاني نحو افراد « الجنس » كما كانوا يسمونهن ، فكان يحييها ويسالها عن صحتها ولا يبادلها الحديث الا في الموضوعات التافهة ، واحبته الفتاة واشتد بها الوجد ، وكان القسيس هو الشخص الوحيد من مستواها الذي تراه اذ كان من المسموح به الكلام على هذا النمط ، وفضلا عن ذلك فان هذا القسيس الشاب كان وسيما جذابا ، وكان مع تواضعه ودماثة اخلاقه تبدو عليه الرزانة وسيماء الحزن ، وكنت تشعر ان له قلبا وعاطفة ولكن كان يسيطر عليهما

مبدأ أسمى ، وان هذا المبدأ استحال في نفسه الى شيء ارقى واعلى ، وانت تعرف ما رزقه بعض رجال الدين البريتانيين الصالحين من فرط عذوبة النفس وحسن المساناة ، والنساء يشعرن بذلك ويقدرنه فهذه المحافظة الشديدة على العهد ، وهي من بعض الوجوه دليل اكبار لقوتهن ، تشجعهن وتجتذبهن وترضي غرورهن ، ويصبح القسيس اخا لهن مأمون الجانب قد طلق المسرات واعرض عن المته اجلهن ، ومن ثم ينشأ عندهن شعور بعرفان الجميل تمتزج فيه الثقة بالعطف والاسف ، فاذا سر... القسيس قضى على عنصر من العناصر التي نحن في اشد حاجة اليها وابطلنا لونا من الوان التدرج الدقيق في مجتمعنا وسيعارض في ذلك النساء ، لأن هناك شيئا واحدا هو عند المرأة اسمى من ان تحب ، هذا الشيء هو ان نكبر من شأن الحب . ولا شيء يرضي غرور النساء اكثر من انبهار انهن يثرن الخوف ، والكنيسة بفرضها العفة وجعلها اول ما على رجالها من واجبات تتملق الغرور النسائي في اضعف نواحيه والينها جانبا

وهكذا تملك الفتاة المسكينة حب عميق طاغ للقسيس واستولى هذا الحب على كيانها جميعه ، وكانت النزعة الصوفية وشدة التعلق بالفضيلة الغالبتين على طباع قومها لا تعرفان ذلك الجنون الذي تخطى العقبات ويرى انه لم يظفر بشيء اذا لم يظفر بكل شيء ، كانت في الواقع قانعة بالقليل ، فلو انه اعترف بوجودها لكانت اصبحت سعيدة مغتبطة ، وهي لم تلتمس منه نظرة وانما كانت تكفيها فكرة ، وكان القسيس بطبيعة الحال هو الذي يتلقى اعترافاتها ، ولم يكن في الابرشية قسيس آخر ، وكانت تقاليد الاعتراف الكاثوليكي ، وهي جميلة ولكنها شديدة الخطر ، تثير خيالها بصورة عجيبة ، ففي يوم السبت من كل اسبوع كان من بواعث سرورها الذي لا يحده التعبير ان تظل نصف ساعة منفردة

معه كأنها مع الله وجها لوجه وان تراه وتشعر به وهو يمثل دور الله وتستنشق انفاسه وان تتلقى زجره المستعذب وتتحدث اليه عن دخائل نفسها وخلجات قلبها ووساوسها ومخاوفها ، وقل ان تجترىء امرأة تقية على ان تتخذ الاعتراف وسيلة لانشاء الحب ، وقد تستمع به وتسطيبه وتخاطر بأن تسلم نفسها لمشاعر لا تخلو من الخطر ، ولكن الواقع ان امثال تلك المشاعر دائما تشوبها النزعة الصوفية فهي تنافر تدنيس المقدسات ، ومهما يكن من الامر فان فتاتنا المسكينة كانت شديدة الحياء حتى انها كانت تتعثر الفاظها وتعجز عن التعبير لو انها حاولته ، كانت عاطفتها صامتة عميقة داخلية كالنار الآكلة ، ويمثل هذا الشعور كانت تراه كل يوم وهو في جماله وصباه قائم باعماله الجليلة في وقار بين قوم ينحنون له اجلالا وهو مرشدها وهادي روحها وقاضيها ! ... لقد كان ذلك كثيرا جدا ، فلم تستطع الفتاة المسكينة احتماله فضلت سبيلها ، فشاع الاضطراب في بنيتها القوية ي لم تطق التحول عن طريقها وازدادت خطورته شيئا فشيئا ، وقد كانت هذه الاضطرابات نتيجة الاتلاف والتدمير الداخلي الذي احدثته الاحلام المستحيلة التحقيق في قلب قد نفذ فيه الحب من جنب الى جنب ، اما والدها فقد عزى ذلك الى ضعف عقلها .

وكما ان النهر المتدفق الملآن اذا اعترضته عقبة لا يستطيع التغلب عليها يترك اتجاهه المباشر ويلتوي جانبا فكذلك هذه الفتاة التعسة فانها لما لم تجد وسيلة للافضاء بحبها الى الرجل الذي احبته عمدت الى الصغائر والتفاهات ، وقد كان يكفيها ان تسترعي انتباهه لحظة وان تظفر بالقليل من عنايته وان يسمح لها باداء خدمات هينة له ان تستطيع ان تتخيل انها نافعة له ، وكانت تستطيع ان تناجي نفسها قائلة : « يا رب من يدري ؟ .. انه بعد كل شيء رجل ، وربما يكون قلبه قد تأثر ولكن واجبات وظيفته هي التي تردعه وتثنيه » ولكن هذه الجهود جميعها ذهبت ادراج الرياح ، فان القسيس لم يتخل عن جموده المطلق ولقد كانت ابنة الرجل الذي يجله كل الاجلال ويحترمه غاية الاحترام ، ولكنها كانت امرأة ، آه ! .. فلو انه تجنبها واعرض عنها او عاملها بخشونة وجفاء لكان ذلك انتصارا لها ودليلا على انها قد مست قلبه ، ولكن هذا التأدب الرسمي وهذا الاصرار على التعامي عن رؤية اوضح دلائل الحب كان شيئا فظيعا ، وهو لم يحاول لومها وتبكيتها ولم يحتجب عنها ، ولم ينحرف قيد انملة عن التصميم الذي اعتزمه واخذ به نفسه وهو النظر الى وجودها كمجرد فكرة .

وبعد انقضاء حين من الزمن اصبح ذلك قسوة منكرة ، فقد مرضت هذه الفتاة البائسة المنبوذة وزاغت عيناها ، ولكنها ظلت مسيطرة على نفسها ، ولم يقف احد على مكنون سرها ، فقد كانت تعاني الويل وحيدة ، وكانت تقول لنفسها : « ماذا اصنع ! وهل اظل هكذا عاجزة عن استرعاء التفاته لحظة ؟ .. انه لا يسلم بوجودي ! ... ومهما صنعت فانني ساظل في نظره شبحا من الاشباح وخيالا عارضا وروحا بين مئات الارواح الاخرى ! .. اما حبه فانه مطلب عسير فيه اسراف ولكن الحظوة بالتفاته والظفر بنظراته ؟ .. وهو بارع وقريب من الله ، فلست استطيع مجاراته في ذلك ، وكونه يجعلني اما لأولاده يدنس قداسته ، ولكني لو كنت له بمثابة « مارتا » وغدوت خادمته الاولى ، وصار يعهد الي بالواجبات المتواضعة التي اصلح لها ، واكون بذلك شريكته في كل شيء ، واقصد بذلك شؤونه المنزلية التي تعنى بها امرأة مسكينة مثلي لا تعرف افكاره السامية لو تيسر لي ذلك لكان جنة الرضوان ! ... »

وكانت تجلس على كرسيها وتقضي الساعات الطويلة وهي تجيل في راسها هذه الافكار وكانت تراه

وتتخيل نفسها معه وتحيطه برعايتها والتفاتها وتنظر في شؤون منزله وتقبل حاشية ردائه : كانت تطارد هذه الاحلام الخالية من المعنى ، ولكن بعد ان تستسلم لها ساعات كانت تبدو شاحبة الوجه كأنها بين الموت والحياة ، واصبحت غير موجودة بالقياس الى من كانوا حولها ، وكان يجب ان يدرك والدها ذلك ، ولكن ماذا كان يستطيع ان يصنع هذا الشيخ الساذج لمقاومة الشر الذي لا تستطيع ان تتصوره روحه الامينة ؟ ...

وظلت الاحوال على هذا النمط مدة عام ، ومن المحتمل أن القسيس لم يلحظ شيئا ، فقساوستنا من هذه الناحية يعيشون عيشة خاضعة للتقاليد وكأنهم قد اعتزموا الا يروا شيئا ، وهذه الطهارة التي تدعو الى الاعجاب كانت تثير خيال الفتاة المسكينة ، واصبح الحب عندها ديانة وعبادة خالصة وتحليقا وسموا ، ووجدت في ذلك شيئا من الراحة ، وكان خيالها يهديها الى العاب وحيل بريئة لا ضرر منها ، وكانت تحب ان تحدث نفسها بأنها تعمل من اجله وانها مشغولة بعمل شيء له ، وقد بلغت مرحلة الاسترسال في الاحلام وهي مستيقظة ، وكانت كالذي يمشي وهو نائم ويأتي بأعمال لا يعيها وعيا تاما ، وكانت فكرة واحدة هي التي تشغلها ليلا ونهارا ، فكانت ترى نفسها قائمة بخدمته معتنية به مقبلة على عد ملابسه مشغولة بالاشياء التي لا يليق به ان يتنازل الى التفكير فيها ، وكل هذه الاوهام اتخذت لها في النهاية صورة ودفعت بها الى عمل عجيب لا يمكن تفسيره الا بحالة الجنون التي استولت عليها حينا من الزمن استيلاء تاما .

والواقع ان ما سيأتي لا يمكن فهمه الا اذا وضع الانسان نصب عينيه بعض الملامح الخاصة في خلق اهل بريتاني ، فالذي يمتاز به اهل بريتاني هو موقفهم من الحب ، فالحب عندهم عاطفة رقيقة ناعمة عميقة متولهة اكثر مما هو ميل وهوى ، وهو استمتاع داخلي مسرف يضني ويقتل ، ليس هناك ابعد منه عن نيران اهل الجنوب ، والجنة التي يحلمون بها جنة منضورة خضراء خالية من العواطف الثائرة العنيفة ، وعدد صرعى الحب في هذا الشعب يفوق عددهم في اي شعب اخر ، والانتحار نادر بين افراده ، وانما الغالب هو السل البطيء والجنوبي الذي يتملكه الهوى يقتل منافسه ويقتل من يثير عواطفه ، ولكن العاطفة التي نتحدث عنها لا تقتل الا من شعر بها ، ولهذا السبب كان الشعب البريتاني شعبا لا يجد صعوبة في التزام العفة ، فخياله المتوثب قمين بأن يخلق له عالما أثيريا يرضيه ويكفيه ، والشعور الصادق لمثل هذا الحب هو اغنية الربيع في « أغنية الاغاني » وهي قصيدة عصماء تثير حب المتعة اكثر مما تبتعث الاهواء والنوازع .

واسترسلت والدتي تقول : « كل شيء في اعماقه وهم عظيم ، والدليل على ذلك انه في حالات كثيرة ليس ايسر من خداع الطبيعة بالتقليد المضحك الذي لا تستطيع ان تميزه من الحقيقة ، ولن انسى كيف ان ابنة مارزن صاحب طاحون « الشارع الكبير » وكانت قد اصيبت بالجنون من جراء كبت مشاعر الامومة اخذت حزمة من الحطب ولفتها بالخرق ووضعت فوقها ما يشبه قبعة طفل ، وكانت تقضي الايام في تدليل هذه الالعوبة بين ذراعيها وتضمها الى قلبها وتغمرها بالقبلات وتهزها لتنام وحينما كانت تضعها عند اقبال المساء في مهدها الى جانبها كانت تظل جالسة مطمئنة حتى صباح اليوم التالي ، وهناك غرائز يكفيها المظاهر الخارجية ويمكن ان تهدئها الاوهام ، وهكذا نجحت ابنة كرمل المسكينة في تحقيق احلامها بأن صارت تفعل ما تناجيها به الاحلام ، وكان ما تحلم به هو الحياة مع الرجل الذي احبته ، وكانت بطبيعة الحال الحياة التي تقاسمه اياها هي حياة المنزل

لا حياته في الكنيسة ، فلقد خلقت الفتاة المسكينة لحياة الزواج ، وكان جنونها نوعا من الجنون المنزلي ولونا من الوان غريزة ربة المنزل المكبوتة ، وكانت تتخيل ان جنتها قد تحققت حينما ترى نفسها قيمة على منزل الرجل الذي احبته ، ولما كانت قد اصبحت لا تفرق تفريقا واضحا بين احلامها وبين الحقائق فانه قد افضى بها نلك الى نوع من الخيال بعيد عن التصديق ، فماذا كان منه ؟ ... ان هؤلاء النسوة اليائسات الفاقدات الرشد يثبتن بما شاع في نفوسهن من اضطراب قوانين الطبيعة المقدسة وحتميتها .

لقد كانت تقضي ايامها في تنيير الكتان وتعليمه ، وكان هذا الكتان في حسبانها من نصيب المنزل الذي كانت تتخيله وهذا العش المشترك الذي كانت ستقضي فيه حياتها عند اقدام الرجل الذي عبدته عبادة ، واستولى عليها الوهم الى حد انها وضعت الحرف الاول من اسمه على الملاء ومماسح الايدي ، بل كانت في الاغلب تضع الحرف الاول من اسمه الى جانب الحرف الاول من اسمها ، وكانت بارعة في مثل هذه الاشغال المنزلية ، وكانت تجلس الساعات مكبة على العمل بابرتها بغير انقطاع مستغرقة في احلامها معتقدة انهما قد اصبحا شخصا واحدا . كانت تخدع هواها وتظفر بدقائق كلها متاع ولذة تريحها وتهدىء نفسها اياما .

وهكذا كانت تمر بها الاسابيع على هذا النمط وهي تخط بالابرة حروف اسم من احبته وتقرنه بحروف اسمها ، وكانت تجد سلوى وراحة كبرى في نلك ، وكانت يداها لا تكفان عن العمل من اجله ، وهذه الملابس التي كانت تعدها وتجهزها كانت كأنها اجزاء من نفسها ، فهذه الاقمشة والمنسوجات ستكون قريبة منه وتلمسه ويقضي بها حاجاته ، ستكون بمثابة قربها هي نفسها منه ،

فأي سرور كانت تفيضه في نفسها هذه الفكرة !... حقيقة انها تكون على الدوام محرومة من قربه ، ولكن غير الممكن هو غير الممكن ، فهي ستدنو منه بالقدر المسموح به ، وهكذا ظلت عاما وهي تسمتع في الخيال بهذه المتعة البائسة القليلة ، وكانت في وحدتها وهي منهمكة في عملها كأنها مخلوقة من عالم اخر معتقدة انها قد اصبحت زوجة له في حدود المحتمل الواهية ، كانت تمر الساعات بطيئة الحركة مثل ابرتها ، وكان نلك يريح خيالها ويؤنسه ، وفي بعض الاحيان كان يختلج في نفسها الامل ، فربما يرق قلبه وربما تتساقط من عينه دمعة حينما يكشف هذه المفاجاة ويرى دليل هذا الحب العظيم والوجد العظيم ، وسيرى كيف احبه ويقدر ما في اجتماعنا معا من انس ومتعة » وهكذا كانت تسترسل في الاحلام اياما وكان ينتهي نلك في العادة بانطراحها على الارض مسلوبة القوى فاقدة الرشد .

واخيرا جاء اليوم الذي اتمت فيه طقم التيل ، فماذا تصنع به ؟ لقد استولت عليها فكرة ارغامه على قبول الطقم وان يكون مدينا لها بشيء .

لقد ارادت — اذا اجترأت على القول — ان تسرق شكره ، وان تضطره الى ان يكون عارفا ومقدرا لجميل اسدته اليه ، وهذا هو ما تمثل لخيالها وتمشى في خواطرها ، لم يكن فيه شيء من العقل ، وقد كان حيلة من السهل كشفها ، ولكن عقلها كان نائما وكانت في تلك الآونة تتبع اوهام خيالها المضطرب .

وجاءت ايام الاحتفال بعيد الميلاد ، وكان من عادة القسيس بعد قداس منتصف الليل ان يستقبل في منزله عمدة القرية واعيانها ويقدم لهم وجبة خفيفة ، وكان منزله متصلا بالكنيسة ، وكان للمنزل

بابان للخروج فضلا عن المدخل الرئيسي بميدان القرية . وكان احد بابي الخروج هذين يفضي الى داخل غرفة اللبس في الكنيسة ، ولذا كان يجعل القسيس على اتصال دائم بالكنيسة ، وكان باب الخروج الان ـ عند آخر الحديقة ـ يفضي الى الحقول وكان منزل كرمل على مسافة فرسخ ، ولكي يجنب الغلام الناشيء الذي كان يحضر ليتلقى دروسا من القسيس الالتفاف اعطاه مفتاح هذا الباب الخلفي ، فاستولت الفتاة المسكينة المذهوب بعقلها على هذا المفتاح اثناء ليلة القداس ودخلت الى منزل القسيس ، وكان خادم القسيس قد اعد المائدة من قبل لكي يستطيع الذهاب الى القداس . واخذت الفتاة المجنونة الملابس المصنوعة من التيل كلها مسرعة وخبأتها في منزل ابيها ولما خرج الناس من القداس كشف امر السرقة ، واثار ذلك خواطر الناس ، وكانت دهشتهم قبل كل شيء من ان الملابس التيلية هي وحدها التي سرقت ، ولم يشأ القسيس ان يترك ضيوفه يذهبون دون ان يتناولوا وجبتهم ، وحينما بلغ ارتباكه اقصى درجاته ظهرت الفتاة .

« في هذه المرة ستقبل يا سيدي خدماتنا ، فبعد ثلث ساعة سنحضر لك من منزلنا ما عندنا من الملابس التيلية » .

واضاف كرمل العجوز توسلاته ورجاءه ، وقبل القسيس . وبطبيعة الحال لم يخطر بباله ان تبتكر مثل هذه الخدعة فتاة كان يظن بها ضيق العقل وضعف الادراك .

وفي اليوم التالي بحثوا مسألة السرقة ، ولم يكن هناك اثر لاحداث اي كسر لاقتحام المنزل ، وكان الباب الرئيسي لمنزل القسيس وباب الحديقة سليمين مقفولين كما كان يجب ان يكونا اما فكرة ان المفتاح الذي عهد به الى كرمل قد يكون استعمل في السرقة فكانت تبدو بعيدة غير متوقعة ، ولم تخطر ببال احد ، وبقي امر باب حجرة الملابس ، فقد كان من الواضح ان السرقة لم تكن لتتم الا عن طريق هذا الباب ، وكان القندلفت ـ حافظ الاواني والاثواب الكنسية ـ في الكنيسة اثناء الحفلة ، وكانت المراة المشرفة على الملابس قد تغيبت في مناسبات كثيرة ، فقد ذهبت الى موقد الابرشية لتستحضر فحما للمبخرة ، وقامت ثلاث مرات ببعض شؤون صغيرة اخرى ، فاتجهت اليها الشبهة وحامت حولها ، وكانت امرأة بارعة ، وكانت تبدو فوق منال التهم ، ولكن ماذا كان يمكن ان يصنع بشواهد الاحوال التي كانت ترجح جانب الاتهام ؟ .. لم يستطع الناس الفرار من مواجهة هذا اللون من المنطق ، وهو ان اللص دخل من باب حجرة الثياب والمرأة المشرفة على الثياب هي الوحيدة التي تستطيع الدخول من هذا الباب ، وقد اثبت الواقع انها دخلت منه ، واقرت هي نفسها بذلك .

وفي ذلك الوقت كان يؤخذ على الدوام بفكرة ان كل جريمة يجب ان يتبعها الاعتقال والحبس ، وكان ذلك يعلي من شأن العدالة وحكمتها الخارقة ويبين مضاءها وسرعة تهديدها في كشف الجريمة واقتفاء آثارها . فأخذت المرأة اثنان من الشرطة اخذ عزيز مقتدر وكانت تسير بينهما على قدميها وكان تأثير حضور الشرطيين في القرية باسلحتهما اللامعة وسيورهما الجلدية الرقيقة عظيما بالغا ، ويخص اهل القرية ، وظلت المرأة القيمة على الثياب وحدها هادئة راكنة وقالت لهم انها واثقة بان براءتها ستظهر .

والحقيقة انه ظهر في اليوم التالي او اليوم الذي جاء بعده استحالة قيامها بالسرقة ، وفي اليوم الثالث كان كل انسان من اهل القرية لا يكاد يجترىء على مخاطبة الآخرين ، فقد كان يطوف بخاطر كل منهم نفس الفكرة ، ولكن احدا لم يجترىء على التصريح بها ، وكانت هذه الفكرة تبدو لهم واضحة وسخيفة في الوقت نفسه ، وهذه الفكرة هي ان مفتاح دقاق الكتان وحده هو الذي كان يمكن استعماله

في السرقة ، وكان القسيس يتحاشى الخروج خشية ان يقوى الاشتباه الذي استولى عليه واخذ باكظامه ، وهو حتى تلك اللحظة لم يكن قد اختبر الملابس التيلية التي ارسلت اليه عوضا عن ملابسه ، وبصرت عيناه بالحروف المعلمة بها ، فأدهشه ذلك ، واخذ يفكر في الموضوع تفكيرا حزينا ، ولم يستطع ان يفهم سر الحرفين المعلمين ، وكان من الصعب عليه ان يعرف الاوهام العجيبة ، التي كانت تعرض لامرأة بائسة مجنونة .

وكان مستغرقا في افكار حزينة سود حينما ابصر بدقاق الكتان داخلا وقد انتصبت قامته وشحب وجهه اكثر من شحوب الموت ، وظل الرجل واقفا ثم انفجرت من عينيه الدموع وقال : « إنها هي ! تلك الفتاة البائسة !.. كان يجب ان اراقبها مراقبة اكثر وان اعرف ما يشغل فكرها ، ولكنها كانت دائما حزينة منقبضة ، وكانت تتجنب لقائي » .

وكشف غوامض المسألة ، وبعد لحظة احضرت الملابس المسروقة الى حجرة الثياب ، وقلة عقل الفتاة جعلتها تأمل ان تلك الفضيحة سرعان ما ينتهي امرها وينذثر خبرها وانها تستطيع بعد ذلك ان تستمتع في هدوء بتلك الحيلة التي احتالتها ، ولكن القبض على المرأة القيمة على الثياب والضجة التي احدثها ذلك افسدا خطتها ، ولو كانت الحاسة الاخلاقية لم تمح من نفسها محوا تاما لما فكرت في غير اطلاق سراح المرأة القيمة على الثياب ، ولكنها لم تفكر فيها ولم تعن بأمرها ، فلقد كانت مستغرقة في نوع من الذهول ليس له ادنى علاقة بالندم وتبكيت الضمير ، والذي كان يضايقها ويثقل عليها هو حبوط محاولتها الهجوم على عقل القسيس الواضح ، فأي عقل آخر غير عقل القسيس كان يؤثر فيه افتضاح امر مثل هذا الحب الشديد الطاغي ، وظل القسيس غير متأثر ، وآلى على نفسه الا يفكر في هذه الحادثة العجيبة الخارقة ، وحالما تبين براءة المرأة القيمة على الثياب نام ، وكان يقوم بالقداس والصلوات بنفس الهدوء كما في سائر الايام .

وظهرت ضخامة الخطأ الذي ارتكب في القبض على حافظة الثياب واعتقالها ، ولولا ذلك لأمكن تغطية المسألة وتسويتها ، فانه لم يكن هناك سرقة حقيقية ، ولكن بعد ان قضت امرأة بريئة اياما في السجن لاتهامها بعمل وصف بانه سرقة كان من الصعب العسير ترك المجرم بغير عقوبة ، ولم يكن جنونها ظاهرا ، ولا بد من التسليم بأن هذا الجنون كان جنونا داخليا ليس غير ، ولم يخطر ببال احد قبل ذلك ان ابنة كرمل كانت مجنونة ، وكان مظهرها الخارجي كمظهر سائر الناس فيما عدا سكوتها التام ، فالاعتذار بذهاب العقل كان يمكن المعارضة فيه ، وفضلا عن ذلك فان التفسير الحقيقي للمسألة كان عجيبا بعيدا عن التصديق حتى لم يجترئوا على ذكره وبيانه ، وما دام الجنون لم يسلم به فان حبس حافظة الثياب كان مما لا يمكن المسامحة فيه وغض النظر عنه ، ولو كانت السرقة لعبة لكان من واجب مبتكر هذه الفكاهة ان ينهيها على الفور حينما اصبح شخص ثالث ضحية لها ، والقي القبض على الفتاة البائسة وسيقت الى سنت برييك للمحاكمة ، ولم تنجل عن الفتاة غشية الذهول وبدت كأنها ليست في هذه الدنيا ، وقد انتهى حلمها ، والوهم الذي نشدته اياما وعاشت به قد انقشع وتبدد واصبح ليس له وجود ، ولم يكن يبدو عليها انها تعاني شدة او تحس الما وانما كانت تلتزم الصمت العميق المحزن ، وجاء الاطباء وفحصوها فحصا دقيقا بتبصر وعناية .

وعرضت قضيتها على المحكمة في سرعة ولم يكن في الامكان استخراج كلمة واحدة منها ، ودخل دقاق الكتان منتصب القامة ثابتا رزينا تبدو عليه علامات الاستسلام للمقادير ، ودنا من منضدة

قاضي القضاة ووضع قفازيه وصليب سنت لويز الذي كان يملكه ووشاحه ، ثم قال : « ايها السادة ، اني لا استرد هذه الاشياء الا اذا وافقتم على ذلك ، انها هي التي سرقت ، ولكنها مع ذلك ليست لصة ، انها مريضة » .

وانفجرت دموع الرجل الطيب وخنقته العبرات .

وسمع من كل جانب كلمة « هذا يكفي .. هذا يكفي » واظهر المدعي العمومي لباقة ، واسقط الاتهام دون ان يخوض في مسألة الاضطراب الناشيء من فرط الحب والهيام .

ولم تطل مداولة المحكمين ، وبكى الحاضرون ، ولما نطقت المحكمة بالبراءة استرد دقاق الكتان اوسمته وعاد ادراجه مسرعا ومعه ابنته الى القرية وقد ارخى الليل سدوله .

وفي اثناء هذه الفضيحة العامة لم يستطع القسيس ان يتجنب معرفة الحقيقة في مسائل كثيرة كان يخبئها عن نفسه ، ولم يؤثر فيه ذلك ، فالحقائق الواضحة التي كانت موضوع احاديث الناس جميعهم كان يتظاهر بتجاهلها ، ولم يطلب نقله ، ولم يفكر الاسقف في عرض ذلك عليه ، وقد يتخيل الانسان انه اول مرة راى كرمل وابنته بعد الحادثة قد تأثرت عواطفه بعض التأثر ، ولكنه لم يشعر بشيء من ذلك ، وكان يثابر على الذهاب الى منزل كرمل في الوقت الذي يعرف انه سيلقى فيه الأب وابنته .

وقال لها : « لقد ارتكبت اثما عظيما ، وكان اثمك بجنونك الذي سيغفره لك الله اقل من اثمك بترك هذه المرأة الصالحة معتقلة في السجن ، فمن جراء خطئك عوملت امرأة بريئة عدة ايام معاملة اللصوص ، واعظم اهل هذه الابرشية امانة ساقها الشرطة بمسمع وبمنظر من جميع الناس ، وانت مدينة لها باصلاح ذلك ، ففي يوم الاحد ستكون هذه المرأة القيمة على الملابس في مقعدها بالكنيسة في الصف الاخير قرب باب الكنيسة ، فعند الصلاة عليك ان تذهبي اليها وتقتاديها بيدك الى مقعد الشرف الذي تجلسين فيه فهي احق به منك » .

وقامت الفتاة المسكينة بطريقة آلية بما اوصاها به ، ولم تعد مخلوقة بها شعور ، وبعد انقضاء تلك الايام كان يندر ان يرى دقاق الكتان واسرته ، واصبح منزله كالقبر لا تنبعث منه علامة من علامات الحياة .

وماتت القيمة على الثياب اولا ، فقد كانت الصدمة اقوى من ان تحتملها هذه المرأة الساذجة وهي لم يخالجها الشك لحظة واحدة في العناية الالهية ، ولكن هذا الحادث هزها ونال منها ، واخذت في الضعف والهزال شيئا فشيئا ، لقد كانت قديسة .

وعاش الشيخ سنوات قلائل بعد ذلك فقد اخذ يموت فترا ففترا ، وكان ملازما بيته لا يبرحه ولا يحادث القسيس ، وكان يذهب الى الكنيسة ولكنه لا يجلس في مقعده ، وكان من القوة بحيث استطاع ان يقاوم هذا الالم المحزن مدة ثمانية او عشرة اعوام .

وكان مشيه لا يتجاوز خطوات قليلة تحت اشجار الزيزفون التي كانت تظلل منزله ، وفي ذات يوم رأى في الافق شيئا غير مألوف ، كان هذا الشيء هو العلم المثلث الالوان خافقا فوق برج كنيسة تريجيير ، وكانت ثورة يوليو قد حدثت ، ولما علم ان الملك قد لاذ بالفرار ادرك اكثر من اي وقت آخر انه من عالم قد انتهى اجله ، فالواجب الرسمي الذي ضحى من اجله بكل شيء اصبح لا غاية له ولا هدف ، ولم يأسف لتعلقه بمثل اعلى للواجب ولم يفكر في انه كان يستطيع ان يعمل للغنى وجمع المال

مثل غيره ، ولكنه فقد الايمان بكل شيء الا الايمان بالله ، وطاف انصار الحزب الكارلي بالقرية يعيدون ويكررون في كل مكان ان هذا لن يدوم طويلا ، وان الملك الشرعي سيعود ، ولكنه كان يضحك من هذه التكهنات السخيفة ، وسرعان ما ادركته الوفاة في عقب ذلك ، واسعفه القسيس وفسر له تلك الآية الجميلة التي تقرأ في الصلاة من اجل الموتى : « لا تكن مثل الوثنيين الذين لا امل لهم » .

وبعد موته اصبحت ابنته لا عائل لها ، وبدبر امر وضعها في المستشفى . وهناك رأيتها ، ولا نزاع في انها قد اصبحت في عداد الموتى وان آخرين غيرها قد شغلوا فراشها في المستشفى العمومي » .

انتهـى الكتــاب

صور وطبع على
مطابع زين الدين ـ القرية
تلفون : ٥٦٠٠١٤